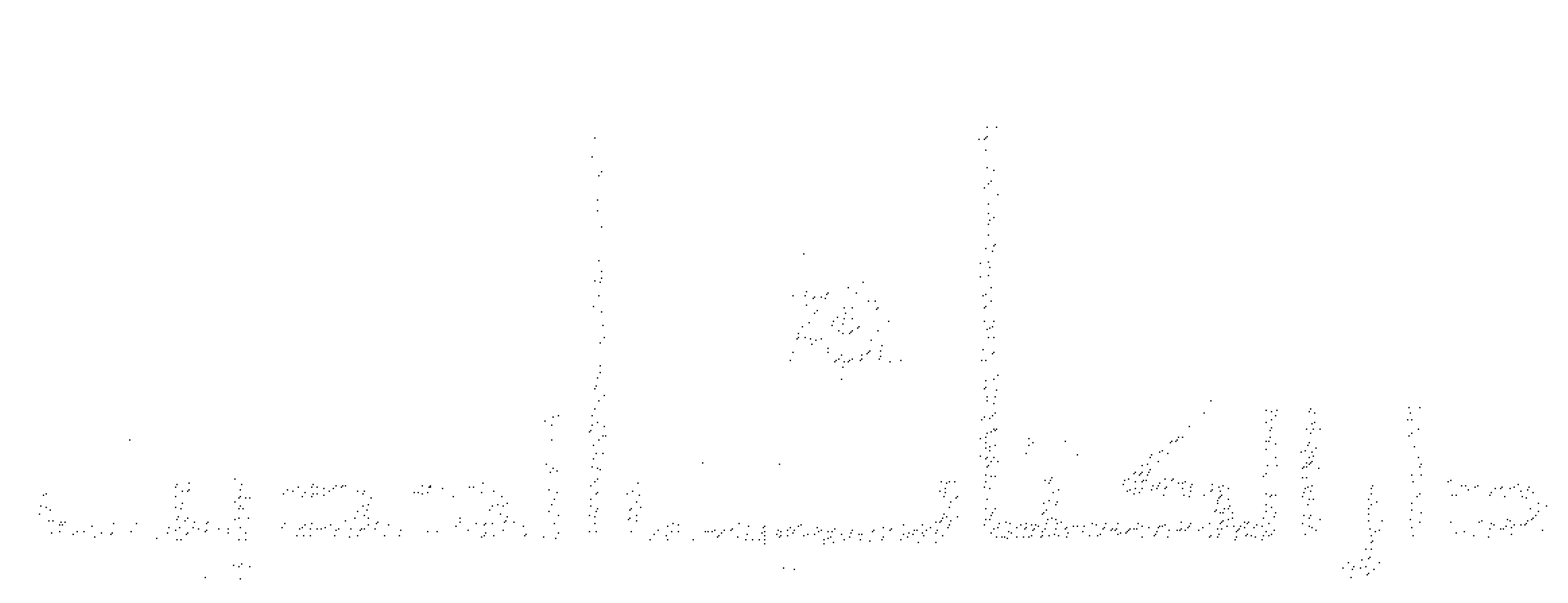


د. عبد الحليم عويس
بنو أمية في التاريخ
بين الضربات الخارجية والانهيار الداخلي
[دراسة حول سقوط دولة بني أمية في المشرق]
دار الكتاب الحديث



بنو أمية فى التاريخ

بين الضربات الخارجية والانهيار الداخلى

(دراسة حول سقوط دولة بنى أمية فى المشرق)

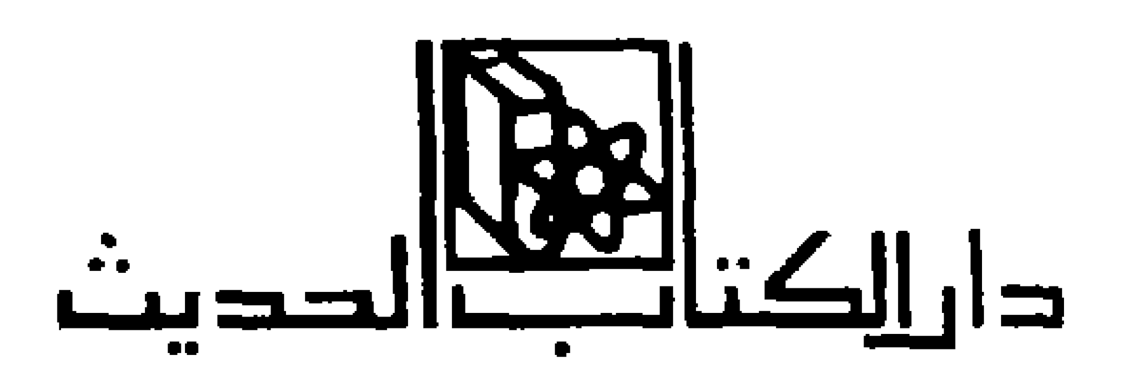
الدكتور

عبد الحليم عويس

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

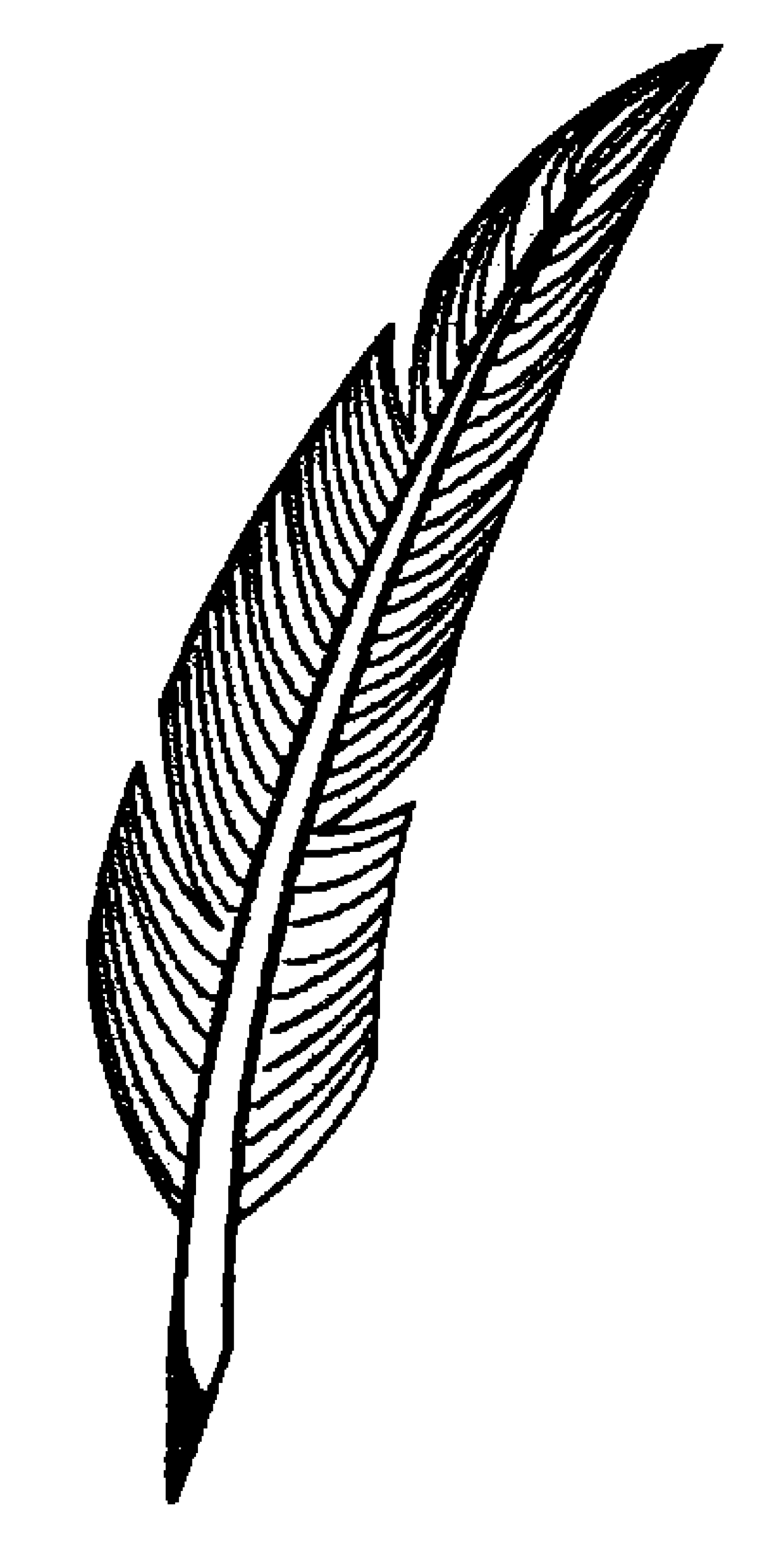
دار الكتاب الحديث

1428 هـ / 2008 م

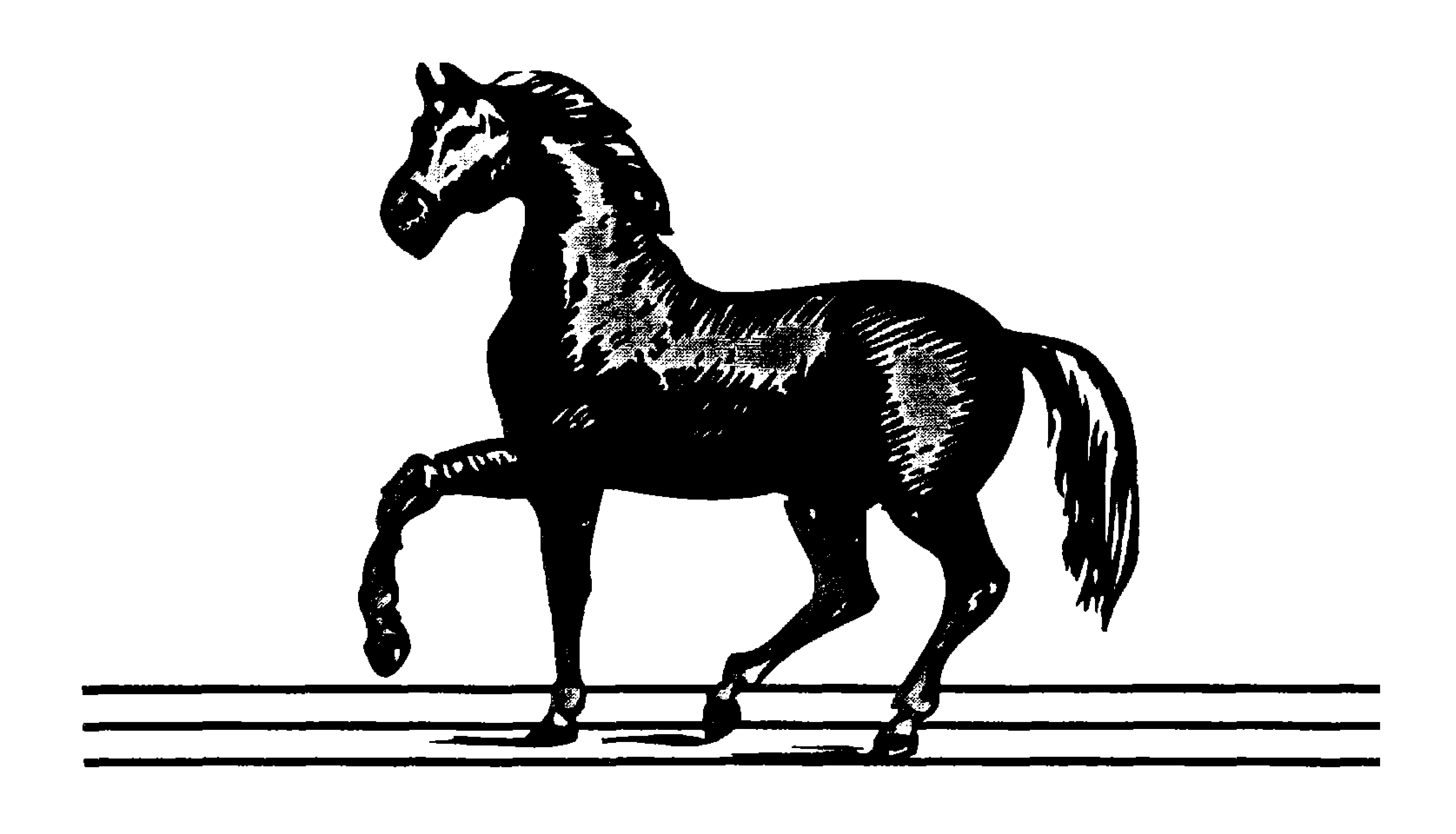


القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : **dkh_cairo@yahoo.com**
لكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : **ktbhades@ncc.moc.kw**
لجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail_**dkhadith@hotmail.com**
رقم الإيداع	2007/20175
I.S.B.N	977-350-167 - 1

بسم الله الرحمن الرحيم



بنو أمية
والكتابات المتحيزة



توطئة

* * * * * *

قامت دولـة بنى أميـة فى المشرق عـام الجماعـة سنة41هـ (661م) وعاشت تواجه عدداً من المشكلات حتى انتهت سنة(132هـ/ 750م). .

أسسهـا أموى هو معاوية بن أبى سـفيان (41 - 60هـ) وسقطت - وهى لا تزال فتية - على عهد أموى آخر هو مروان بن محمد (127 - 132هـ).

ويكاد يجـمع المؤرخون عـلى أن مؤسس الدولة عظـيم من عظماء العـرب وداهية من دهاتهم. . ويكادون يـجمعون كـذلك على أن مروان بن محـمد الذى سقطت الدولة فى عهده عظيم كـذلك، وأنه - لولا تكالب عوامل السقوط وبزوغ دعوة آل العباس - لكان قادراً على قيادة السفينة، وأنه كان كفئًا بارعًا.

وبين هذين الرجلين العظيـمين - مع اختـلاف فى درجة العظمة بينهـما - تتابع خلفاء بنى أمية الأربعة عـشر. . فكان منهم عظماء كبار، وبناة دول من طراز نادر، مثـل: عبد الملـك بن مروان (65 - 86هـ)، والوليد بن عـبد الملك (86 - 96هـ)، وعمـر بن عبـد العزيز (99 - 101هـ)، وهشام بن عـبد الملك (105 - 125هـ). . .

وتكاد فترة حكم هؤلاء الذين يكاد الإجماع ينعقد على عظمتهم - حتى من بعض خصومـهم - تغطى ثلاثة أرباع الفترة الزمنية للـحكم الأموى فى المشرق. . فهى بـالتحديد تنـتظم سبعًـا وسبـعين سنة من حكم بنـى أمية الذى يبـلغ إحدى وتسعين سنة!!.

فلماذا سقطت هذه الدولة الشابة الفتية إذن؟

ـ إن هذا السؤال كـان ـ وما زال ـ يلح على مؤرخـى الإسلام، ولعله ليس من المبالغة القول: إن كثرة طرح السؤال فـيما يتعلق بالدولة الأموية دليل ـ فى حد

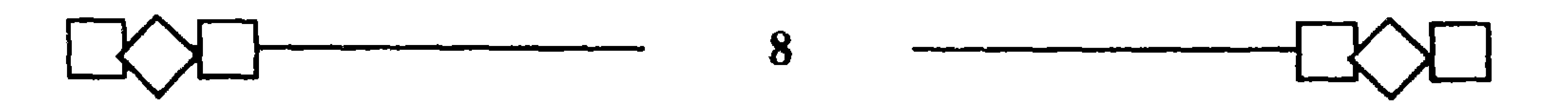
ذاته ـ على نوع من الاندهاش والحيرة لدى جمهور المؤرخين إزاء هذا العمر القصير، والسقوط السريع لدولة الفتوحات العظيمة؛ التى حفلت بعظماء كبار من طراز معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز!!

إن أية مقارنة تاريخية بين شخصيات الدولة وأعمالها، شخصيات عدد من الدول التى طال عمرها أضعاف الدولة الأموية وأعمالها ـ كذلك ـ سوف تكشف لنا أن الأمويين لم يكونوا أقل من غيرهم، إن لم يكونوا أفضل منهم، سواء فى نوعية الشخصيات الحاكمة، وإمكاناتهم الخلقّية والنفسية والفكرية والتزامهم بالإسلام، أم فى الأعمال العامة الحربية والسلمية التى قامت بها كل دولة من هذه الدول.

فالفاطميون ـ كمثال ـ كان حكامهم فى المغرب أربعة عشر خليفة، وهو نفس عدد خلفاء بنى أمية، وقد كانت صراعاتهم فى أغلبها مع المسلمين، وكانت امتداداتهم الحربية على الأرض الإسلامية نفسها، وإنه لمن التجاوز مقارنة شخصيات خلفائهم ـ من ناحية أعمالها الخارجية والداخلية والتزامها بالإسلام[1] ـ بخلفاء بنى أمية، وبالأعمال التى قام بها بنو أمية فى الداخل والخارج.. ومع ذلك فقد عاش الفاطميون يحكمون مصر أكثر من قرنين (358 ـ 567هـ)!! وحكموا المغرب أكثر من ستين سنة...

فكيف وقع هذا التفاوت بين عُمْر الأمويين والفاطميين مع ما تميز به كل منهم؟!!

(1) انظر فى هذا السبيل: القاضى النعمان: رسالة افتتاح الدعوة، ص1ـ 3، وما بعدها، بتحقيق فرحات الدشراوى، طبع بتونس، وانظر ابن قاضى شهبة: الكواكب الدرية فى السيرة النبوية، تحقيق محمود زايد، ص: 207، وما بعدها، طبع بيروت 1971م، وانظر ابن حماد: أخبار ملوك بنى عبيد، طبع الرياض، ص: 15، وما بعدها، وانظر عبد الحليم عويس: قضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخى ـ نشر دار الصحوة بالقاهرة، ط1 1985م.



إنه ليبدو لى - كفرضية أطرحها فى باب تفسير التاريخ - أنه لا تطابق بالضرورة بين أعمال الدول وبين عظمتها. . . وإن سقوط الأمويين السريع ليس دليلاً على عدم جدارتهم، كما أن امتداد أعمار بعض الدول ليس دليلاً - بالضرورة - على أهليتها للبقاء. . . !!

وربما يرى كثير من دارسى التاريخ أن ميزان الأمويين فى التاريخ - على قصر عمرهم - لا يقل عن ميزان العباسيين مع طول عمرهم (132 - 656هـ)!!

وبالتالى فإننا يجب أن نبحث عن الأسباب الحقيقية التى أودت ببنى أمية، دون أن نحمل أفكاراً ثابتة مسبقة ضدهم، أو أن نكون قد تأثرنا بتلك الكتابات الشائعة التى ذهبت تعالج تاريخ بنى أمية، وهى منتمية أصلاً لموقف فكرى عقدى أو سياسى أو عاطفى مناهض لهم!!

فى البداية أحب أن أقول: إن المؤرخ الموضوعى هو (محام) عن الحقائق التى ينتهى إليها من خلال معايشته للوقائع وفحصها. . .

وحتى لو كان دفاعه حارًّا، فهذا لا يؤخذ عليه (من ناحية المبدأ) لا سيما بالنسبة لقوم كبنى أمية ظل تاريخهم هدفًا للتجنى والافتراء والازدراء خلال القرون الخمسة التالية لسقوطهم على الأقل، وهى قرون خصومهم العباسيين. . كما ظل تاريخهم هدفًا للغمط والازدراء من الفاطميين ومن آل البيت والهاشميين ومن الخوارج ومن بنى بويه ومن عملائهم المأجورين كأبى الفرج الأصفهانى صاحب كتاب (الأغانى) وغيرهم. . . .

فإذا جاءت مدرسة تاريخية معاصرة - على هذا النحو - تكشف اللثام عن هذا الظلم، وتقدم للأمة الصفحة الحقيقية - بكل ألوانها وأطيافها - لدولة إسلامية لم تعش إلا تسعين عامًا [وهو ما يساوى أعمار ثلاثة حكام من الجبارين المعاصرين الذين دمروا كل شىء إيجابى فى أوطانهم المحدودة!!] [وبالمناسبة فإن المستنصر الفاطمى الذى أكلت مصر فى عهده لحوم الكلاب والحمير وبيعت لحومها فى



الأسواق حكم ستّين سنة!!][1]. . . ومع ذلك استطاعت هذه الدولة (الأموية) - فى هذا الزمن الوجيز - أن تفتح معظم بلاد العالم القديم، وتدقّ أبواب القسطنطينية، وتسيطر على البحر المتوسط الذى كان بحيرة رومانية، وتقضى على البيزنطيين فى الشمال الإفريقى الذى عجز من كانوا قبلها عن فتحه، وتفتح الأندلس حتى ما وراء جبال البرانس، وتتوغل فى الهند الشمالية، وتسيطر على منطقة ما وراء النهر، وتزحف على آسيا الوسطى وغيرها.

إذا جاءت مدرسة تَفْعَلُ هذا دون أن تُخفى الأخطاء. . . فهل تُلام هذه المدرسة (وأنا واحد منها)؟ وهل تستحق أن يُقال عنها كما قال عنِّى الشيخ (القرضاوى): (إننى أغالى غلواً غير مقبول، وأنصبُ نفسى محاميًا عن تاريخ بنى أمية كله بأخطائه وخطاياه)[2]؟!

إننى لا أعتقد أننى - وهذه المدرسة - نستحق اللوم أو نستحق هذه الصفات (فحاشا لله أن ندافع عن الأخطاء والخطايا)؛ بل إننى أعتقد أنَّ هذا الموقف الذى نتبناه إنصاف جاء متأخراً عدة قرون لبعض صفحات (تاريخنا المفترى عليه!!).

لنتذكر هنا ما يقوله العقاد:

حق الأمانة على المؤرخ فى هذه المرحلة من التاريخ الإسلامى أن يراجع بينه وبين ضميره طائفة من الحقائق البديهية، قبل أن يستقيم له الميزان الصادق لتقدير الرجال بأقدارهم وتقويم المناقب والمآثم بقيمتها.

ومن الحقائق البديهية تواطؤ الزمن على إقرار ما قيل وتكرر، وطال وقوعه فى الأسماع، حتى لتكاد تنفر من تغييره لو عرض لها شىء من التغيير، وحتى

(1) انظر: المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص: 23 وما بعدها، القاهرة، دار ابن الوليد، بدون تاريخ.. وراجع كذلك، د/ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية فى مصر، ص: 204، 205، الدار المصرية اللبنانية، ط / الثانية -(2000م).

(2) د/ يوسف القرضاوى: تاريخنا المفترى عليه، ص 289، القاهرة، دار الشروق، ط/ الأولى (1425هـ / 2005م).



لتكاد تعجز عن النفاذ إلى الحقيقة لو رغبتْ فى ذلك التغيير لسبب من الأسباب، وقلما تعرض هذه الأسباب لمن لا يعْنيهم تمحيص ما يقال فى الساعة الراهنة، فضلاً عما يقال ويعاد منه مئات السنين(1).

* * *

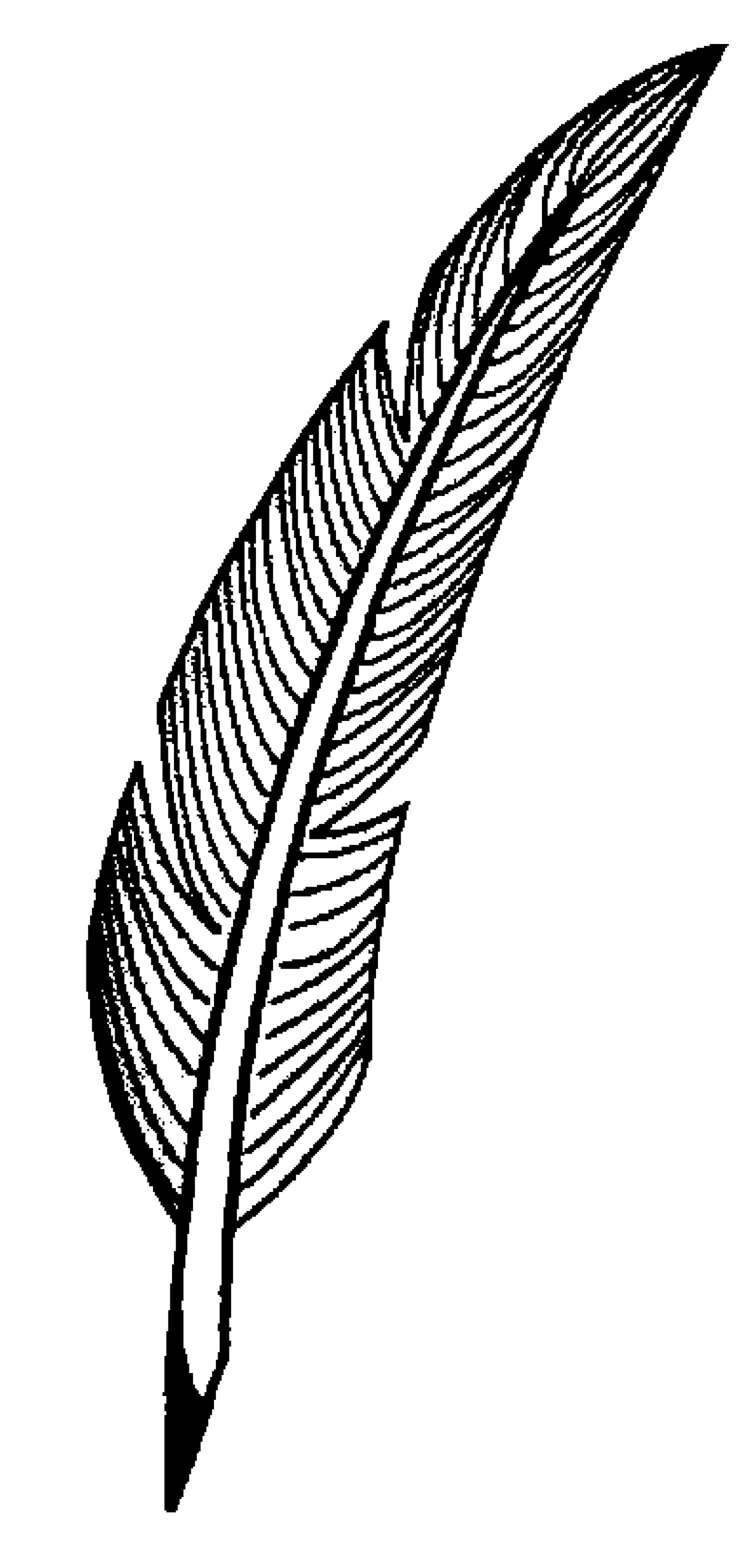
ومن الجدير بالذكر - أيضًا - فى هذا المقام - أنَّ الموازين العاطفية لا تحكم وقائع التاريخ، وبالتالى فالقول بأن المسلمين جميعًا - كما يقول البعض - يتحيزون للإمام علىٍّ وذريته هو قول صحيح إذا كان التحيز دينيًّا وعاطفيًّا، ونحن مع المسلمين جميعًا فى هذا، فنحن نحب آل البيت أكبر من معاوية والأمويين مئات المرات...

لكنّ هذا الحب الدينى والوجدانىّ لا يمنعاننا (ما دمنا فى مقام الإنصاف التاريخى) أن نحكم بالعقل المجرد، وبالمنهج الموضوعى المحايد، كما يحكم القاضى العادل على أقربائه لحساب أعدائهم (اعدلوا ولو كان ذا قربى).

* * *

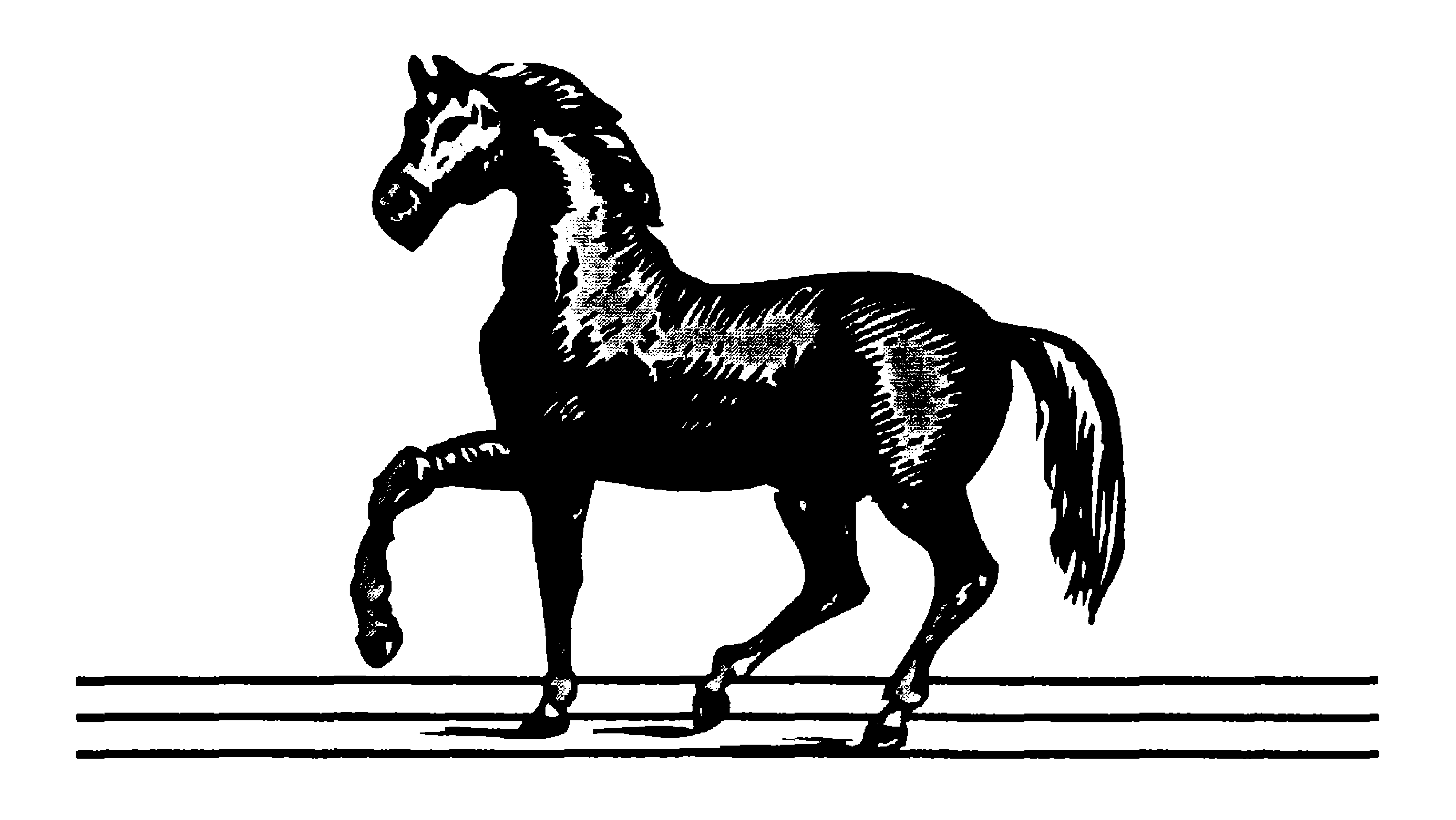
---

(1) العقاد: معاوية، ص 325، دار الكتاب اللبنانى، ط/ 1، 1974م.



بنو أمية

والأحكام العاطفية



إن كتــابات مثل كــتابات يوليوس فــلهوزن عن (تاريخ الدولة العــربية - من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية)، وكتــابات فان فلوتن عن (السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية) وكتابات عبد الرزاق الأنبارى عن (تاريخ الدولة العربيــة) قد دخلت باب الكتابة عن الأمــويين، وهى تحمل أفكاراً مسبــقة، ولعل الإصرار على استعــمال مصطلحى (الدولة العربية، والسيــادة العربية) يحمل حكمًا مسبــقًا على الأمويين بأنهم كانوا ذوى نزعة عربية متــعصبة!! أو على الأقل كأن الأمــر انتقل من دولة راشــدية إسلامــية عامــة إلى دولة تحكم لصــالح العرب وحدهم!!

على أن بعض المصادر التاريخية لم تخل من هذا الموقف العقدى أو العاطفى المسبق، ولعل هذه المصادر هى المسئولة عن كثــير من التشويهات التى لحقت تاريخ بنى أمية.

فكتاب الإمامة والسياسة المنســوب لابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة (276هـ) كتاب ملىء بالغرائب فيما يتعلق ببنى أمية، وصاحبه متحيز ضدهم، وهو لا يذكر لنا مصادره ولا سلسلة رواته[1]، والذين درسوا حياة ابن قتيــبة يتشككون فى نسبة الكتاب إليه؛ لأن ابن قتيبة أديب أكثر منه مؤرخًا.. كما أنه كان أمينًا فى ترجماته التى وردت فى كتابه (المعارف) لبعض شخصيات العصر الأموى، وهو ما يتناقض مع ما أورده - إذا صــحت نسبته إليــه - فى كتاب الإمامــة والسياسة.. فــالكتاب فضلاً عن كونه مشكوك النسبة إلى صاحبه لم يوثق رواياته.

---

(1) انظر عبد الرزاق الأنبــارى: تاريخ الدولة العربية العصر الراشــدى والأموى، طبع بغداد، 1406هـ ص(ح)، وانظر: سيــدة إسماعــيل كاشف: مصــادر التاريخ الإسلامى، مكتــبة الخانجى، 1396هـ، ص33.

ومن معاصرى ابن قتيبة الذين كان لهم موقف عقدى وعاطفى مسبق من الأمويين أحمد ابن أبى يعقوب المعروف باليعقوبى المتوفى سنة (284هـ/ 798م). فقد اشتهر اليعقوبى بميوله العلوية[1]، وقد ألف تاريخه المعروف بتاريخ اليعقوبى، وأظهر تعصبًا ضد بنى أمية على امتداد صفحات الكتاب.

وكان أبو حنيفة الدينورى المتوفى سنة (282هـ) والمعاصر لابن قتيبة واليعقوبى من المتعصبين للموالى ضد العرب؛ ولهذا فقد كثرت الروايات الضعيفة عنده، ولم يأت بأسانيد لرواياته، فكانت رواياته غير دقيقة ومضللة فى كثير من الأحيان[2].

كما أن مؤرخنا الكبير الرحالة أبا الحسن على بن الحسين بن على المسعودى المتوفى سنة (346هـ) صاحب كتابى "مروج الذهب"، و"التنبيه والإشراف" دخل إلى مجال التاريخ الأموى وهو يحمل - سلفًا - تحيزًا مسبقًا ضد معاوية فى صراعه مع على بن أبى طالب، واضطرابًا فيما يرويه عن يزيد بن معاوية، وعدم رضا وقبول لشخصية عبد الله بن الزبير، وتناقضًا فى كلامه عن عبد الملك بن مروان، وظلمًا وإجحافًا ومبالغةً وجموحًا فيما سطره عن الحجاج الثقفى[3]، وبصفة إجمالية أثرت نزعة المسعودى الشيعية على كتاباته عن تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين، ولم يستطع أن يكتب تاريخًا مجردًا من الهوى[4]، وقد رفض اليعقوبى والمسعودى - كموقف مبدئى - الاعتراف ببنى أمية - كخلفاء

---

(1) انظر: سيدة كاشف: المرجع السابق، ص 33. وانظر عبد الرزاق الأنبارى: المرجع السابق، ص(خ).

(2) عبد الرازق الأنبارى: المرجع السابق، هامش (3).

(3) انظر سليمان السويكت: منهج المسعودى فى كتابة التاريخ (رسالة دكتوراه) السعودية، الطبعة الأولى، 1407هـ صفحات 362 إلى 367.

(4) المرجع السابق، ص367، وانظر عبد الرزاق الأنبارى: تاريخ الدولة العربية العصر الراشدى والأموى، طبع بغداد، 1406هـ، ص (ر المقدمة).

- وكانا يتحدثان عن تاريخ خلفاء بنى أمية تحت عنوان (أيام. . .) فيقولان: أيام عبد الملك بن مروان[1] وهكذا فى بقية الخلفاء، وهو ما يعكس موقفًا ثابتًا مسبقًا - كما ذكرنا -!!

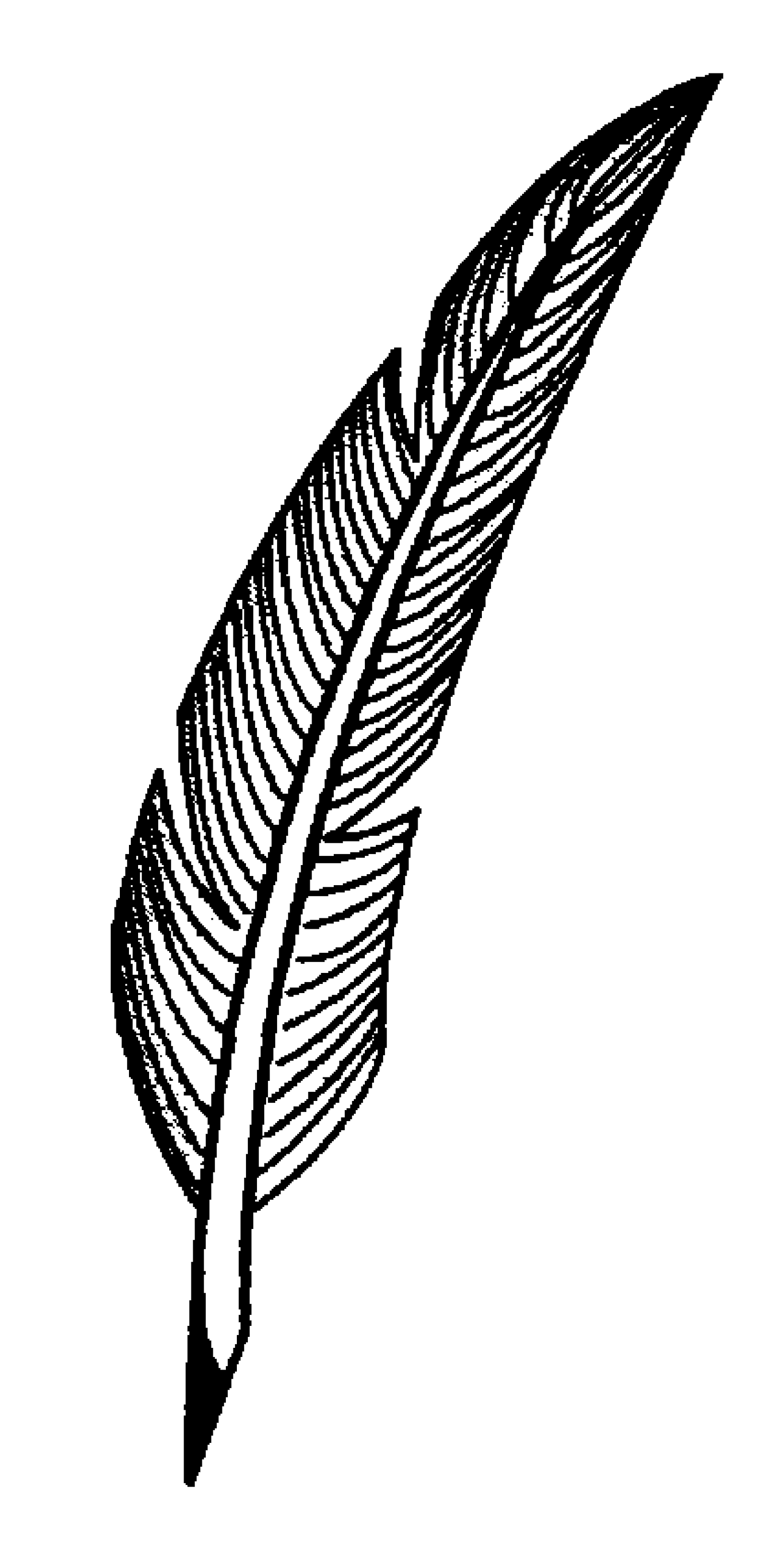
فإذا أضفنا إلى هذه المصادر التاريخية ذات الموقف العقدى والعاطفى المسبق تلك الكتب الأدبية التى اعتمدها بعضهم - دون حذر وتمحيص -[2] مصادر تاريخية، وكان أصحابها من أصحاب الميول العلوية وكانوا من هواة جمع المعلومات ذات الطابع القصصى المثير، دون أن يتثبتوا من صحتها رواية ودراية. . إذا أضفنا هذه الكتب - وعلى رأسها كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى سنة (349هـ) وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى المتوفى سنة 356هـ[3]، والكامل للمبرد المتوفى سنة 385هـ، فإننا سندرك أثر ذلك الحاجز السميك الذى حال دون الوصول إلى كثير من الحقائق المتصلة بتاريخ بنى أمية فى المشرق!!.

***

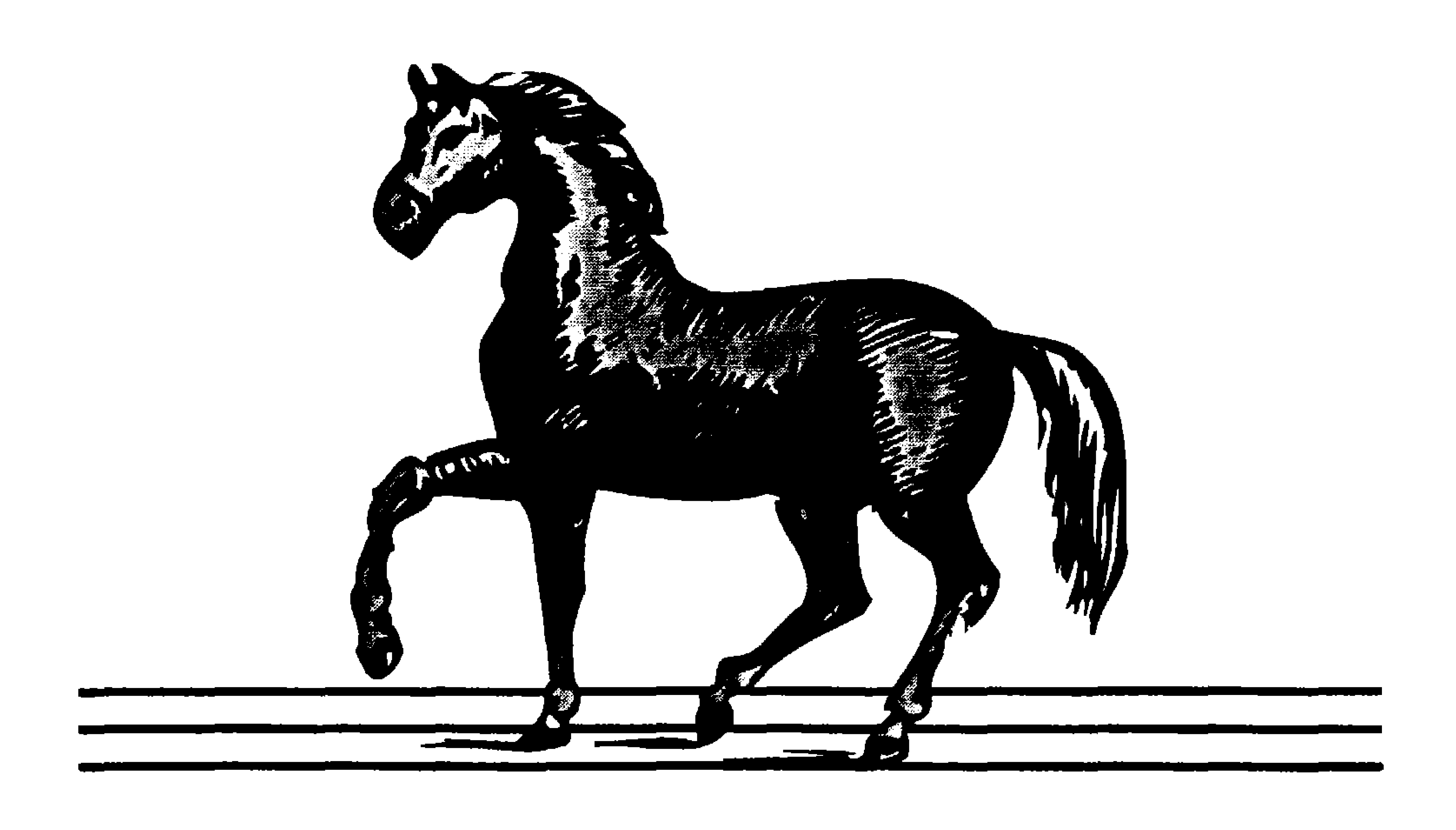
(1) انظر - مثلاً - المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الثالث، صفحات 49، 65، 82، 99، وغيرها، طبعة دار الفكر بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، وانظر عبد الرزاق الأنبارى مرجع سابق، ص (خ).

(2) عبد الرزاق الأنبارى: المرجع السابق، ص (ر).

(3) السابق.



بنو أمية
والمصادر المحايدة



ومن الجدير بالذكر أن هناك مصادر كانت محايدة، ومن بينها تاريخ خليفة ابن خياط المتوفى سنة 240هـ، وتاريخ الأمم والملوك للطبرى المتوفى سنة 310هـ، وجوامع السيرة والرسائل الملحقة بها لابن حزم الأندلسى المتوفى 456هـ، والعواصم من القواصم لأبى بكر بن العربى المتوفى سنة 543هـ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير المتوفى سنة 630هـ، والعبر فى أخبار العرب والعجم والبربر لعبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة 808هـ. .

وقد وقفت هذه المصادر - وغيرها - موقفًا محايدًا إلى حدٍّ كبير فى الحكم على الدولة الأموية.

ومع ذلك فلم تستطع هذه المصادر المحايدة أن تقف أمام هذا الحاجز السميك الذى حال دون إنصاف بنى أمية، وجذب نحوه عشرات من الدراسات العاطفية التى توالت عبر العصور حتى عصرنا الحديث[1].

والحق أن هناك أسبابًا وقفت مع المنهج المتحيز على حساب المنهج المحايد، وكانت وراء هذا الميل السائد لدى جمهرة كبيرة من المسلمين لظلم بنى أمية، ومن هذه الأسباب:

1 - أن صراع بنى أمية يفسر دائمًا وبصفة مطلقة على أنه كان صراعًا مع أهل البيت، أدى إلى انتقاصٍ من قدرهم، وسلبٍ لبعض حقوقهم، وقد نسيت

(1) انظر - على سبيل المثال - كتابات الأستاذ سيد قطب العدالة الاجتماعية فى الإسلام، وكتابات الأستاذ عباس محمود العقاد عن عبقرية على ومعاوية فى الميزان، مع أنهما كاتبان جيدان، وانظر من باب أولى كتابات طه حسين فى الفتنة الكبرى وغيره، فهى دراسات متعصبة تفتقد أبسط أركان التحقيق التاريخى، وانظر ما كتبه الكاتب اليسارى أحمد عباس صالح حول اليمين واليسار فى الإسلام، وما كتبه عبد الرحمن الشرقاوى فى كتابه (على إمام المتقين). . وغيرها من الدراسات المتحيزة المتأثرة بالآراء الشائعة حول بنى أمية.

القضيــة الأساسية التى كـانت محور الصراع، وهى (مقـتل عثمان)، وهى قـضية خلافية لم يختلف فـيها على ومعاوية وحدهما، بل كان مع كل منهمـا عدد كبير من الصحابة والتابعين!!.

2 - يرى بعضهم أن العداء كان تقليدياً وأصيلاً، بل وسابقًا للإســلام، بين فرعى عبـد مناف: عبد شمس ثم أمـية فحرب، فـأبى سفيان، وبين هاشم فـعبد المطلب فعـبد الله فمـحمد ﷺ، ويدخل فـيهم - بالضرورة - أبناء عـبد المطلب جميعًا..

ويؤكد هؤلاء رأيهم بأن كثيراً من الأمويين - فى رأيهم - وقفوا من الرسالة المحمدية موقـف العداء المطلق؛ ولهذا يبدى هؤلاء مشاعـر بغض لبنى أمية، وهم يظنون أن موقفـهم المتحيز[1] إنما هو تحيز للإسلام ولآل الرسـول عليه السلام ضد خصومهم[2].

ج - ومن أبرز الأسباب التى شجعت الكتـابات المتحيزة أن هناك طوائف قد ظهرت فى العصر الأموى معادية - منذ البداية - لبنى أمية، وأبرزها طائفة الشيعة

(1) انظر عـبد الشـافى محمـد عبـد اللطيف: العـالم الإسلامى فى العـصر الأمـوى دراسة سياسية، الطبعة الأولى، مصر 1404هـ، ص أ، ب، وقد فند الدكتور عبد الشافى عبد اللطيف دعوى العـداء التقليدى بين بنى هاشم وبنى أميـة فى صفحات تاليـة من كتابه، وذكر أنه مـجرد تنافس على الشرف والسيادة فى الجاهـلية وكانوا يرضـون بما يقضى به الكهان، وقد كـان عبد المطلب صديقـا لحرب وكان العبـاس صديقًا لأبى سفـيان، فأى عداء تقليدى إذن؟.. (انظر ص 3، 4 من المرجع السابق).

(2) لم تكن عداوة الإسلام وقفًا على بنى أمية، بل كان من بنى هاشم أعداء للرسول، وكان من الأمويين سابقون كثيرون للإسلام، وهل كان عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ابن عبـد شمس - إلا أمـويًا مع ما بلغـه من مكانة فى نفس الرسـول؟.. - وقد جب الإسلام ما قبله، وقام الأمويون بدور عظيم أيام الرسول بعد فتح مكة وفى أيام أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم، وكانوا موضع ثقة جميعهم (انظر للتوسع فى هذا عبـد الشـافى عبد اللطيف المرجع السابق 3 - 19).

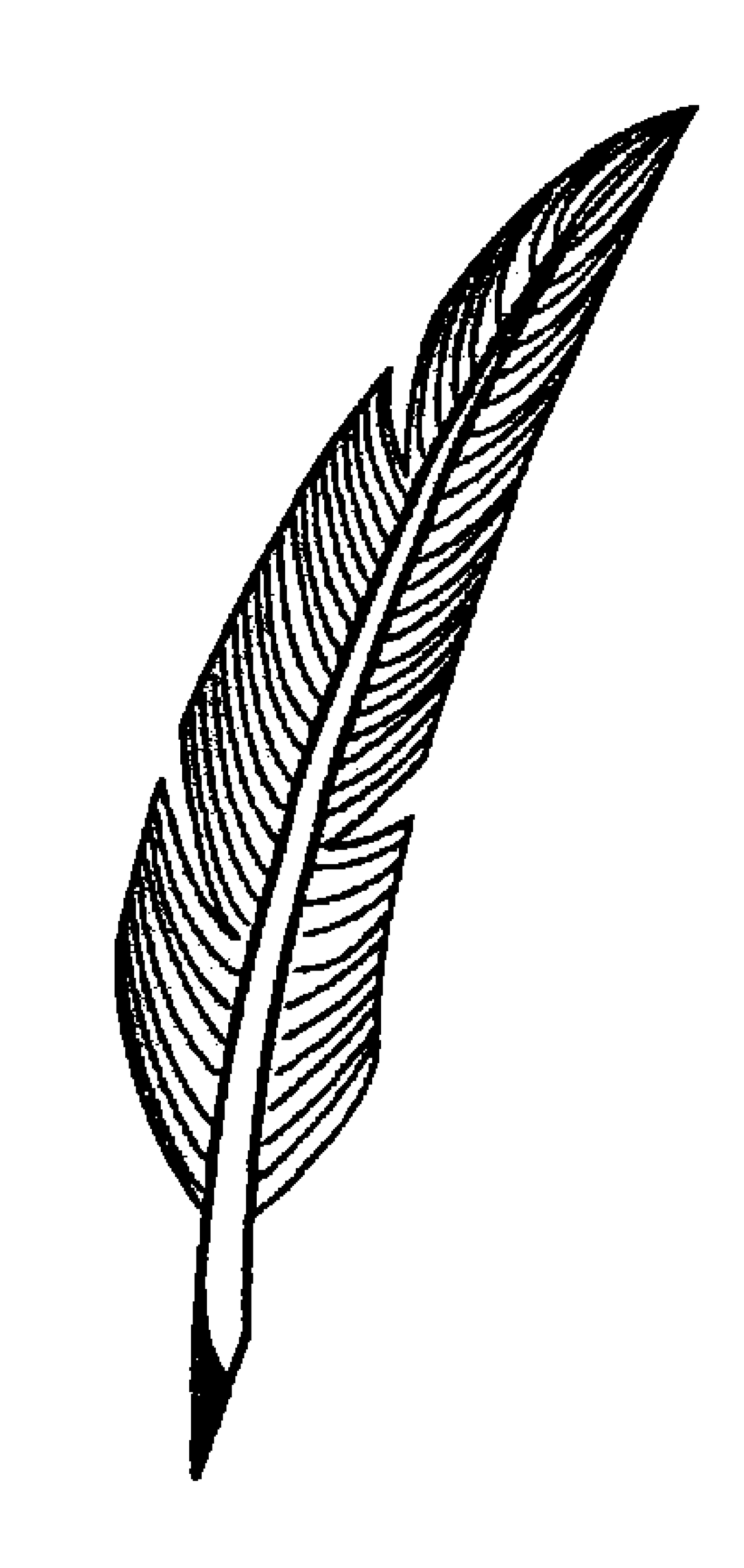
التى بدأت كحركة منحازة لآل البيت، ثم تطورت فأصبحت مذهبًا محددًا وطائفة محددة، كما ظهرت طائفة الخوارج بفروعها المختلفة، وقد بقى أعداء الأمويين يحكمون العالم الإسلامى بعدهم لقرون طويلة؛ فالعباسيون الذين قاموا على أنقاضهم قد ظلوا يحكمون بعدهم أكثر من خمسة قرون، وقد وجهوا الكتابة التاريخية فى عصرهم توجيهًا مناهضًا لبنى أمية، كما أن الشيعة الذين حكموا المغرب ومصر لأكثر من قرنين ونصف كانوا يتحكمون كذلك فى مسار الكتابة التاريخية. .

وأمام هذا الحاجز أغفل المسلمون كتب الحديث التى تتحدث عن جيل الصحابة كله[1] - وأكثر بناة الدولة الأموية كانوا منه - كما أغفلوا نقد المصادر التاريخية كالبلاذرى والطبرى وابن الأثير، فضلاً عن نقد المصادر العلوية المتحيزة اعتمادًا على منهج الحديث فى الجرح والتعديل فيما يتعلق بالرواة (الرجال)، وعلى نقد (المتن) فيما يتعلق بالوقائع التاريخية.

وقد أغفلوا كتب المحدثين والفقهاء من أمثال الصحاح الستة، وكتب أئمة المذاهب الثلاثة عشر كأبى حنيفة وابن حنبل والليث بن سعد وسفيان الثورى، وكتب الفقهاء والعلماء المجتهدين اجتهادًا مقيدًا مثل القاضى أبى بكر بن العربى، والإمام ابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وغيرهم.

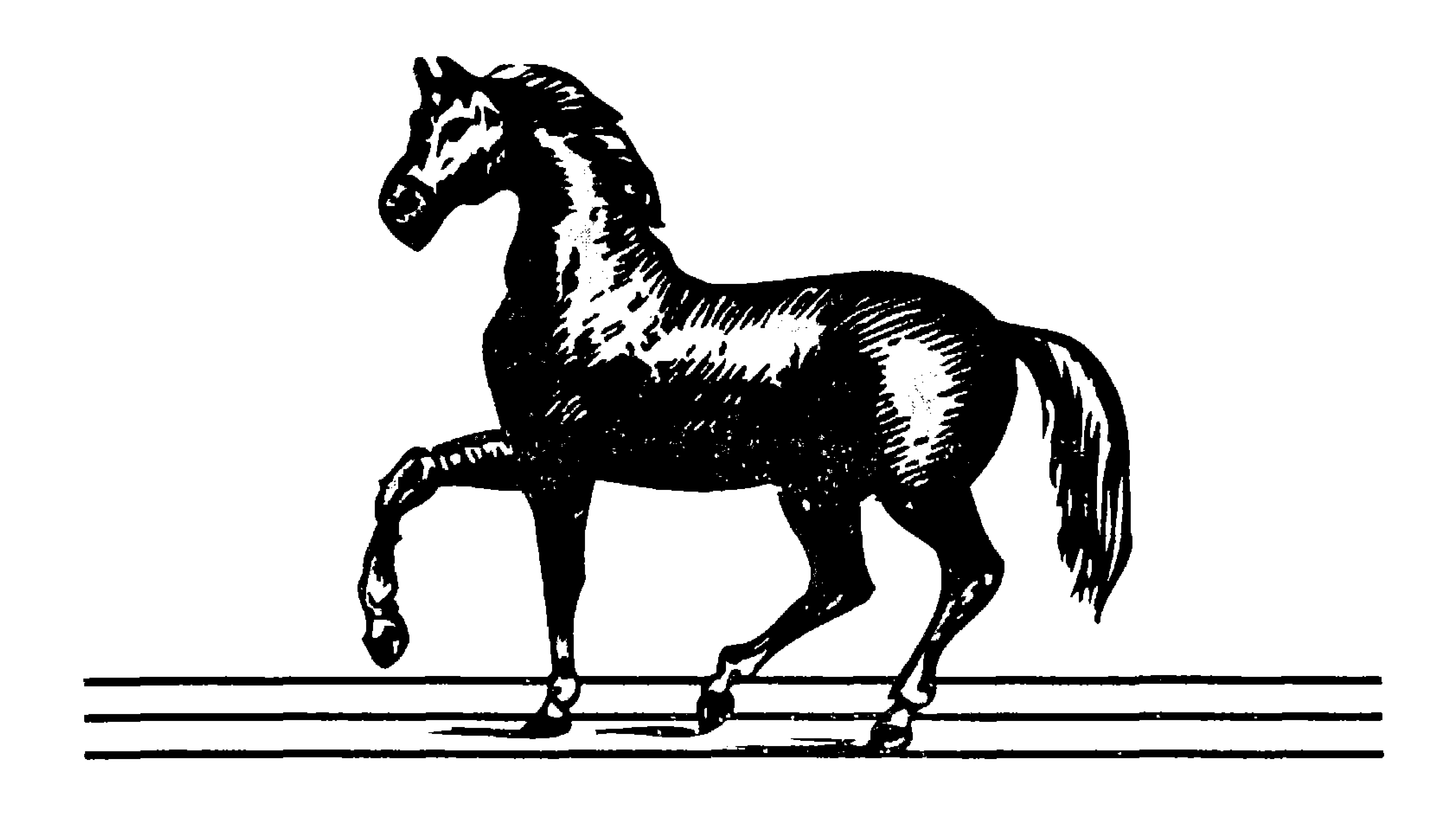
* * *

(1) انظر عبد الشافى عبد اللطيف: مرجع سابق، ص (ب، ج).



بنو أمية

سيرة شخصية



بنو أمية أقحاح مـن أصرح العرب نسبًا(1)، وجدهم أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. . ولأمية حرب والعـاص. . ومن نسل حرب كان الفرع الأموى الأول (الفرع السفيانى) الذى أسس دولة بنى أميـة. . وحكمها ثلاثة منه هم: معاوية بن أبى سفيان، ويزيد، ومعاوية الثانى. .

ومن نسل العاص كان الحكم ثم مروان بن الحكم(2)، ومنه كان الفرع الثانى الذى حكم بنى أمية بعد مؤتمر الجابية.

وعروبة بـنى أمية رشـحت بها كل أعـمالهم، وقـد أخذوا من الإسـلام ما أخذوا، وهو كثير، وأخذوا من خصائص العروبة ما أخذوا. .

وكان لبنى هاشـم بن عبد مناف - أبناء عـمومتـهم - صلات وثيـقة بهم، يشوبها لون من التنافـس على المجد والسؤدد، وهو أمر طبيـعى - بل أحيانًا يكون مطلوبًا - فى بيئة تعطى الشرف والسيادة المكانة الأولى.

وكثيرون أسرفوا فى التعميم، فجعلوا من عروبة بنى أمية (عصبية قومية) فى الإسلام، مثلما كـانت فى الجاهلية(3)، وهو أمر مبـالغ فيه. إلا أن ذلك لا يعنى عدم اعـتزاز بنى أمـية بعـروبتهم وشـعورهم بكرم مـجدهم وصـراحة أنسـابهم وانتمـائهم لعبد مناف بن قـصى، وهذا هو ما نميل إليـه. . وشتان بين التـعصب

---

(1) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص78 وما بعدها، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1402هـ، بيروت. وانظر ابن خلدون: العبر 3/ 2، الهيئة العامة لقـصور الثقافة، سلسلة الذخائر، 2007م.

(2) المرجع السـابق.

(3) انظر - مثـلاً - نبيـه عاقل: تاريخ خـلافة بنى أمـية، ص6، الطبعة الـرابعة، بيروت، ومحمد الطيب النجار: الدولة الأموية فى المشرق، طبع مصر، الطبعة الثالثة، 1397 ص 5 وما بعدها.

والاعتزاز بالأصل والنسب. ولئن كانت قد وجدت بعض التجاوزات فى هذا السبيل فقد وجد مثلها عند غيرهم من قبائل العرب؛ يقول ابن حزم القرطبى:

"وانقطعت دولة بنى أمية، وكانت دولة عربيـة، لم يتخذوا قاعدة، إنما كان سكنى كل امرئ منهم داره وضيعته التى كانت له قبل الخلافة، ولا أكثروا جمع الأموال، ولا بناء القصور، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبوهم بالتحويل ولا التسديد، ويكاتبوهم بالعبودية والملك، ولا تقبيل الأرض، ولا رجل ولا يد، وإنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة من التولية والعزل فى أقاصى البلاد"(1).

وقد كان بنو أمية - بصفة عامة وبنسبة لا تتحقق لكثير من الأمم بعد الراشدين - عند حسن ظن الأمة بهم.. سواء فى مستوى كفايتهم الشخصية أم فى مستوى أعمالهم العامة..

كان فى معاوية (ميزات قلما توافرت فى بناة الدول.. فهو ممن تحقق فيهم شرطا الولاية (القوة والأمانة).. قال تعالى: ﴿ ... إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [القصص].. وقد كان فى الصحابة من هو أتقى منه وأورع منه دينًا وأكثر منه سابقة فى الإسلام.. وعلى والحسن والحسين والزبير وطلحة أزكى منه فى ذلك لا ينكر هذا منكر ولا يمارى فيه مسلم.. وسعد ابن أبى وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة، وعبد الله بن عمر(2)، وغيرهم.

لكن معاوية كان أقدر من كل هؤلاء فى إدارة الدولة وتحقيق العدل وصناعة الحضارة وقيادة الأمة فى فترة تطور هائل..

ومن المعروف أنه ليس كل تقى صالح فى أمور الدين هو الأقدر والأصلح - بالضرورة - فى أمور الدنيا.. ومعاوية نفسه كان يدرك هذه الحقيقة.. وقد خطب

(1) رسالة أسماء الخلفاء ص 365 / 366 من ملحقات جوامع السيرة بتحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد، طبع دار المعارف بمصر.

(2) أبو بكر بن العربى: العواصم من القواصم (حاشية 202) بقلم محيى الدين الخطيب، طبع بيروت، ص: 89، 1979م.

الناس فقال لهم فى تواضع المؤمنين: "يا أيها الناس ما أنا بخيركم، وإن منكم لمن هو خيرٌ منى (. . .) ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية، وأنكاكم فى عدوكم، وأدركم حلبًا"(1).

ولهذا جمع له عمر بن الخطاب الشامات كلها وأفرده بها؛ لما رأى من حسن سيرته وقيامه بحماية البيضة وسد الثغور وإصلاح الجند والظهور على العدو وسياسة الخلق، وقد شهد له فى صحيح الحديث بالفقه(2).

ونحن نعتقد أن شهادة المؤرخ المسعودى لمعاوية فى المجال الإدارى وتحقيق العدل ورد المظالم - مع أنه معروف بميوله لآل البيت وتحامله على بنى أمية - هى من أوثق الشهادات وأصدقها. . قال المسعودى: "كان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن فى اليوم والليلة خمس مرات، كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ جزأه، ثم يدخل منزله فيأمر وينهى، ثم يصلى أربع ركعات ثم يخرج إلى مجلسه. . . ثم يؤتى بالغداء وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء. . . وينادى بالمغرب فيخرج فيصليها ثم يصلى بعدها أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة خمسين آية. . . ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية. . . "(3).

وبعد أن ينتهى المسعودى من سرده الذى ذكرنا بعضه، يعقب على البرنامج اليومى لمعاوية - رجل الحكم العظيم - فيقول: "وقد كان همٌّ بأخلاقه جماعة

(1) ابن كثير: البداية والنهاية (8/ 134) نقلاً عن العواصم من القواصم 203.

(2) أبو بكر بن العربى: العواصم من القواصم203 - 205، وانظر عبد الشافى عبد اللطيف مرجع سابق ص107.

(3) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر 3/ 40، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الفكر.



بعده مثل عبد الملك بن مروان وغيره، فلم يدركوا حلمه، ولا إتقانه للسياسة ولا التأتى للأمور، ولا مداراته للناس على منازلهم، ورفقه بهم على طبقاتهم»[1].

لقد كانت وجهة نظر معاوية ومن معه ـ إبان الصراع مع على بن أبى طالب ـ أن بقاء معاوية فى الشام فى تلك الظروف المضطربة التى تولى فيها علىّ الخلافة بقاء ضرورى؛ حيث خبر معاوية الروم وأدرك أمورهم وعرف كيف يسوس الأمور فى مواجهتهم بسياسة مرنة حكيمة، وقد أقرّه على سياسته عمر وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ. . . فلماذا لا يذهب علىّ مذهبهما حفاظًا على هذا الثغر المهم، لا سيما أن الوضع فى المدينة كان يحمل فى ظاهره وباطنه نذرًا خطيرة لا تبعث على التفاؤل؟ وأصحاب الفتنة هم الذين نصّبوا عليًّا، وهناك عدد من كبار الصحابة توقف عن مبايعة علىّ رضى الله عنه مثل: سعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن عمر، (وهما من أهل الشورى) ثم أسامة بن زيد، وصهيب من المهاجرين، وحسان بن ثابت، وزيد بن ثابت، وكعب بن مالك، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، ورافع بن خديج، وسلمة بن وقش، وأبى سعيد الخدرى من الأنصار، كما أن الحدود كانت قد أهملت لعدم إقامتها على من قتلوا الخليفة عثمان رضى الله عنه.

كما أن معاوية ـ فى رأى كثيرين ـ كان أقدر على سياسة الدّنيا فى ظل انفتاح المسلمين على العالم، واستيلائهم على كثير من أرض امبراطورتى الفرس والروم بما يحمله هذا التطور من تحديات تستوجب قدرًا كبيرًا من المرونة. . .

وقد كان الخليفة العظيم عمر بن الخطاب رضى الله عنه نافذ البصيرة والرؤية حين زار واليه معاويه فى الشام، ورأى بعض أساليبه (البروتوكولية والأمنية) غير المألوفة، فأنكر عليه ذلك. . . لكنه بعد حواره مع معاوية انتهى إلى إقرارها عن

(1) المسعودى: مروج الذهب3/ 42.



طريق السكوت عنها.. قائلاً لمعاوية: (لا آمرك ولا أنهاك)... مع أن (معاوية) قال له: لو نهيتنى يا أمير المؤمنين عن ذلك انتهيت!! فقال له عمر: (لا آمرك ولا أنهاك)...

وهذا يعنى أن هناك أوضاعًا جديدة فى عدد من البلاد المفتوحة ـ لا يصلح معها نوم الخليفة العظيم عمر بن الخطاب آمنًا فى جانب من الطريق فى المدينة!!.

إن الأستاذ عباس العقاد يشير إلى حقيقة هذا التطور الذى استطاع معاوية التعامل معه بقوله: "وما كان أحد ليطمع فى بقاء عصر الخلافة على سُنة الصديق، والفاروق أبد الآبدين ودهر الداهرين؛ لأن اطراد النسق من ولاة الأمر على هذه الطبقة العليا من الخُلُق والتقوى أمرٌ تنوء به طاقة بنى الإنسان.

فما كان دوام الخلافة الصديقية، أو الفاروقية بمستطاع على طول الزمن، وما كان قيام الملك بعد الخلافة بالأمر الذى يؤجل إلى زمنٍ بعيد"[1].

وقد حاول بعضهم النيل من معاوية عند عمر ـ رضى الله عنهما ـ فقال لهم عمر: "دعونا من ذم فتى قريش، من يضحك فى الغضب، ولا يُنال ما عنده إلا على الرضا، ولا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه".

وإلى جانب ذلك، فإن من المعروف أن عمر رضى الله عنه كان يحاسب ولاته على الصغيرة والكبيرة، ولا يقبل منهم العمل إلا من خلال وجهة نظره القائمة على العدل والشورى، إلا أنه قبل من معاوية رضى الله عنه وجهة نظره وقال: "لحسن مصادره وموارده جشمناه، ما جشمناه".

وهكذا استحق معاوية أن يظل على ولاية الشام أيام عمر، ثم أقره الخليفة عثمان رضى الله عنه عليها ولم يقبل فيه أىّ شىء، حتى أصبحت الشام فى عهد

(1) العقاد: معاوية، ص206.



عثمان شبه دويلة مستقلة يقوم واليها بتعيين العمال على أقسامها بنفسه دون الرجوع إلى الخليفة، فلما ولى علىّ الخلافة أراد أن يعزل كل ولاة عثمان رضى الله عنه ومنهم معاوية رضى الله عنه ورفض أن يتألفهم أو أن يستجيب لهم فيقتص من قتلة عثمان حتى يسلموا له، فنشأ الخلاف، وقام بينهم أناس يسعون إلى الفتنة، ويحرضون عليها حتى تمكنوا من إشعالها وظلوا يؤججون أوارها بتدبير المكائد الخفية حتى ظن الناس أن المشاركة فيها واجب دينى[1]!!

ونحن ـ وإن اتفق رأينا مع أكثر الأمة فى تأييد الإمام علىّ وموقفه ـ إلاّ أننا نرى أن المنهج العلمى والضمير الدينى معا يفرضان علينا أن نبرز وجهة نظر (الطرف الآخر)، وأن نقدم المبررات التى جعلته يتخذ هذا الموقف، وكأنه هو الذى يدافع عن نفسه، حتى ولو كان موقفه خاطئًا ولا نؤيده فيه. . فهذا المنهج موقف علمى مبدئى لا علاقة له بعاطفتنا، وهو من صميم المنهج العلمى الذى يفرض التعرف الكامل على رأى الخصم، وتقديم اللوحة كاملة بكل قسماتها، وألوانها، فلم يكن معاوية ومن معه مجردين من كل فقه وحجة؛ بل إنه لا يمكن القول ـ كما يعترف العقاد ـ بأن "معاوية لم يكن يعمل بباعث من الغيرة الدينية أو بباعث من أحكام المروءة والعرف المتبع فى الأخلاق.

وليس فى وسعه أن يتجرد من هذه البواعث لو أراد، وليس فى وسع رجل أسلم على يد النبى ﷺ وصَاحَبَه، وعمل على أيدى الجلّة من صحابته ـ أن يغفل عن غيرة دينه وأحكام فرائضه، وواجبات المروءة فى عرف زمنه"[2]، كما أن معاوية وأنصاره لم يكونوا مجردين من كل إيجابية.

وليس معنى تحليلنا التاريخى الذى ينصف معاوية رضى الله عنه ويظهر بعض ملكاته وقدراته ـ فى مقام السياسة والقيادة والمصلحة العامة للأمة ـ أننا

(1) انظر: صلاح النبراوى: معاوية: الصحابى الفاتح المفترى عليه، ص: 15، نشر مصر 2005.

(2) العقاد: معاوية، ص: 210.



نحابى معاوية أو الأمويين؛ بل نحن فى ذلك خاضعون للرؤية التى رأى فيها شيخ الإسلام (ابن تيمية) وغيره أن الإمام (القوى الأقلّ التزامًا) أصلح للمسلمين من الإمام (التقىّ الأقل قوة) فى مجال فقه التحديات ومقتضيات السياسة الشرعية المناسبة للعصر وتحدياته، والتعامل معها بما يلائمها.

ومرة أخرى ليس معنى تحليلنا هذا، وإنصافنا لبنى أمية أو لمعاوية، وإظهارنا لملكاته وقدراته التى تقتضيها المرحلة الجديدة التى لم يعد الوقوف فيها عند المستوى (المثالى) الذى كان عليه أبو بكر وعمر وعثمان (رضى الله عنهم) ممكنًا. . .

أقول: ليس معنى هذا أننا نقلل من قدر علىّ أو الحسن أو الحسين أو آل البيت - رضى الله عنهم جميعًا - فهم الأجدر - بيقين - فى ميزان الدين والآخرة، وغرس القيم والمبادئ التى بذلوا من أجلها أرواحهم رخيصة فى سبيل الله.

لكننا نؤمن بأن حُظوظ الدنيا يتفاوت فيها الناس سواء كانوا من آل البيت أم من غيره، كما أننا نؤمن بذلك الرأى العظيم الذى ذهب إليه المفكر التركى الكبير (بديع الزمان سعيد النورسى) عندما قال: إنّ آل البيت هم الأئمة فى الدين والدعوة والولاية، وليس شرطًا أن يكونوا الأئمة فى أمور الدنيا والسياسة، فلو أن هذا التخصص طبق فى تاريخنا لما كثرت (مقاتل الطالبيين) ولَنَشَرَ آلُ البيت الإسلامَ خلال القرون - عبر العالم - بعيدًا عن المعارك الطاحنة التى حَصَدَتْهم بتأثير دعاوى العصمة لهم، ودعاوى أحقيتهم فى حكم الدنيا وقيادة شئون السياسة وما يتصل بها، وهو الأمر الذى ينتهى - أيضًا - إلى (الملك العضوض) - مشفوعًا (بالثيوقراطية) - على نحو أكبر مما كان عليه بنو أمية!!

ولعله لهذا المعنى كتب المؤرخ المعاصر الدكتور حسين مؤنس (رحمه الله) فى تعليقه على ما ورد تحت عنوان (مثالب بنى أمية) من كتاب المقريزى[1]، يقول:

(1) النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم، تحقيق حسين مؤنس، نشر دار المعارف 1989م.



إن معظم هذه الجرائم التى تنسب إلى بنى أمية - إنْ صدقت - جرائم سياسية، أى أن جميع هؤلاء المقتولين كانوا منافسين سياسيين لبنى أمية، يريدون انتزاع الخلافة منهم، والسياسة تعمى البصر، وتضلل الذهن، وتملأ القلب قسوة، وتجعل الإنسان يرتكب جرائم لا توصف. . . ويقول الدكتور مؤنس أيضًا:

ولقد سبق أن ذكرنا أن بنى أمية إذا لم يكونوا أصحاب حق فى الخلافة فما هو الأساس الشرعى لمطالبة العلويين بالخلافة؟

وهل إذا مات علىّ بن أبى طالب ورث الحق فى الخلافة أولاده: الحسن والحسين ثم زيد، وهكذا؟

كل ذلك نشأ من أن أحدًا لم يضع للخلافة تشريعًا؛ بل الكل هنا يجمعون على حق أبناء علىّ بن أبى طالب فى الخلافة!! [وفى المقابل يحرمون بنى أمية من هذا الحق] ثم: هل نحن واثقون من أن كل العلويين كانوا أفاضل؟ وأنهم لو كانوا قد تولوا الخلافة لما اقترفوا مثل هذه الجرائم؟

وحسبك أن تقرأ ما كتبه ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب عن سيرة أحد العلويين وهو محمد بن الحسن بن إبراهيم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علىّ ففيها من الفظائع ما يكفى للدلالة على أن آل البيت هم كغيرهم من البشر[1]. . . !!

وأما الحياة السياسية والإدارية فى الدولة الأموية بعد استقرار الأمور لمعاوية، فقد نشطت غاية النشاط حتى بلغت سيادة المسلمين أوج توسعها فى خلافة معاوية[2]، بالنسبة لسابقيه، وقد استعان بعدد من الولاة الأكفاء منهم المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه، وعبد الله بن عامر. . وقد كان معاوية - بحق - رجل دولة

---

(1) د/ حسين مؤنس: تنقية أصول التاريخ الإسلامى، ص: 97، 100، 101، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(2) عبد الرزاق الأنبارى: تاريخ الدولة العربية 58.



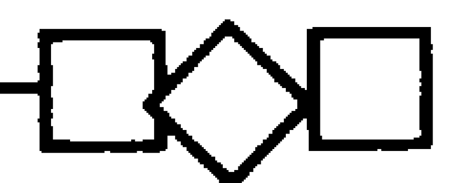
يخطط ويعهد إلى غيره أن ينفذ ويطبق، ومن هنا اختار رجال دولته وسياسته ونجح في هذا الاختيار نجاحًا اعترفت به المصادر التاريخية[1].

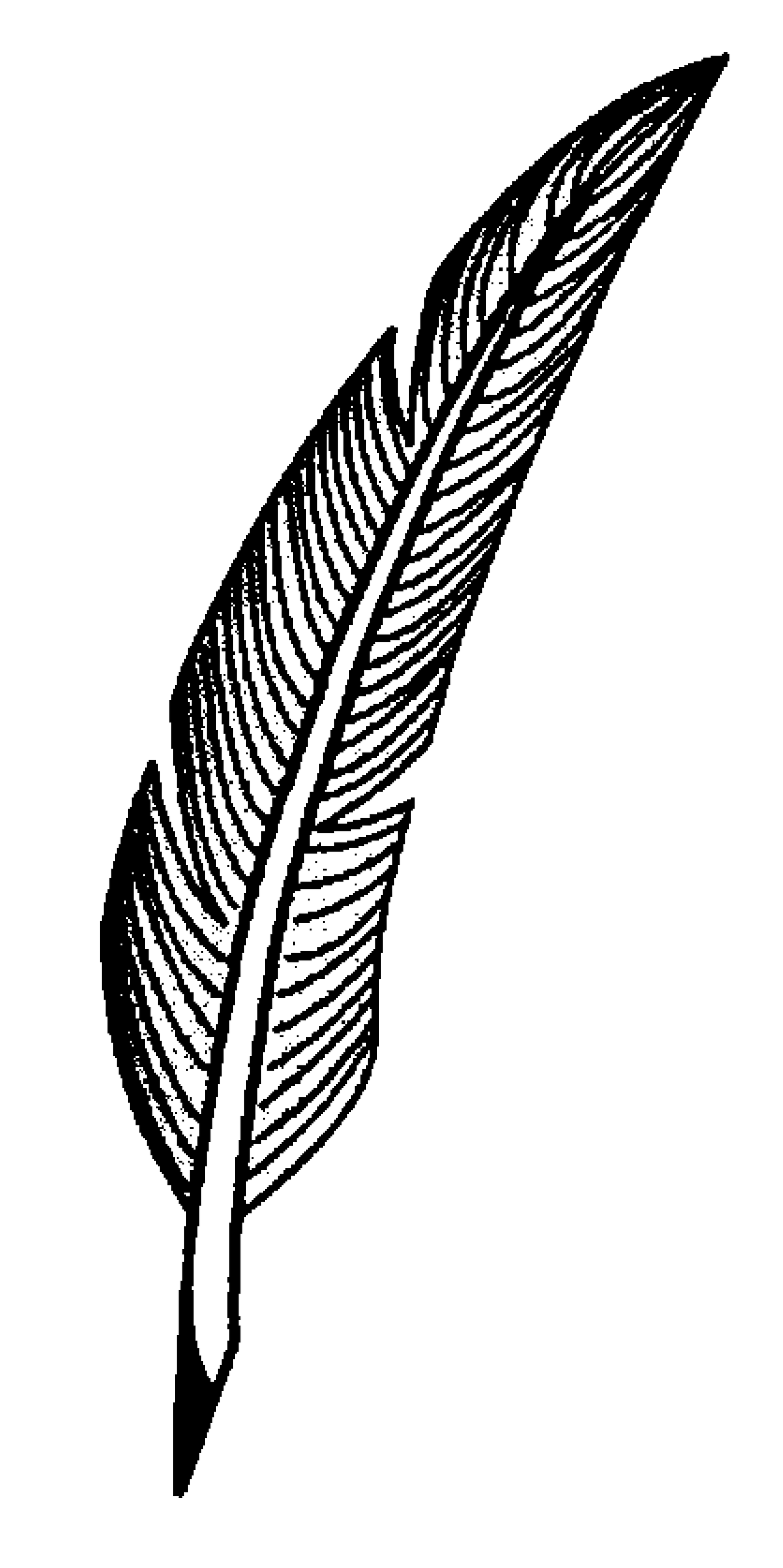
وقد أحسن معاوية إلى كبار الصحابة والتابعين وأبنائهم وخاصة بني هاشم، كما قام بتوطيد الأمن وباشر أمور الدولة بنفسه إلى حدٍّ كبير، ونشطت الفتوحات في عهده[2].

* * *

(1) المرجع السابق 166.

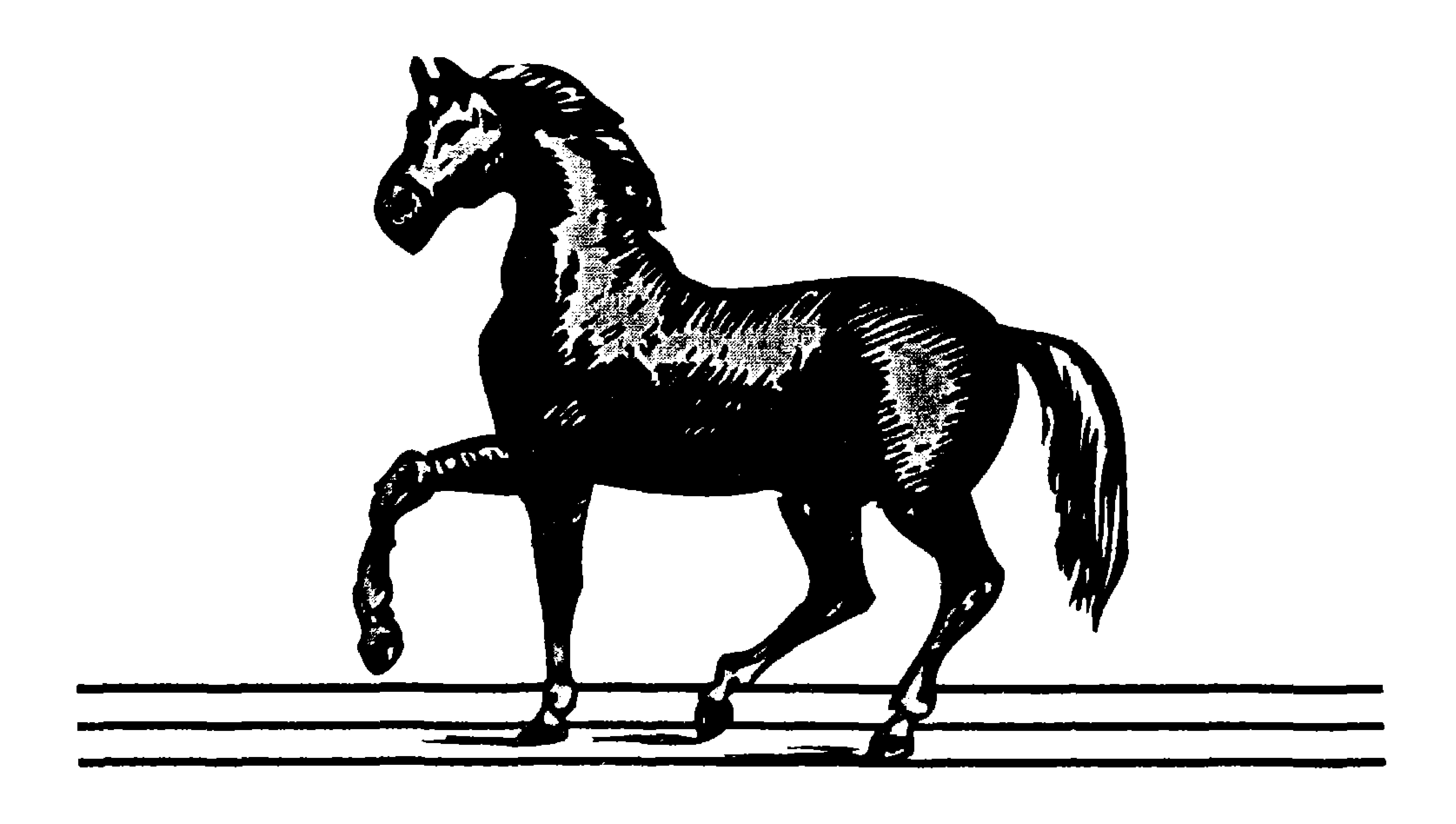
(2) عبد الشافي عبد اللطيف: مرجع سابق 114.





معاوية

فى الميزان الصحيح



لقد كـان خروج العـرب من الجزيرة العـربية وسـيطرتهم على أكثـر أرجاء الإمبراطوريـتين الرومانية والفـارسية ـ ملزمًا بضـرورة مواجهة التحـديات الجديدة بآليات تسمح بالسيطرة عليهـا، وهذا ما أدركه (معاوية رضى الله عنه) فى الشام، وأبصره (الخلـيفة عـمر رضى الله عنه) وسكت عنه، فـالبيـئات الجديدة تـختلف عناصرها وتتنوع ميول شعوبها، وتتعدد موروثاتها الثقافية ودياناتها، وبالتالى تتباين عاداتها وأنماط حياتهـا، ومن ثَـمَّ كما يقول (أستاذنا الدكتور مـحمد حلمى أحمد) فى كتابه[1]: اقتضى الموقف مـواجهة الحاجات والمشكلات الجـديدة فى مواطنها، وفى ضوء ظروفها المباشرة، وهذا لا يمكن أن يكون إلا بإقرار نظام (اللاّمركزية)، فقـد مضى الزمن الـذى كان عمـر يقول فـيه: (لا أريد أن يحـول الماء بينى وبين المسلمين فى شتاء أو صيف، إن شئتُ أن أركب ظهر ناقتى إليهم فعلت)!!

فلقد قضى تنوع المذاهب السياسيـة والميول العنصرية على الخلفاء بأن يكتفوا فى معالجـة المشكلات التى تنشأ عن تحركات هذه المذاهب والميـول بالإشراف اليقظ فى مقـر الحكومة المركزية بدمشق، وإلا فكيـف يستطيع الخليفة أن يتـدخل تدخلاً مباشراً فى مـواجهة الشيعة والخوارج والموالى والبربر فى العـراق وفارس والشمال الإفـريقى والأندلس، (والطريقـة المثلى) المناسـبـة للتـحديات الجـديدة هى اتبـاع (اللامركزية) (والواقعية الملتزمة بالثـوابت) فى مواجهة هذه التحركات، وذلك على العكس من مركزية الدولة ومثاليتها فى عصر عمر رضى الله عنه!!

ولقد بقى الإمـام على رضى الله عنه واقفًا عند مـستوى (المثاليـة الراشدية) وملتزمًـا بنظام (المركزية العمـرية) غير ملتـفت إلى أساسيـة اعترف هو بهـا لأحد محاوريه، وهى أن (عـمر بن الخطاب) كان يحكم ناسًا فى مـستوى (علىّ بن أبى طالب) ـ رضى الله عنهما ـ أما هو ـ أى علىّ ـ فقد جاء فى ظروف مختلفة، فهو

---

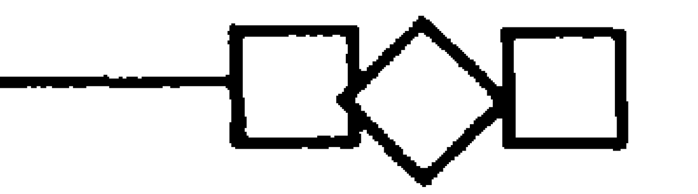
(1) الخلافة والدولة فى العصر الأموى ص123، طبع مصر1974.

يحكم ناسًا مختلفين انفتحوا على العالم القديم وتغيرت أساليبهم وبساطتهم [كما اعترف هو]. . . لكن الإمام الورع عليا رضى الله عنه بدلاً من تقدير هذا التطور ومواجهته بما يلائمه من ضروب السياسة بقى عند مستوى المثالية والمركزية، مع أن أقرب الناس إليه وأخلصهم له قد نصحوا له. . . وطالبوه بالإيمان (باللامركزية) وأن يترك (معاوية) على الشام، وهو الوالى الذى سبق توليته والتسليم بقدرته وكفايته من قبل الخليفتين الراشدين (عمر وعثمان) ـ رضى الله عنهما ـ إلا أنه رفض رفضًا لم يقبله كثير من المحيطين به، وكثير من المؤرخين. . . وبمثل هذا الوقوف عند (المثالية والمركزية) فشل عبد الله بن الزبير رضى الله عنه وهو الذى أوشكت الأمة كلها على أن تبايعه، لكنه أضاع بمنهجه هذا كل شىء فى عدة أيام!! . .

وعلى العكس من ذلك كان موقف معاوية مختلفًا، فقد كان مستوعبًا للظروف، قادرًا على مواجهتها بأكثر الطرق مرونة وسياسة، وذلك فى مقابل هذا الموقف السياسى (الجامد الحازم) للإمام علىّ رضى الله عنه. . .

كان معاوية ـ بحق ـ (كما وصفه ابن الطقطقا صاحب الفخرى) داهية من الدهاة، ومن أوفر الناس حظا بأساليب السياسة، وكان عاقلاً فى دنياه، قويًا، حسن التدبير، حكيمًا، فصيحًا، بليغًا، يحلم فى موضع الحلم، ويشتد فى موضع الشدة، إلاّ أن الحلم كان الغالب على طبعه، كريمًا باذلاً للمال، محبًا للرئاسة شغوفًا بها، وهو يُفضّل على أشراف رعيته، فلا يزال أشراف قريش من أمثال عبد الله بن العباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبى بكر، وبعض آل أبى طالب، يفدون عليه بدمشق فيكرمهم ويقضى حوائجهم، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث، ويجابهونه أقبح مجابهة، وهو يداعبهم تارة، ويتغافل عنهم أخرى، ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنية والصلات الجمّة[1]!!

(1) انظر: محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت ـ بدون تاريخ، ص: 104.



وكان معاوية ـ إلى جانب ذلك ـ أرحب أفـقًا، وأبعد مدى من المحيط الذى حوله، وكانت تطلعاته تتجه إلى قيام دولة إسلامية يسودها الرخاء والعدل، وينتهى فيها سيل الدماء إلى الأبد؛ لذلك اجتهـد أن يقيم صرح دولته على أركان أهمها: التغيرات فى بنية النظام السيـاسى، وتنظيم الإدارة، وتحقيق التوازن القبلىّ، وتأمين ولاية العهد، وإخضاع المعـارضة، والإحسان إلى كبار الشخصـيات الإسلامية من الصحابة وأبنائهم، خاصة بنو هاشم، وتوطيد الأمن فى العالم الإسلامى، فاختار من أجل ذلك أكفأ الرجال فى الإدارة والسياسة ليساعدوه فى إدارة الدولة، وتحقيق الاستقرار فيـها ومباشرة أمور الدولة بنفسه من أجل رعـاية مصالح المسلمين، هذا بالإضافة إلى اتجاه معـاوية لفتح العالم، معتمدًا على مواهبه السيـاسية، حيث كان على درجة عالية من الذكاء والمرونة يعاونه فى ذلك مـجموعة من القادة الممتازين، ومنهم (الحجاج) مع مآخذنا عليه وبغضنا له(1).

وتأكيدًا لما قلناه من وجـود مؤيدين له من المسلمين نشيـر ـ مرة أخرى ـ إلى نجاح معاوية الساحق الذى لم يستطعه غيره ـ فى السيطرة على أهل الشام وتعلقهم به تعلقًا عميقًا، كما أنه وجد تأييـدًا من اليمانيين وغيرهم... ولهذا فمع أنه دُون الإمام علىّ رضى الله عنه فى الفروسية والحرب (كـما يقول فيليب حتّى وآخرون معـه)، فإنه لم يستطع أحد من مـعاصريه أن يتـقدمه فى مضـمار الإدارة والتنظيم الحربى، فلقـد أوجد من أهل الشـام مادة حـربية لتأليف جـيش دربّه، فكان أول جيش منظم فى الإسلام، وقد طهّـره من آثار العصبية القبلية المتـخلفة عن العهود السابقة، واستخدمـه لضبط الأمن والنظام فى الداخل وإثارة الجهاد فى الخارج، ثم تناول الإدارة الحكوميـة فألغى كثيـرًا من مظاهرها التقليدية وأنشـأها على الأساس البيزنطى السـابق، وأقام جهازًا حكوميًا منظمًا، وأنشأ مجـتمعًا إسلاميًا جديدًا، وينسب إليه المؤرخون فضل السـبق فى وضع ديوان الخاتم، وأنه أول من اهتم بأمر

(1) انظر عمر العقيلى: خلافة معاوية بن أبى سفيان، صفحات 15، 16، 17، بتصرف.

البريد الذى صار فى أيام عبد الملك مصلحة راقية تربط أجزاء الدولة المترامية الأطراف[1].

وفى مجال التطبيق نشير إلى الحقيقة المؤسفة التى شاعت بين المؤرخين، فبينما كان معاوية على هذا النحو من المرونة والقدرة على جذب الناس والحنكة السياسية. . . فإن الإمام عليًا كان ينطلق من مبدأ ضرورة تطبيق ما يرى أنه (الحق) مهما تكن الظروف غير مواتية، دون أن يخشى فى الله لومة اللائم.

وحتى لو كانت النتائج السيئة شبه مرئية للعيان، ويحتاج التطبيق إلى صبر وكياسة. . . أو لأن التطبيق بهذه الصورة صالح عند التمكن والتوحُّد والحياة البسيطة فى زمن مثل زمن الراشدين، أما فى زمن الفتن، وفى كثير من الظروف فالأمة تحتاج إلى تدرج وأناة. . . . وقد صبر الرسول ﷺ على كثير من الأذى فى مكة دون مقاومة، كما قبِل شروطًا مجحفة فى صلح الحديبية تجاوبًا مع الظروف وإيمانًا بالتخطيط البعيد وسلامة العاقبة[2]. . .

(1) انظر فيليب حتّى وآخرون: تاريخ العرب، ص: 255، طبع: دار غندور.

(2) تمثلت بنود صلح الحديبية فيما يلى:

1ـ أن تتوقف الحرب بين قريش والمسلمين عشر سنين.

2ـ من أحب أن يدخل فى عهد محمد وعقده فعل، ومن أحب أن يدخل فى عهد قريش وعقدها فعل.

3ـ من جاء إلى محمد من قريش بغير إذن وليه رده إليه، ومن جاء إلى قريش من أصحاب محمد لم ترده.

4ـ يرجع المسلمون عن مكة عامهم هذا ويدخلونها فى العام القادم، على أن يقيموا بها ثلاثة أيام بعد أن تخرج قريش منها، وعلى الا يحمل المسلمون من السلاح إلا السيوف فى القرب.

انظر: سيرة ابن هشام، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد 3/ 366، 367، القاهرة، بدون تاريخ، ابن عبد البر: الدرر فى اختصار المغازى والسير، ص: 193، دار المعارف ـ القاهر، ط/ الثالثة، بدون تاريخ، د/ عبد الرحمن سالم: الرسول حياته وتطور الدعوة الإسلامية فى عصره، ص: 160، دار الفكر العربى ـ القاهرة (2006م).

لكن الإمام عليًّا رضى الله عنه رفض كل النصائح التى وجهت إليه داعية إياه إلى الأخذ بالتدرج. . . ولهذا فعندما أشار عليه المغيرة بن شعبة بإبقاء معاوية على الشام لاعتبارات عملية، ولأنه ولّى من قبل الخليفتين الراشدين اللذين سبقاه. . . رفض بقوة نصائح المغيرة التى تتلخص فى قوله لعلىّ ـ رضى الله عنهما ـ: "يا أمير المؤمنين، إن أردت أن يستقيم لك الأمر فاستعمل طلحة على الكوفة، والزبير على البصرة، وابعث بعهد معاوية على الشام حتى تلزمه الطاعة، فإذا استقرت لك الخلافة فأدرها كيف شئت برأيك".

وعندما علم عبد الله بن عباس بنصيحة المغيرة لعلىّ بإبقاء معاوية على الشام ذهب إليه وأشار عليه بتثبيت معاوية والأخذ برأى المغيرة فى هذه الظروف بخاصة، وعمد إلى إغرائه بقبول ذلك حين قال له: إنَّ علىًّ أن أقْلَعَهُ من مَنْزِلِه بعد أن تستقِرَّ الأمور. . . يا أمير المؤمنين أنت رجلٌ شجاع، لكنك لست بصاحب رأى فى الحرب، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الحرب خُدْعة؟" فقال علىٌّ: بلى. . . فقال ابن عباس: أما والله لئن أطعتنى لأصدرنهم بَعد وِرْد، ولأتركنّهم ينظرون فى دُبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها فى غير نُقصان عليك ولا إثم لك، فقال على: يا ابن عباس لستُ من هَناتك ولا من هنات معاوية فى شىء، فقال ابن عباس لعلىٌّ: أَطِعْنِى والحَقْ بِمَالِكَ بِينْبُع، وأغْلِق بابَك عليك، فإن العرب تمور وتضطَرب ولا تجد غيرَكَ، فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليُحَمِلنَّكَ الناسُ دَمَ عُثمانِ غداً. . . فأبى علىٌّ قبول ما أشار عليه به ابن عباس (رضى الله عنهما). . .

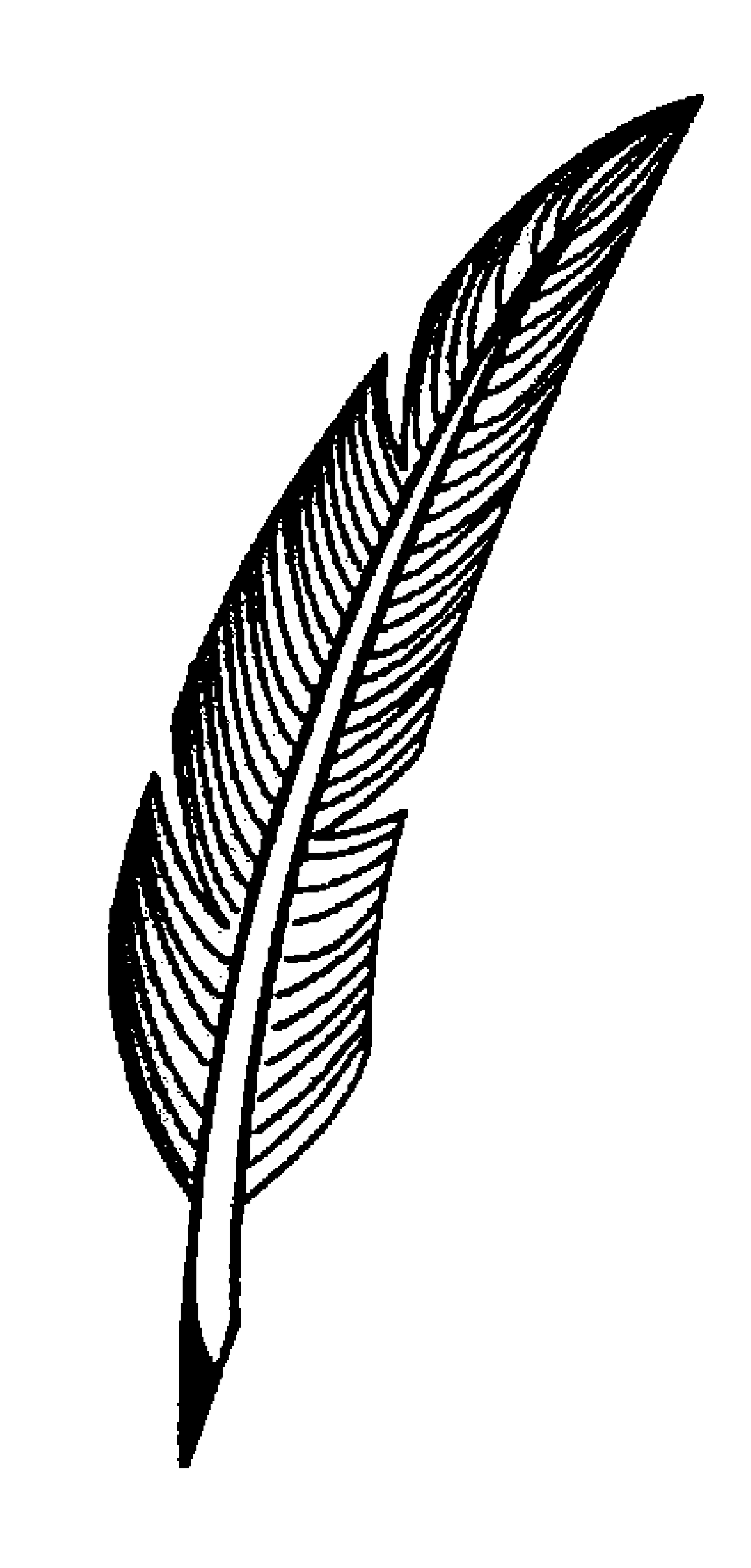
وكان ما كان ـ بعد ذلك ـ من تطور الأمور على النحو المعروف خلال السنوات الخمس التالية التى سميت (سنوات الفتنة)، وانتهت بنهاية أسيفة يحزن لها كل مسلم بالنسبة للإمام علىّ رضى الله عنه. . . . لكنها ـ على الطرف الآخر ـ انتهت بوصول معاوية إلى منصب الخلافة الذى لم يكن يطمح إليه، أو يعتقد أنه جدير به بالنسبة لمكانة الإمام علىّ وغيره من علْية الصحابة.

لكن هذه السنوات الخمس بخاصة ـ وما قبلها حين كان واليًا ـ أثبتت أنه رجل دولة وصانع حضارة.

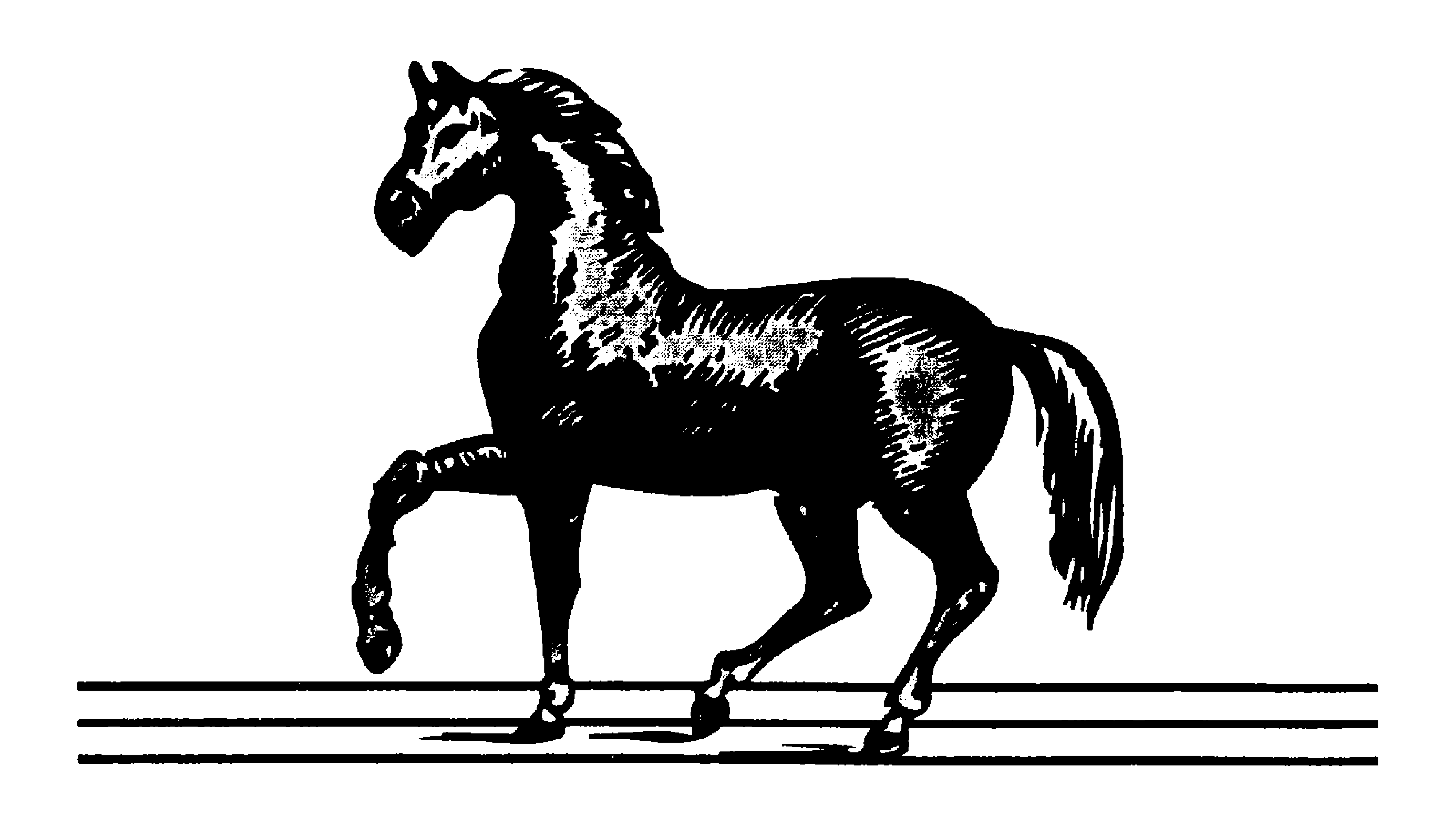
وقد أشار إلى هذه الحقيقة الإمام ابن تيمية فى الجزء الثالث من منهاج السنة... حين قال: "لم يكن من ملوك الإسلام فى زمان ملك من الملوك خيراً منهم فى زمن معاوية إذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده، وإذا نسبت إلى أيام أبى بكر وعمر ظهر التفاضل".

كما أخرج البخارى فى التاريخ الكبير عن همام بن منبه أنه قال: "سمعت ابن عباس يقول: ما رأيت أحداً أخلق للملك من معاوية، إن كان ليرد الناسُ منه على أرجاء وادٍ رحب، ولم يكن كالضيّق الخضخض الحصر، أى قليل الخير"!!

* * *



معاوية ويزيد
والملك العضوض



بقى أن نقف عند نقطة أخرى يحاسب عليها (معاوية)؛ فإذا كان معاوية - كما ذكرنا - أهلاً لأن يلى الخلافة، وقد أثبت جدارته فيها. . فثمة نقطة ثانية هى أقل قبولاً لدى كثير من الناس، وهى ترشيحه لابنه يزيد، كى يلى الأمور بعده. . وهم يعترضون على هذا الترشيح من زاويتين:

- زاوية أنه حول الخلافة إلى وراثة وملك عضوض. .

- وزاوية عدم جدارة يزيد، فقد كان هناك من هم أجدر منه. .

أما فيما يتعلق بقضية تحويل الخلافة إلى ملك عضوض فالحكم فيها يقتضى الرجوع إلى أصول نظام الحكم فى الإسلام، وهل هناك - إذا ما استثنينا قاعدتى الشورى والعدل - إلزام بنظام معين. . .

وحتى الشورى - وهى قاعدة ملزمة - هل تتم بطريقة الانتخاب الجماعى أو بطريقة أهل الحل والعقد أو بطريقة أقرب الناس إلى إمكانية البيعة فى العاصمة؟

وحتى البيعة بالإكراه التى يلغيها الإمام مالك ويقول فيها:

(لا بيعة لمكره) هل تسمح - حتى ولو كانت بالإكراه - بالخروج الانقلابى الشورى وإحداث الفتن. . ؟ أو تسمح بما هو أقل من ذلك فحسب، مثل عدم التجاوب والسلبية فى العلاقة بالحاكم؟!!

وعندما بايع المسلمون بعد معاوية ابنه يزيد ولم يبق إلا ثلاثة نفر هم ابن الزبير والحسين وعبد الله بن عمر وأشياعهم نتساءل: هل تعتد بيعة يزيد باطلة؟ وهل البيعة تقتضى الإجماع أو الأغلبية؟.

وفى كل النظم البشرية يخضع توجيه الرأى العام للترغيب والترهيب والضغوط الإعلامية وغيرها. . فهل تعد (الديمقراطية) فى نتائجها - باطلة لمجرد هذا الضغط التوجيهى؟!!



إننا إذا استعرضنا مـا كتبه الطبرى[1] بشأن محـاولة أخذ البيعـة من الحسين وابن الزبير فـسوف نجـد أن الأمور قد عـولجت بطريقة خاطئـة، وتطورت - على غرار الفتنة بين على ومعاوية - بشكل لم يكن متوقعًا من جميع الأطراف. .

وقد كان محـمد بن الحنفية أخو الحسـين من أبصر الناس فى هذه الفتنة. . فقد رفض أن يخرج مع الحسين، وكان مشفقًا كل الإشفاق عليه من هذا الخروج، وقال له: "يا أخى أنت أحب الناس إلىَّ وأعزهم على ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بهـا منك؛ تنح بتـبعـتك عن يزيد بن مـعـاوية وعن الأنصار مـا استطعت، ثم ابعث رسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك، فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك، وإن أجـمـع الناس على غـيـرك لم ينقص اللـه بذلك دينك ولا عـقلك، ولا تذهب مروءتك ولا فـضلك، إنى أخـاف أن تدخل مصـراً من هذه الأمصـار، وتأتى جماعة من الناس فـيختلفـون بينهم فمنهم طائفة مـعك وأخرى عليك فيـقتتـلون فتكون لأول الأسنة، فإذا خـير هذه الأمة كـلها نفسًـا وأبًا وأمًا أضيعهـا دمًا وأذلها أهلاً، قال له الحسين: فـإنى ذاهب يا أخى، قال: فانزل مكة (. . .) حتى تسـتقبل الأمور اسـتقبالاً، ولا تكون الأمـور عليك أبداً أشكل منها حين تستدبرها استدباراً"[2].

ويروى الطبرى - نقـلاً عن الواقدى - أن عبد الله بن عـمر لم يكن بالمدينة حين ورد نعى معاوية وبيعة يزيد، وأن ابن عمر وابن عباس لقيا الحسين وعبد الله بن الزبير وهما خارجـان من المدينة يقصدان مكة فسألاهما ما وراءهما فـقال لهما ابن عمر (وأيده ابن عباس): اتقيا الله ولا تفرقا جماعة المسلمين، ثم إن ابن عمر قدم فأقام أيامًا فانتظر حتى جاءت البيعة من البلدان فبايع، وبايع ابن عباس[3].

---

(1) انظر: تاريخ الرسل والملوك، 6/190.

(2) انظر: تاريخ الرسل والملوك 6/ 191.

(3) انظر: السابق، وانظر كذلك ابن العربى: العواصم من القواصم، ص: 231.

إن خروج الحسين على يزيد - مهما كانت دوافعه النبيلة التى لا نستطيع تجاهلها - أمر يحتاج إلى مناقشة تاريخية وشرعية معًا. وليس من الإنصاف التاريخى أن نبدأ بالحكم قبل هذه المناقشة، أو أن يكون لدينا جموح عاطفى يحول دون التقويم الموضوعى لمسار الأحداث وظروف القضية ومسئولية أطرافها جميعًا فى ضوء مبادئ الإسلام التى كانت تحكم حركة هذا الجيل من الصحابة والتابعين!!.

ونتفق مع القاضى أبو بكر بن العربى فيما ذهب إليه: من أن معاوية ترك الأفضل فى أن يجعلها شورى (. . .) فعدل إلى ولاية ابنه وعقد له البيعة وبايعه الناس وتخلف عنها مَنْ تخلف فانعقدت البيعة شرعًا؛ لأنها تنعقد بواحد وقيل باثنين(1). وإن كنَّا نختلف مع ابن العربى فى هذه المبالغة التى تصل إلى حدّ انعقاد البيعة بهذا العدد الضئيل!!

على أن الذى يؤخذ على معاوية كما يقول د/ ضياء الدين الريس أنه لم يفعل كما فعل أبو بكر، وهو أن يختار للأمة أفضل وأكفأ من فيها، ويعهد إليه بالأمر بعد أن يستشير الناس ويأخذ موافقتهم، فالعهد للابن لا يخلو ـ مع وجود الأسباب الأخرى ـ من دافع العاطفة وحب الولد والتحيز للأسرة، ثم لا يضمن دائمًا أن يكون الولد أو القريب من الكفاءة والفضل؛ بحيث يكون أهلاً لهذا المنصب الخطير، فلا نستطيع أن نبرئ معاوية ـ مع ذلك ـ من حب الولد، وإيثار الأسرة بأن يظل الحكم فيها، وهذا هو النظام الوراثى أو الملك.

على أنه ينبغى أن نذكر تغير الزمن والظروف، فالوقت الذى كان المجتمع الإسلامى فيه محصوراً فى المدينة، وكان العدد قليلاً؛ بحيث كان من الممكن اجتماع الناس وتشاورهم، وكانوا من التقوى والورع بالمكان الذى كانوا فيه، بحيث كان من الميسور اتفاقهم أو إجماعهم، هذا الوقت قد انقضى وتفرق

(1) أبو بكر بن العربى: العواصم من القواصم، 222، 144.



المسلمون فى الأمصار، وكثرت الجماعات، وتعددت المذاهب، وظهرت العصبيات، فصار من المتعسر اجتماع الناس أو اتفاقهم على أمر أو شخص، فنظام الشورى أو الاختيار والمبايعة العامة من كل فرد ـ وهو النظام المثالى والنظام الإسلامى الكامل ـ صار من الصعب تطبيقه فى ذلك الزمن؛ إذ إن الشعوب فى تلك الأزمان لم تكن قد تقدمت إلى المستوى الذى تستطيع فيه أن تضع دستوراً ثابتًا، له قواعد محددة يعرفها ويلتزم بها الجميع؛ وهيئة دائمة للترشيح، ونظامًا كفؤاً للإدارة؛ لإجراء الانتخابات العامة، كما تفعل الشعوب فى العصر الحديث؛ ولذا كانت الأمم والدول كلها تتبع نظام الوراثة، خوفًا من الاضطراب، ووقوع الفتن والمنازعات والحروب، وطلبًا للاستقرار. وقد وجدت أمثال هذه الظروف فى المجتمع الإسلامى أيضًا، فأوجدت ضرورة اللجوء إلى نظام الوراثة.

هذا هو تفسير التاريخ للتحول الذى طرأ على نظام الحكم فى الإسلام، وهو أن الظروف الواقعية صارت تقتضى أو تحتم ذلك، ولكن المثال، أو النظام المثالى ينبغى فى الوقت ذاته أن يظل ماثلاً فى الأذهان، ويحافظ عليه على أنه هوالذى يمثل نظام الحكم الحقيقى للإسلام، وتظل قواعد ومبادئ هذا النظام مقررة فى النظريات الإسلامية، ومدروسة ومعروفة بحيث يجب العودة إليها وتطبيقها، كلما صار ذلك ممكنًا وكلما أتاحت الظروف[1].

والواقع أن التكرار غير الواعى لمصطلح (الملك العضوض) يجرِّد نظام الحكم القائم على (الوراثة) و(الشورى المحدودة) من كل الحسنات ويجعله (سُبَّةً دائمة)، خضوعًا لبعض التجارب الديمقراطية المعاصرة التى بدأت تترنح مظهرة طابعها الشعاراتى الماسونى الإلحادى الظلوم.

ومن جهة أخرى نسوق وجهة نظر مؤرخ لا يمكن إنكار مكانته: لقد عقد عبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ) فصلاً فى المقدمة؛ عالج فيه قضية انتقال

(1) انظر، د/ ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية، ص: 190، 191، دار التراث الإسلامى، القاهرة، ط/ السابعة، بدون تاريخ.



الخلافة إلى ملك، أى حين انتقلت من عصر الراشدين إلى العصر الأموى، وفرق بين نوعين من الملك: ملك وجهتُه الحق، وملك وجهتُه الباطل، فقرر أن الأول لا يذمه الشرع؛ لأنه مُلك يعمل للحق والصلاح، أما الثانى فهو المذموم، إذ وجْهتُه الباطل ويعمل للظلم والبغى. ورأى ابن خلدون أن الخلافة انقلبت إلى ملك من النوع الأول، وأن هذا التحول كان لابد أن يحدث نتيجة للعصبية.

يقول ابن خلدون: "ولما وقعت الفتنة بين على ومعاوية ـ وهى مقتضى العصبية ـ كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد، ولم يكونوا فى محاربتهم لغرض دنيوى، أو لإيثار باطل، أو لاستشعار حقد ـ كما قد يتوهمه مُتوهِّم وينزع إليه ملحد ـ وإنما اختلف اجتهادهم فى الحق، وسفَّه كل واحد منهم صاحبه باجتهاده فى الحق فاقتتلوا عليه، وإن كان المصيب عليًّا، فلم يكن معاوية قائمًا فيها بقصد الباطل؛ إنما قصد الحق وأخطأ. ثم اقتضت طبيعة الملك؛ الانفراد بالمجد، واستئثار الواحد به نتيجة العصبية المتحكمة[1].

وقد رصد ابن خلدون مدى التحول الذى حدث، فقرر أن الخلافة الراشدة ـ وإن كانت تحولت فى العصر الأموى إلى ملك ـ فإن معانى الخلافة قد بقيت، وإنما التغير كان فقط فى الوازع، فبعد أن كان دينًا انقلب عصبية وسيفًا. يقصد ذلك أنه بعد أن كان الناس يتصرفون بوازع الدين، والخلافة شورى، صار الحكم مستنداً إلى العصبية والقوة، ولكن أهداف الخلافة بقيت؛ أى أن غايات هذا الملك الأموى كانت لا تزال تحقيق مقاصد الحكم وفق الشريعة الإسلامية بالعدل، وتنفيذ الواجبات التى يأمر بها الإسلام؛ أى أن الحكم أو الملك استمر إسلاميًا وشرعيًا.

وفى هذا يقول ابن خلدون: "وكذا الملك لما ذمه الشارع لما يذم منه الغلَبَ بالحق، وقَهْرَ الكافة على الدين، ومراعاة المصالح، وإنما ذمه لما فيه التغلب بالباطل، وتصرف الآدميين طوع الأغراض والشهوات. فلو كان الملك مخلصًا ـ فى غلَبه للناس أنه لله، ولحملهم على عبادة الله وجهاد عدوه ـ لم يكن مذمومًا.

---

(1) د/ طه عبد المقصود: دراسات فى تاريخ الخلافة الأموية، ص: 82، بتصرف.

ثم يتحدث عن حكام الخلافة الأموية فيقول عنهم: "وهم - وإن كانوا ملوكًا - لم يكن مذهبهم فى الملك مذهب أهل البطالة والبغى، إنما يكون متحرين لمقاصد الحق جُهْدَهم، إلا فى ضرورة تحملهُم على نقضها، مثل خشية افتراق الكلمة الذى هو أهم لديهم من كل مقصد، يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء، وما علم السلفُ من أحوالهم. فقد احتج مالك فى الموطأ بعمل عبد الملك بن مروان. وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين وعدالتهم معروفة. ثم تدرج الأمر فى ولد عبد الملك، وكانوا من الدين بالمكان الذى كانوا عليه. وتوسطهم عمر بن عبدا لعزيز فنزع إلى طريقة الخلفاء الراشدين والصحابة جهده ولم يهمل".

وينتهى ابن خلدون إلى الرأى الذى يراه قاطنًا فى مشروعية الخلافة الأموية، فيقول: "فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك وبقيت معانى الخلافة: من تحرى الدين ومذاهبه، والجرى على منهاج الحق، ولم يظهر التغير إلا فى الوازع الذى كان دينًا ثم انقلب عصبية وسيفًا. وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك"[1].

ومع إخلاص هؤلاء الذين يدينون (المُلك العضوض)، ولا يفرقون بينه وبين (الملك الجبْرىّ الظالم) الذى يمثله أصحاب الطبيعة الثورية الوحشية من قدامى ومعاصرين.... مع إخلاص هؤلاء للإسلام ولتاريخه وحضارته؛ فإنهم يوجِّهون سهمًا كبيراً لتاريخنا - يخدم الأعداء - حين يعالجون أمر نقل السلطة بهذه الطريقة (العائلية) أو (الملك العضوض)... ناسين أن تاريخنا - فى معظمه - قد سار على هذا النمط... وهو - ككل النظم - له سلبياته وإيجابياته، بيد أن إيجابياته - على علاَّته - أفضل بكثير من النظم الرئاسية والثورية الهائجة، كما أنه قد يمنع عن

(1) د/ طه عبد المقصود: المرجع السابق، ص: 84، بتصرف.



الأمة ويلات كثيرة عند (فاصل) انتقال السلطة، بدون ضوابط (وراثية)، ولاسيما أن الأمة الإسلامية لم تُبدع (النظام البديل) الذى يمنع وقوع الفتن،ويداول السلطة دون حروب ودماء، وفاقًا لنظام سياسى صارم يحكمه الدستور والقانون!!

وقد كان الشيخ/ محمد الغزالى ـ رحمه الله ـ على علمه وفضله ـ يقول متعجبًا وناقدًا لتاريخنا بالجملة: كيف يمكن أن يحكم تاريخنا أربع أسر؟ فقلت له: إن هذه الأسرات الكبرى الحاكمة هى التى قادت صناعة الحضارة الإسلامية. . . فالأمويون هم فاتحو العالم، والعباسيون هم صناع الحضارة الذين قال عنهم (ول ديورانت) فى موسوعته (قصة الحضارة): إن إشعاعات علوم العباسيين ومعارفهم سادت العالم لعشرة قرون ـ أى بعد سقوطهم بأربعة قرون (وأنت لا ترى فيهم إلا أنهم أسرة وراثية حاكمة. . !!) وأما (الأيوبيون) فقد صدوا الغزوة الصليبية، كما أن العثمانيين حموا العالم الإسلامى ونشروا الإسلام لخمسة قرون؟!!

فجوهر القضية ليس فى الآليات ـ فحسب ـ بل إن الثمار والنتائج يجب أن تؤخذ فى الاعتبار. . .

* * *

ومرة أخرى. . . ما زلتُ أدعو إلى تشريح نظامنا السياسى الإسلامى تشريحًا جديدًا يجمع بين المثال والممكن، ولئن كان بعضهم يحاول إخضاعه الآن للديمقراطية المعاصرة، فأولى بنا أن نحلله تحليلاً ينسجم مع تجربتنا فى التاريخ ـ فى الإطار الذى تقبله الشرعية والثوابت وفقههما والطبيعة العربية والإسلامية. . . وإلا فإننا سننتهى من تحليلنا إلى إدانة أكبر مساحة زمنية وإيجابية فى تاريخنا. . . ونكون ـ بالتالى ـ قد اتفقنا مع الذين يعمدون إلى تشويه هذا التاريخ، ونكون قد قدمنا مزيدًا من الافتراءات على هذا التاريخ!!

والعبرة ـ فى النهاية ـ ليست وقفًا على جانب واحد من جوانب الحضارة؛ بل إنما تُقَوم الأمور بمجموع فعالياتها وآثارها.



ونحن نظن أن الشيخ (محمد الخضرى) كان يعمد ـ فى فلك هذه الرؤية الهادفة ـ إلى إنصاف (الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى) ـ مهما يكن ثمة مآخذ على أسلوبها السياسى فى تولى السلطة وانتقالها ـ حين صرَّح فى كتابه[1]: بأن فكر معاوية فى اختيار الخليفة حسنٌ جميل ما دام لم توضع (قاعدة لانتخاب الخلفاء)، ولم يعين أهل الحل والعقد الذين يرجع إليهم الاختيار، وقد فعل معاوية ما يظهر معه أنه لم يستبدّ بالأمر دون الأمة.

لكن الناس ـ مع ذلك ـ انتقدوه فى أنه استهان بأولئك النفر الذين لم يرضوا ببيعة يزيد، وهم من سادة الأمة. وأنه اختار ابنه للخلافة، وبذلك سَنَّ فى الإسلام سنّة الملك المنحصر فى أسرة معينة، بعد أن كان أساسه الشورى ويختار من عامة قريش، وقالو إن هذه الطريقة التى سنّها معاوية تدعو فى الغالب إلى انتخاب غير الأفضل الأليق من الأمة.

ثم يعقب الشيخ (محمد الخضرى بك) على هذه المآخذ قائلاً:

أما رأينا فى ذلك فإن هذا الانحصار كان أمراً لابد منه لصلاح أمر المسلمين وألفتهم ولم شعثهم، فكلما اتسعت الدائرة التى منها يختار الخليفة كثر الذين يرشحون أنفسهم لنيل الخلافة، وإذا انضم إلى ذلك اتساع المملكة الإسلامية وصعوبة المواصلات بين أطرافها وعدم وجود قوم معينين يرجع إليهم الانتخاب فإن الاختلاف لابد واقع.

وأعظم من ينتقد معاوية فى تولية ابنه هم الشيعة مع أنهم يرون انحصار ولاية الأمر فى آل علىّ، ويسوقون الخلافة فى بنيه يتركها الأب منهم للابن، وبنو العباس أنفسهم ساروا على هذه الخطة فجعلوا الخلافة حقًّا من حقوق بيتهم لا يعدوهم إلى غيرهم[2]!!

---

(1) الدولة الأموية، ص447، 448، نشر دار القلم بمصر.

(2) محمد الخضرى: الدولة الأموية، ص: 447، 448.



أما العلامـة عبد الرحمن بن خلدون فيـقدم تحليلاً رائعًا فى مقدمـته، حول استخـلاف معاوية لابنه يزيد، وهو تحليل يعالج النقطتـين اللتين أشرنا إليهمـا معًا (الملك العضوض، وشخصية يزيد).

إن مـؤرخنا العظيم ابن خلدون ـ حيـن يتكلم فى هذه القضـية ـ يؤكـد فى البداية أنه لا يـجوز أن يظن (بمعاوية) توليـته ليـزيد وهو يعتقـد ما كـان عليه من الفسق ـ (حاشـا لله لمعاوية من ذلك) ـ والذى دعا معاوية لإيثـار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مـراعاة المصلحة فى اجـتماع الناس واتّفـاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد علـيه حينئذ من بنى أميَّـة؛ إذْ بنو أميَّة يؤمئـذ لا يرضون سواهم وهم عـصـابة قريش، وأهـل الملة أجـمـع، وأهل الغلب منهم، فـآثره بذلك دون غيره، ممن يُظن أنه أولى بها، وعَدَل عن الفاضِل إلى المفضُول حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذى شأنه أهم عند الشارع " .

ـ ولا يُظن بمعاوية غيرُ هذا فَعَدَالتُه وصُحْبته مانعة من سوى ذلك.

ـ وحضور أكابر الصحابة لذلـك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الرِّيَب فيه، فليـسوا ممن يأخـذهم فى الحق هوادة، وليس معـاوية ممن تأخذه الـعزَّة فى قـبول الحق، فإنهم كلَّهم أجلُّ من ذلك، وعـدالتُـهم مانعةٌ منه، وفرار عبـد الله بن عمر من ذلك مـحمول علـى تورّعه من الدخـول فى شىء من الأمور مـباحًـا كان أو محظوراً كـما هو معروف عنه، ولـم يبق فى المخـالفة لهذا العهـد الذى اتفق عليه الجمهـور إلاّ (ابن الزبير) وندور المخالف معروف، ثم إنـه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الـذين كانوا يتحرَّون الحق ويعملون به مثل عـبد الملك وسليمان من بنى أميَّـة والسَّفَّاح والمنصـور والمهدى والرشيـد من بنى العباس وأمـثالهم ممن عُرفت عـدالتُهم وحُـسن رأيهم للمسلمـين، والنظر لهم، ولا يُعاب عليـهم إيثار أبنائهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعـة فى ذلك، فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء، فإنـهم كانوا على حين ـ أى فى ظروف ـ لم تحدث طبـيعة المُلْك،



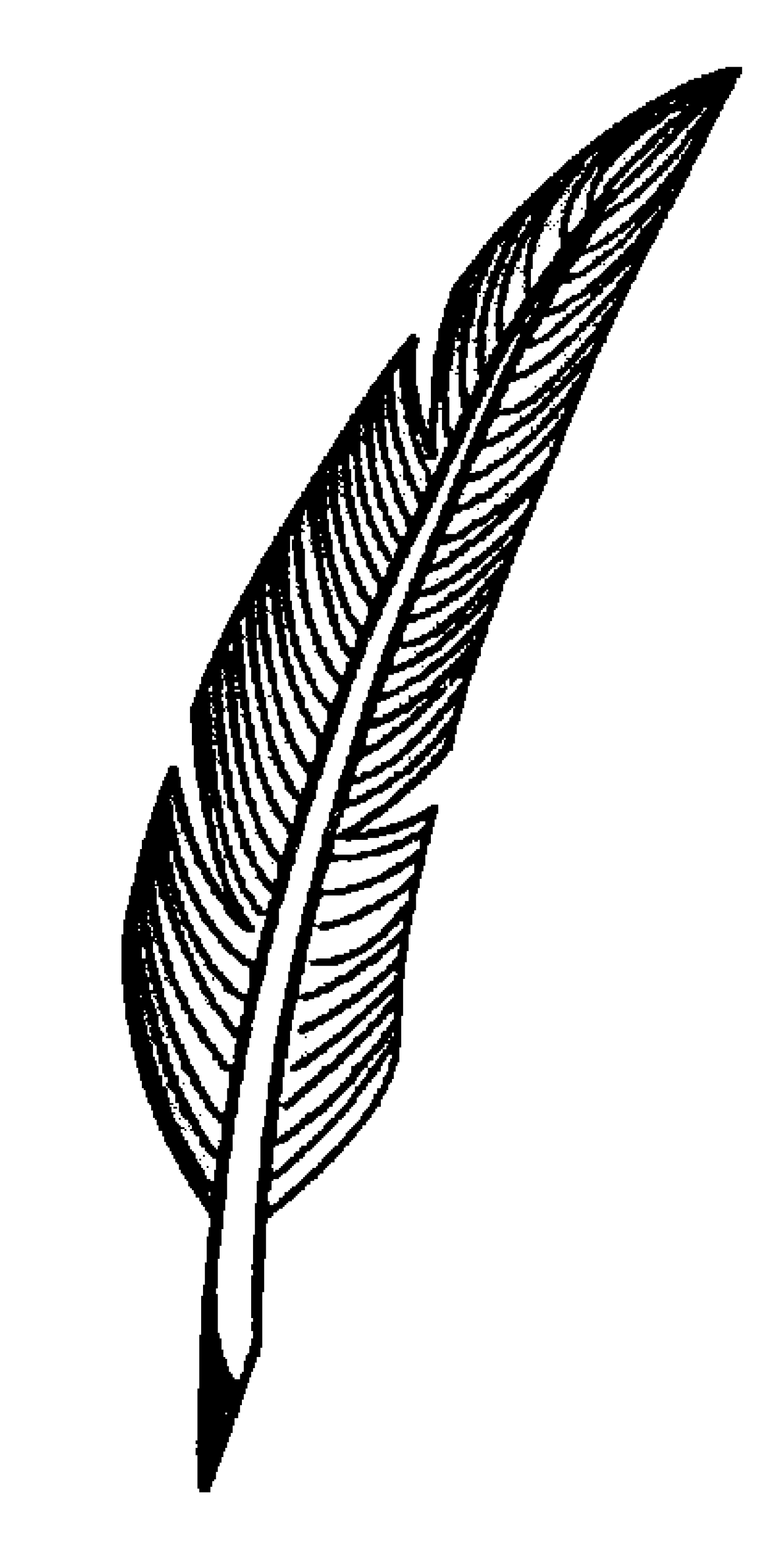
وكان الوازع دينيًّا فعند كل أحدٍ وازعٌ مــن نفسه، فـعهدوا إلى من يرتضــيه الدين فقط، وآثروه على غيره ووكَلوا كلَّ مَنْ يسمو إلى ذلك إلى وازعه.

- وأما مَنْ بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك، والوازع الديني قــد ضعُف واحتــيج إلى الوازع السلطاني والعصــباني، فلو عُهِدَ إلى غير من ترتضيه العصبــية لردّت ذلك العهد وانتقض أمره سريعًا وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف (. . . .).

- أفلا ترى إلى المأمون لما عهد إلى عليّ بن موسى بن جعفر الصادق وسمّاه الرضا كـيف أنكرت العـباسيـة ذلك، ونقضـوا بيعـته، وبايعـوا عمـه إبراهيم بن المهدي، وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع السبل وتعدد الثوار والخوارج ما كاد أن يصطلم الأمر حتى بادر المأمون من خراسان إلى بغداد، وردّ أمرهم لمعاهده، فلابد من اعتبار ذلك في العهـد، فالعصور تختلف باختلاف ما يحـدث فيها من الأمور والقبائل والعصبيات، وتختلف باخـتلاف المصالح، ولكل واحد منها حكم يخصه لطفًا من الله بعباده[1].

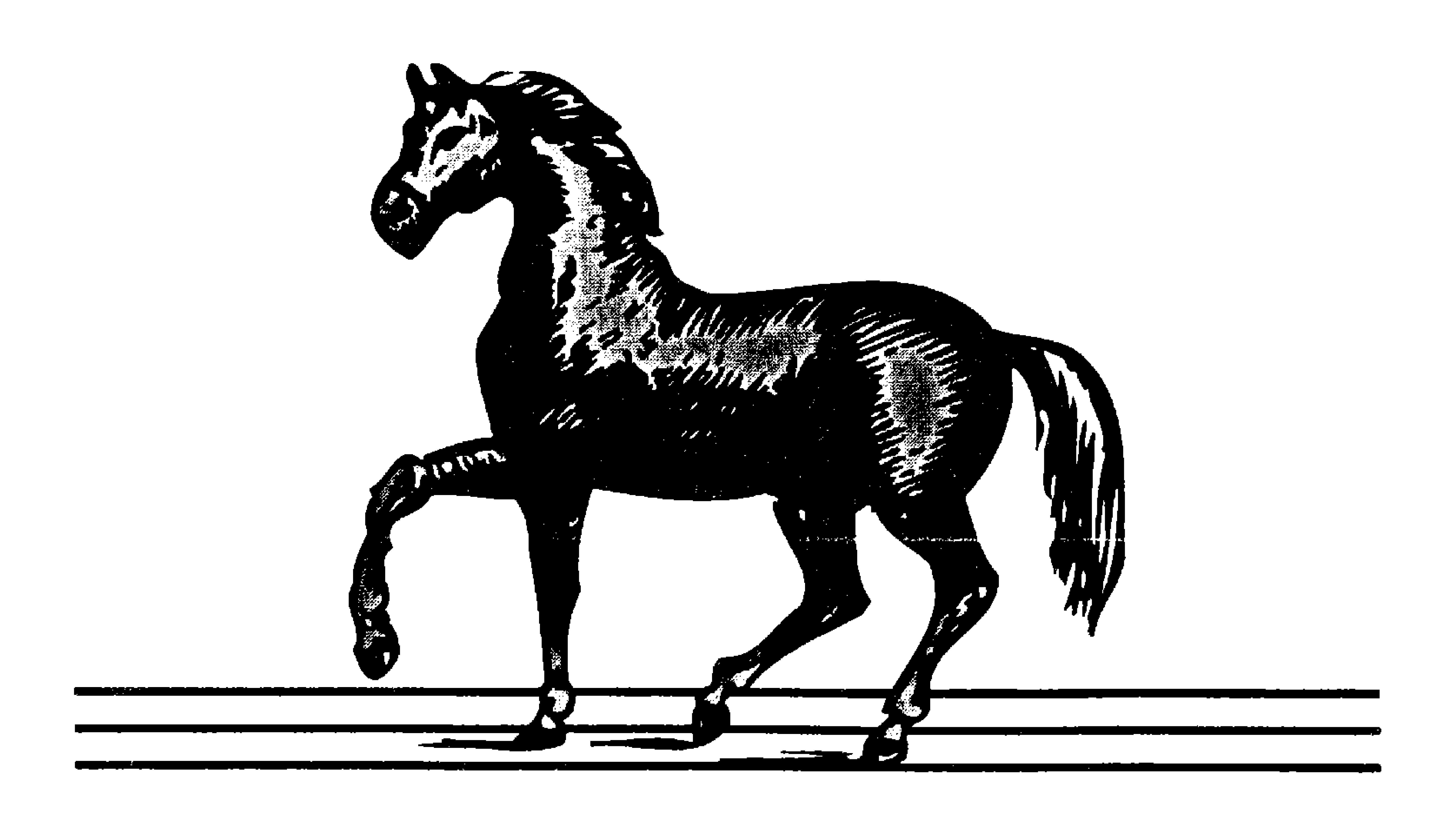
* * *

(1) المقدمة، تحقيق د/ عبد الواحد وافي 2/ 593، دار نهضة مصر، القاهرة (2006م).



أسس استخلاف

معاوية لابنه يزيد



بنى معاوية بن أبى سفيان دعوته لاستخلاف يزيد على أسس ثلاثة:

الأول: الحرص على وحدة الجامعة الإسلامية، وائتلاف كلمة المسلمين، وانتظام حياتهم، وتجنيبهم عوامل الاختلاف والفرقة، وقد عبر معاوية عن ذلك حيث قال لعبد الله بن عمر: "إنى خفت أن أذر الرعية من بعدى كالغنم المطيرة، أى: المتفرقة ليس لها راع"، وفى رواية أخرى: "إنى أرهب أن أدع أمة محمد بعدى كالضأن لا راعى لها".

ولا شك فى أن ذكريات الفتنة التى وقعت منذ مقتل الخليفة عثمان رضى الله عنه وما تبعها من حروب بين المسلمين فى موقعتى الجمل وصفين، وما نتج عنهما من دماء، مع تعرض مكانة الدولة نفسها للانتقاص، وأطماع الأعداء المتربصين بها؛ لا تزال حاضرة فى الأذهان، تثير القلق والخوف، وهذا يفسر قول معاوية: "فلهذا رأيت أن أبايع ليزيد لما وقع فيه الناس من الاختلاف".

الثانى: كان معاوية يعتقد أن ابنه يزيد قد جمع صفات الرئاسة من شرف النسب، وكرم المنبت، ورحابة الصدر، وسماحة الخلق، وحصافة الرأى، كما جمع صفات الإمامة الإسلامية من معرفته بالكتاب والسنة، وممارسته للسياسة ونهوض بأعباء الحكم، ودقة فى تدبير الأمور فى الحرب والسلم، وحسن السيرة وغيره مما كان منصب الخلاف يتطلبه.

وقد عبر معاوية عن ذلك فى خطبة له: "اللهم إن كنت تعلم أنى وليته؛ لأنه فيما أراه أهل لذلك فأتمم له ما وليته، وإن كنت وليته لأنى أحبه فلا تتم له وليته".

وقال لأهل المدينة حين زارها سنة (59هـ): "من أحق بالخلافة من ابنى يزيد فى فضله، وهديه، ومذهبه، وموضعه من قريش".



وقال لزعماء أهل المدينة حين لقيهم بمكة: "والله لو علمت مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له".

الثالث: كان معاوية يدرك أن أهل الشام لن يسمحوا بخروج الخلافة منهم، بعد أن أحسوا بالمكانة العالية التى اكتسبوها طوال عشرين عامًا من خلافة معاوية، وبالثقة الكبيرة فى بنى أمية؛ الذين عايشوهم نحو عشرين عامًا من خلافة معاوية[1].

وبالنسبة ليزيد بن معاوية ـ بخاصة ـ فقد شكّك فى كثير مما نسب إليه كثيرون ـ منهم ـ إلى جانب ابن خلدون ـ الإمام أبو حامد الغزالى، وابن الصلاح، وأبو بكر بن العربى، وشمس الدين أبو عبد الله محمد بن طولون الصالحى الدمشقى المتوفى سنة 953هـ، والذى كتب كتابه المعروف (قيد الشريد من أخبار يزيد)[2]، يدافع فيه عن يزيد، ويقدم بعض الحقائق حول ما يريد بعضهم تثبيته حول مسئولية يزيد (الكاملة) عن قتل الإمام الشهيد (الحسين بن على) وشماتته فى قتله، وعبثه برأسه، ومسئوليته (الكاملة) عن موقعة (الحرّة)... وعدم معالجة الأمور بالقسط، للوصول إلى نسبة محدّدة فى المسئولية... ذلك أن القول بعدم المسئولية نوع من التدليس لا نقبله ولا نقره؛ فمسئولية يزيد قائمة لا يمكن المماراة فيها.... لكن فى الوقت نفسه لا يمكن تجاهل ظروف الطرف الآخر ومستوى نصيبه من المسئولية.... لأن هذا هو (القضاء العادل)، وهو (المنهاج الموضوعى) فى التقويم التاريخى والعلمى...!

ونقدم هنا ـ باختصار ـ بعض النصوص المتصلة بيزيد، التماسًا لتخفيف الحكم ـ لا لإلغائه ـ وكذلك تعميقًا لمنهجية (العدل والموضوعية والحيدة) فى

(1) راجع: د/ حسين عطوان: نظام ولاية العهد ووراثة الخلافة، ص:33، 34، محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، (4/ 119)، نقلاً عن: د/ طه عبد المقصود: دراسات فى تاريخ الخلافة الأموية، ص: 80، 81، دار الهانى، القاهرة ـ ط/ الأولى 2004م.

(2) بتحقيق الدكتور كرم حلمى فرحات، نشر دار عين بالقاهرة ط1/ 2005.



البحث التاريخى، بعيداً عن ضغط العواطف والأحكام المطلقة والموروثة، التى يقف وراء كثير منها أصحاب النزعات الباطنية وأعداء بنى أمية من أبناء الدول والثقافات التى هزمها بنو أمية.... قادة الفتوحات الكبرى فى تاريخ الإسلام.

ونبدأ بالنص الأول، أو بالشهادة الأولى، وهى لحجة الإسلام أبى حامد الغزالى (ت 505هـ) فقد سُئل حجة الإسلام عمن يصرح بلعن يزيد بن معاوية، هل يحكم بفسقه أم لا؟ وهل كان راضيًا بقتل الحسين بن على أم لا؟ وهل يسوغ الترحم عليه أم لا؟ فأجاب الغزالى: لا يجوز لعن المسلم أصلاً، ومن لعن مسلمًا فهو الملعون، وقد قال ﷺ: «ليس المسلم بلعان»، وكيف يجوز لعن المسلم وقد نهينا عن لعن البهائم، وحرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة، بنص حديث النبى ﷺ.

وقد صح إسلام يزيد بن معاوية، وما صح قتله الحسين، ولا أمر به، ولا رضاه بذلك، ولا كان حاضراً حين قتل، وهما لا يصح ذلك منه، ولا يجوز أن يُظن ذلك به، فإن إساءة الظن أيضًا بالمسلم حرام.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ... (١٢)﴾ [الحجرات]، وقال النبى ﷺ: «إن الله حرّم من المسلم دمه وماله وعرضه، وأن يُظن به ظن السوء» [متفق عليه].

ومن زعم أن يزيد أمر بقتل الحسين أو رضى به فينبغى أن يعلم أن به غاية الحماقة، فإن من قتل الملوك والأمراء والكبراء بحضرتنا، لو أردنا أن نعلم حقيقة الأمر: مَنْ الذى أمر بقتله، ومن الذى يرضى به ومن الذى كرهه؟ لم نقدر على ذلك، وإن كان قد قتل فى جوارنا وزماننا ونحن نشاهده، فكيف بمن قتل فى بلد بعيد، وفى زمن بعيد[1]، إنها شهادة علمية تدلّ على عقلية أبى حامد الغزالى الفذة!!

(1) عبد السلام هارون: تهذيب الإحياء 2/ 52، نقلاً عن: قيد الشريد، ص119ـ 121.



وفى فتاوى الشـيخ (تقىّ الدين بن الصلاح) مسألة: هل يعـتقد أن يزيد بن معاوية أمر بقتل الحسين بن علىّ ورضى به طوعًا منه لا كرهًا واختار ذلك؟

أجاب: لم يصح عندنا أنه أمـر بقتل الحسين رضى الله عـنه، والمحفوظ أن الآمر بقتاله المفضى إلى قتله (كرمه الله) هو عبيد الله بن زياد والى العراق إذ ذاك.

وأما سبّ يزيد ولعنه فليس ذلك من شأن المؤمنين، وإن صحّ أنه قتله أو أمر بقتله(1).

قال الحافظ أبو القاسم التيمى الطلحى الأصبـهانى فى كتابه (الحجة فى بيان المحجة) فى الفـصل الذى عقده عن يزيد بن معاوية وحاله: حـدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن نافع لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده وقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقـول: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة» وإنّا بايعنا هذا الرجل علـى بيعـة الله ورسوله، وإنـى لا أعلم غدرًا أعم من أن يبـايع رجل على بيعـة الله ورسوله ثم ينصب له القتـال، وإنى والله لا أعلم أحدًا منكم خلعه ولا تابع فى هذا الأمر إلا كانت الفصيل (أى القطيعة) بينى وبينه.

وقال عبـد الرحمن بن أبى مذعور: حدثنى بعض أهل العلم قـال: آخر ما تكلم به يزيد بن معاوية: (اللهم لا تؤاخذنى بما لم أحبّه، ولم أردْه، واحكم بينى وبين عبيد الله بن زياد)(2)؟!!

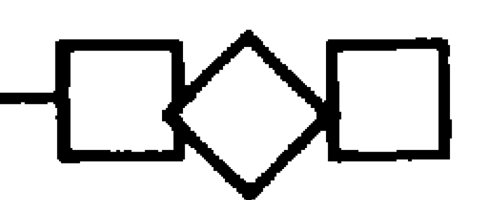
* * *

وهذه النقـول ـ وغيـرها كثيـر ـ ما أردتُ منـها اتّـخـاذ موقف معـين، ولا التـعصّب لـبعض بنى أمـيـة أو لكلهم، ومـا أردتُ ـ علم الله ـ تبـرير أخطائهم وتحويلهـا إلى قاعدة، ومـا أردتُ تفضيل نظـام (الأسرات الإسلامـية) على النظام الراشدى، أو على أىّ نظام إسلامى سـياسى يصل إليه (الفقه الإسـلامى المعاصر)

(1) ابن طولون: قيد الشريد، ص123.

(2) المرجع السـابق، ص111، 129.





يأخذ بأكبر قدر من الشورى، ويعبِّر عن أكبر قدر من أبناء الأمة أو الوطن، ويكون محكومًا بـالإسلام لا بضغوط الفكر الليبرالى الديمقراطى الذى افـتضح أمره فى التجربة الأمـريكية المعاصرة [عصـر بوش وحربه العالمية الديمقـراطية على الإسلام والمسلمين باسم الديمـقراطية، بينما هو أكـبر خائن للديمقراطيـة فى داخل أمريكا وخارجها]. . .

كما أن أهل البيت لهم مكانتهم التى لا يمكن مقارنتها بالأمويين أو غيرهم، (فحبُّهم دين ونحن نتعبّد لله بالصلاة عليهم).

وإنما أردتُ من كل ما سـقـتُه الدفـاع عن وجهات النظـر الأخرى التى يُراد مصـادرتها، وإصدار (صكوك حـرمان) بشأنهـا، فالبحث التـاريخى والإنسانى لا يعرف هذا الحرمان. . . وصفحات التجديد والرأى فيه موصولة دائمًا وباقية ما بقى العقلُ يعمل والتطور يتلاحق.

وكل ذلك يصبُّ فى مصلحة تجربتنا الحضـارية الإسلامية فى التاريخ، وهذا بيت القـصيـد حـتى تبقى بيـن الخلف والسلف وشائج الحـبّ والتقـدير فى إطار الاعتراف باحتمالات الخطأ والصواب التى تفرضها الطبيعة البشرية!!

* * *

وأيًا كان الأمـر فلم يكن يزيد كما وصـفوه؛ بل هو من الطبـقة الأولى من التـابعـين، وعنه قـال عبـد الله بن عـبـاس: إذا ذهب بنو حـرب ذهب علمـاء الناس. . . وقد علمه أبوه العدل والإنصاف والتـواضع، وأرسله لغزو القسطنطينية سنة (49هـ)، وكان تحـت إمرته كبـار الصحـابة كابن عـباس، وابن عـمر، وابن الزبير، وأبى أيوب الأنصارى. . . وهذا الجـيش الذى قاده يزيد؛ هو الجيش الذى وعده الرسول بالمغفـرة حيث قال: "أول جيش يغزو مدينة قيصـر مغفور له"[1]، وقد شـــهد له مـحـمد بن الحنـفـية شـهادة صـدق، ودافع عنه دفاع حـق ضد

(1) ابن كثير: البداية والنهاية 8/ 277.

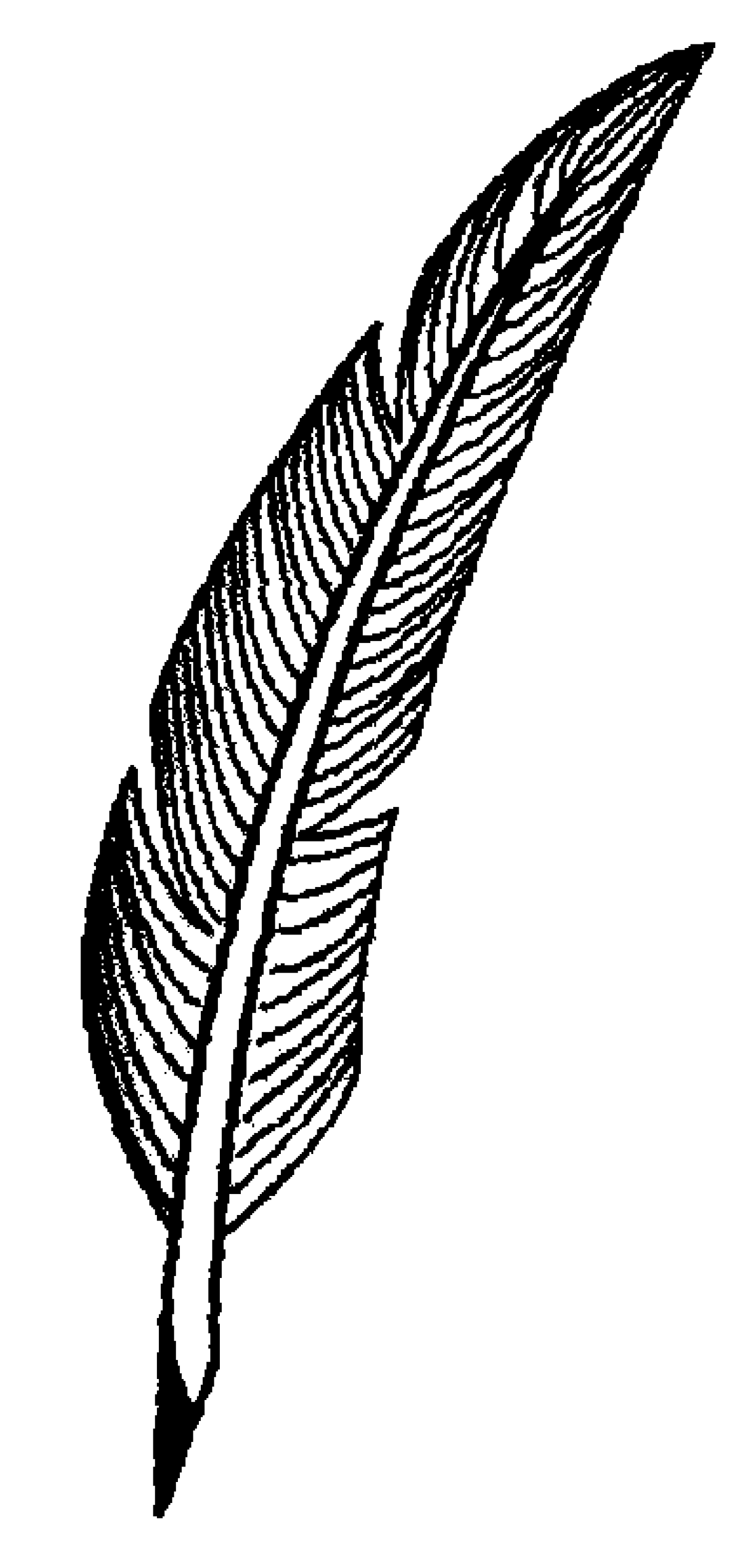


خصومه[1]، كما روى البخـارى موقف عبد الله بن عمر من بيـعة يزيد، ورفضه الغدر بالبيعة[2].

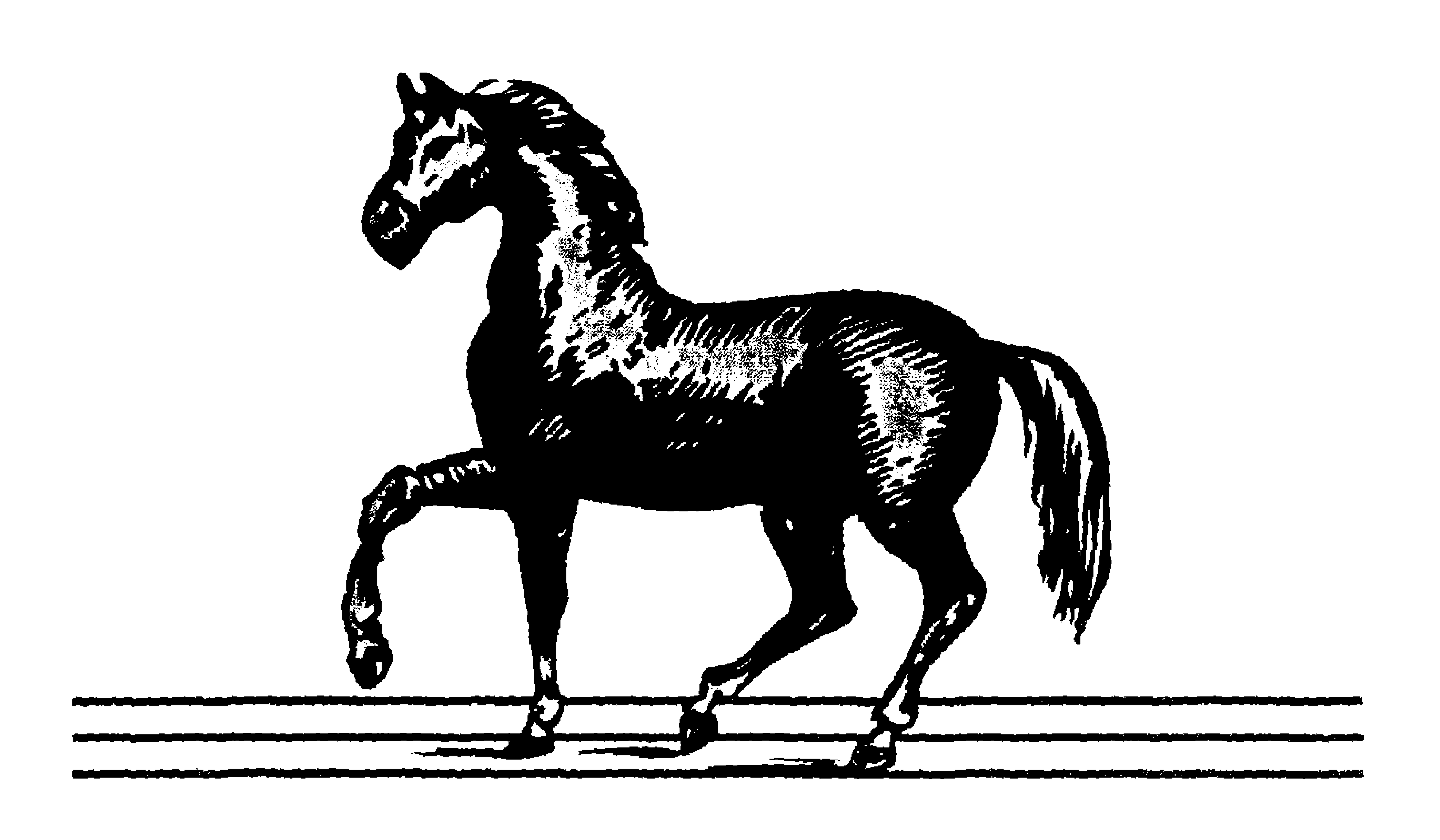
* * *

(1) انظر: العواصم من القواصم، ص: 227، 228حاشية.

(2) انظر السابق، ص: 224، وانظر د/ عبـد الشافى عـبد اللطيف: مـرجع سابق، ص: 128- 130.



المغيرة بن شعبة
وقضية اتهامه بتحريض معاوية على تحويل الخلافة إلى الملك



هو المغيرة بن شعبة بن أبى مسعود الثقفى[1]، يُكنى: أبا عبد الله، أسلم عام الخندق سنة (5هـ)، وشهد الحديبية سنة (6هـ)، وكان موصوفًا بالدهاء، وحدة الذكاء، وسرعة البديهة؛ قال عامر الشعبى: دهاة العرب أربعة: معاوية بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد؛ فأما معاوية بن أبى سفيان فللأناة والحلم، وأما عمرو بن العاص فللمعضلات، وأما المغيرة فللمبادهة، وأما زياد فللصغيرة والكبيرة. . .

وقال قبيصة بن جابر: صحبت المغيرة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بالمكر، لخرج المغيرة من أبوابها كلها.

وقال الطبرى: كان لا يقع فى أمر إلا وجد له مخرجًا، ولا يلتبس عليه أمران إلا ظهر الرأى فى أحدهما؛ ولذلك كان يقال له: مغيرة الرأى.

ومن الأخبار المأثورة عنه، والدالة على شدة ذكائه، وسعة حيلته؛ أنه أراد أن يكون آخر الناس عهدًا برسول الله ﷺ قبل دفنه، فخلع خاتمه وألقاه فى اللحد، ثم استأذن فى إحضاره قبل أن يغلق القبر، فكان آخر الناس عهدًا بالنبى ﷺ.

وقد شارك المغيرة بن شعبة فى حركة الفتوحات الإسلامية أيام أبى بكر الصديق مشاركة فاعلة فيها أمانة وإخلاص وتفان؛ من أجل إعلاء كلمة الله، ورفع راية الإسلام؛ حتى لقد فقد إحدى عينيه فى موقعة اليرموك.

ونظرًا لكفاءته ومواهبه فقد استعمله عمر بن الخطاب على البصرة، فظل واليًا عليها إلى أن عزله عمر سنة (17هـ)؛ بعد أن اتهم بالزنا. وقد قام عمر بن الخطاب بالتحقيق فى هذا الاتهام؛ فثبتت براءة المغيرة؛ حيث شهد عليه ثلاثة هم:

---

(1) راجع فى ترجمته: ابن الأثير: أسد الغابة (5/ 247، 248)، ابن سعد: الطبقات الكبرى (4/345)، التاريخ الكبير للبخارى (7/ 175)، تاريخ دمشق لابن عساكر (14/391).

أبو بكرة الثقفى، ونافع بن الحارث بن كلدة الثقفى، وشبل بن معبد بن عتيبة بن الحارث البجلى، وامتنع من الشهادة زياد بن عبيد الذى قيل له فيما بعد: زياد بن أبى سفيان.

فجلد عمر الشهود الثلاثة حد القذف؛ لأن الشهادة لم تكتمل، وقال: الحمد لله الذى لم يشمت الشيطان بأصحاب محمد ﷺ.

بيد أن عمر بن الخطاب عزل المغيرة بن شعبة وولى مكانه أبا موسى الأشعرى من باب الاحتياط، ومراعاة المصلحة العامة، وإن ولاه فيما بعد على أماكن أخرى.

وكان عمر بن الخطاب مقتنعًا تمامًا ببراءة المغيرة بن شعبة، وأن التهمة الموجهة إليه من أهل البصرة محض افتراء؛ ولذلك نراه يستعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة؛ حيث رُوى أن عمر استشار الصحابة فيمن يولى على أهل الكوفة، فقال لهم: من يعذرنى من أهل الكوفة؛ إن استعملت عليهم عفيفًا استضعفوه، وإن استعملت عليهم قويًا فجروه ـ أى: اتهموه بالفجور ظلمًا ـ ثم قال: أيها الناس، ما تقولون فى رجل ضعيف غير أنه مسلم تقى، وآخر قوى مشدد، أيهما الأصلح للإمارة، فقال المغيرة بن شعبة: يا أمير المؤمنين إن الضعيف المسلم إسلامه لنفسه، وضعفه عليك وعلى المسلمين، والقوى المشدد فشداده على نفسه، وقوته لك وللمسلمين، فقال عمر: صدقت يا مغيرة، ثم ولاه الكوفة.

وقد استعمل معاوية بن أبى سفيان المغيرة بن شعبة على الكوفة، قال ابن عساكر: اقتدى معاوية فى ذلك بعمر وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ حيث سبق لهما تعيين المغيرة على صلاة الكوفة دون خراجها.

ويُتهم المغيرة بن شعبة بأنه أحد من أسهموا فى الانحراف بالخلافة نحو الملك العضوض، أو ما يشبهه؛ حيث تتفق أكثر الروايات على أن المغيرة بن شعبة هو الذى أوحى إلى معاوية بفكرة ولاية العهد، وأنه هو الذى أشار عليه بأن يرشح



ابنه يزيد لهذا المنصب، وكان المغيرة آنذاك واليًا لمعاوية على الكوفة، ويذكر ابن الأثير أن "ابتداء ذلك وأوله كان من المغيرة بن شعبة".

وقد شرح المغيرة لمعاوية مبررات هذا الاقتراح ودوافعه حين وفد إليه بدمشق، وقال له: "يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء، والاختلاف بعد عثمان، وفى يزيد منك خلف فاعقد له، فإن حدث لك حادث كان كهفًا للناس، وخلفاً منك، ولا تسفك دماء، ولا تكون فتنة"[1].

وتدلنا الروايات التاريخية على أن معاوية قبل اقتراح المغيرة، وشرع فى تنفيذه، وإن كان من المحتمل أنه فكر فى استخلاف يزيد قبل أن ينبهه المغيرة إلى ذلك؛ ولكنه كان ينتظر الظروف المناسبة لأخذ البيعة له، ويمكن أن يستدل على ذلك بقول ابن كثير: "وقد كان معاوية لما صالح الحسن بن على عهد للحسن بالأمر من بعده، فلما مات الحسن قوى أمر يزيد عند معاوية، ورأى أنه لذلك أهل، وذاك من شدة محبة الوالد لولده، ولِمَا كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية، وسيما أولاد الملوك، ومعرفتهم بالحروب، وترتيب الملك، والقيام بأبهته، وظن ألا يقوم أحد من أبناء الصحابة فى هذا المعنى"[2].

وتذكر المصادر التاريخية أن معاوية أمر المغيرة أن يعمل فى بيعة يزيد بالكوفة، فعرض الأمر على من يثق به، فأجابوه إلى بيعته، فأوفد المغيرة وفداً من أهل الكوفة إلى معاوية، فحببوا إليه البيعة ليزيد، ودعوه إلى عقدها.

وأرسل معاوية إلى زياد والى البصرة يستشيره فى بيعة يزيد، فأشار عليه بالتؤدة، وألا يعجل، فقبل معاوية منه؛ ولكن حين توفى زياد سنة (53هـ) قوى عزم معاوية على البيعة ليزيد بولاية العهد، فكتب إلى مروان بن الحكم والى المدينة يقول: "إنى قد كبرت سنى ودق عظمى وخشيت الاختلاف على الأمة

(1) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ 3/ 349، بيروت ـ دار صادر (1979م).

(2) ابن كثير: البداية والنهاية (4/ 577).



بعدى، وقد رأيت أن أتخير لكم من يقوم بعدى، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك". وكذلك كتب معاوية إلى عماله أن يوفدوا إليه الوفود من الأمصار، فقدمت عليه الوفود من البصرة والكوفة والمدينة، فحدث اجتماع أو شبه مؤتمر، وتكلم الخطباء فأعربوا عن تأييد البيعة، وبايع أكثر الناس ليزيد، وذلك سنة (56هـ).

وكان ممن تكلم الأحنف بن قيس؛ حيث قال: "يا أمير المؤمنين أنتم أعلم بيزيد فى ليله ونهاره، وسره وعلانيته، ومدخله ومخرجه؛ فإن كنت تعلمه لله رضا ولهذه الأمة فلا تشاور الناس فيه، وإن كنت تعلم منه غير ذلك، فلا تزوده الدنيا، وأنت تذهب إلى الآخرة".

* * *

أما معاوية الثانى فلم يبق فى الخلافة إلا أربعين يومًا[1]... وكان ورعًا صالحًا رفض أن يوصى بالخلافة من بعده، وقال: لم أنتفع بها حيًّا فأتقلدها ميتًا[2].

وأما مروان بن الحكم فكانت خلافته تسعة أشهر[3]، ومع ذلك فخلافته نقلت الخلافة من الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى.

وقد خلفه ـ بعهد منه ـ ابنه عبد الملك الذى يراه الدارسون ـ بحق ـ مؤسس الدولة المروانية، أو المؤسس الثانى للدولة الأموية. وبجهود عبد الملك انتهت دولة ابن الزبير، وانتصرت الدولة الأموية، واعتبر عام (73هـ) ميلاداً ثانيًا للدولة

(1) خليفة بن خياط، ص: 224، وابن دقماق: الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين: تحقيق سعيد عاشور (نشر مكة المكرمة، ص: 61، 62).

(2) انظر: المرجعين السابقين.

(3) انظر: خليفة بن خياط، ص: 259، وابن دقماق: الجوهر الثمين، ص: 62.

الأموية، ومن مناقب عبد الملك أنه كان لا يسمح لأحد أن يداهنه أو ينافقه أو يضيع وقته[1].

ولئن كان حكم عبد الملك بن مروان قد وحّد الدولة الإسلامية وعربها؛ فإن عصرى الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك مثلاً عصر الفتوحات الكبرى فى قارات العالم القديم، ففى آسيا فتح الأمويون أقاليم ما وراء النهر، وثبتوا فتوحاتهم فى خراسان وسجستان وجرجان وطبرستان وأرمينية وأذربيجان. وفى إفريقيا فتح الأمويون الشمال الإفريقى كله: برقة وطرابلس وإفريقيا والمغربين الأوسط والأقصى، وفى أوروبا فتحوا شبه جزيرة إيبريا، وعبروا ما وراء جبال البرانس، وحاولوا الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية[2].

وكما تجلت عبقرية الأمويين فى الغزو والفتح، فقد كانت عبقريتهم فى الإدارة والتنظيم والتقريب بين الشعوب التى دخلت فى حوزة الإسلام أعظم، فبفضل السياسة المرنة، والأفق الواسع الذى كان يتمتع به الخلفاء الأمويون انصهرت شعوب البلاد المفتوحة - من إيرانيين وأتراك وأرمن وأكراد وبربر - فى بوتقة الإسلام، لتشكل عالمًا إسلاميا واحدًا، وبفضل مثابرتهم وجهادهم مهدوا الأرض فى هذه البلاد لانتشار الإسلام. ومهما كابر المكابرون؛ فإن أى منصف لابد أن يعترف بأن العصر الأموى كان عصراً باهراً فى جميع المجالات، وأن بذور الحضارة الإسلامية التى غرست منذ بداية ظهور الإسلام أخذت تنمو وتترعرع فى هذا ا لعصر، وواصلت نموها وازدهارها حتى وصلت إلى أوج عظمتها فى العصر العباسى[3].

وقد وصف الوليد بأنه أكثر الأمويين فتوحات وأعظمهم نفقة فى سبيل الله، وهو الذى بنى جامع بنى أمية بدمشق، وعمَّر مسجد النبى بالمدينة، وعمل المنابر،

(1) د/ عبد الشافى عبد اللطيف: مرجع سابق، ص: 151، 152.

(2) المرجع السابق، ص: 238.

(3) المرجع السابق، ص: 238، 239.

وأغنى المجذومين عن سؤال الناس[1]، كما وصف سليـمان بأنه (مفتـاح الخير)، وقـد أطلـق الأسـارى، وأخلى الحبـوس، وأحـسن إلى الناس، وأمـر بغـزو القسطنطينية. . . وكان رجلاً عاقلاً دينًا متوقفًا عن الدماء[2].

وقد أسدى سليمان يدًا عظيمة للأمة الإسـلامية بجعله ولاية العهد من بعده لعمر بن عبد العزيز (خامس الراشدين)!!

فلئن كان عبد الملك قد وحد الدولة وعربـها، ولئن كان الوليد وسليمان قد توسعا فى الفـتوحات العسكرية والسيـاسية والإدارية والتنظيمية. . . فـإن عمر بن عبد العزيز قد اتجه إلى الشيء الأهم والأعظم والأبقى. . . لقد بذل كل جهده فى نشـر الدعوة الإسـلاميـة فى أقطار الأرض، فكتب إلى ملوك الهند يدعـوهم إلى الإسلام والطاعة، على أن تبـقى أملاكهم وإمارتهم بأيديهم، ولهـم مـا للمسلمين وعليهم ما عليهم، وكانت سيرة عـمر ومذهبه فى الحكم والحياة قد بلغت هؤلاء، فأسلموا وتسموا بأسماء العرب، كـما دفع عمر برسائله ووفوده إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام، فاستجاب له بعضهم، كما استجاب له كثير من أهالى تلك المناطق، فـأمـر ببناء الخـانات كى تكون لهم مـحطات يأوى إلـيهـا الغـرباء والمسافـرون والمنقطعون، كما كـتب إلى (ليو الثالث) إمبـراطور الروم، يدعوه إلى الدخول فى الإسلام[3].

---

(1) ابن دقماق: الجـوهر الثمين، ص:65، وسير حديث عن ذلك عند الإلمام بأهم المنجزات الحضارية لبنى أمية.

(2) السابق، ص: 70، 71.

(3) عماد الدين خليل: ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز، ص:85، ط2، دار الكتب العلمـية، وانظر تـوماس أرنولد: الدعـوة إلى الإسلام ترجـمة حـسن إبراهيم وآخرين، ص: 102، القاهرة، بدون تاريخ.

وكان لعمر المنتهى فى العلم والفضل والورع ونشر العدل، فجدد الله به للأمة دينها، وكان مقربًا لأهل الفضل، يؤثر الدين على الدنيا، وكان يجمع العلماء والزهاد كل ليلة، فيتذاكرون الموت حتى كأن بينهم جنازة[1].

وكانت خلافة عمر سنتين وستة أشهر، ثم خلفه يزيد بن عبد الملك؛ الذى حاول أن يسير سيرة عمر إلا أنه لم يستطع الصمود فى القمة... مع أن ليزيد بن عبد الملك أخبارًا حسانًا أوردها المسعودى[2].

أما هشام بن عبد الملك الذى حكم عشرين سنة من عمر الدولة الأموية القصير، فتجمع المصادر على أنه كان فى خلافته ذا رأى حازمًا ذكيًّا عاقلاً... بل محشوًّا عقلاً - حسب تعبير الطبرى - وقال الطبرى أيضًا نقلاً عن عبد الله بن على: "جمعت دواوين بنى مروان فلم أر ديوانًا أصح ولا أصلح للعامة وللسلطان من ديوان هشام"[3]، وقال: لم يكن أحد من بنى مروان أشد نظرًا فى أمر أصحابه ودواوينه ولا أشد مبالغة فى الفحص عنهم من هشام[4].

وأما السنوات السبع الباقية من عمر الدولة الأموية فقد دخلت الدولة مرحلة الاحتضار، ولم تصلح الجهود الكبيرة لمروان بن محمد - آخر خلفاء بنى أمية العظام - مع كل ما أوتيه من ذكاء وحكمة وشجاعة - أن يحول دون السقوط... لأن كل ظروف السقوط كانت قد توافرت، ولم يعد فى قدرة أى فرد عظيم أن يقف ضد التيار!!

وقد حكم فى هذه الفترة المضطربة أربعة خلفاء هم: الوليد بن يزيد، ويزيد ابن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، ومروان بن محمد. وقد اختلفت آراء المؤرخين

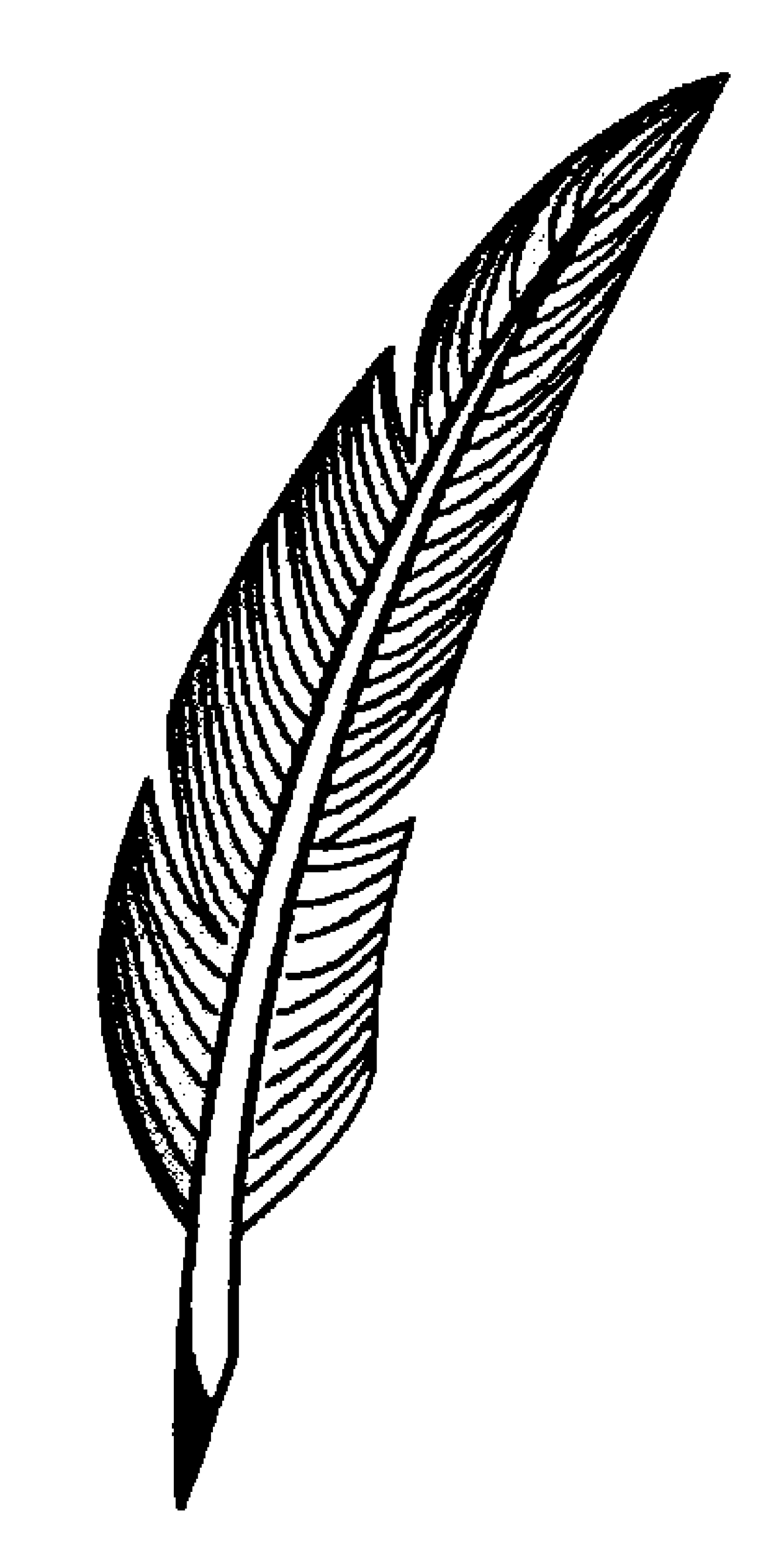
(1) ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص: 74.
(2) مروج الذهب 2/ 215، وانظر عبد الشافى عبد اللطيف، ص: 183.
(3) الطبرى: التاريخ 7/ 285، 1979، وانظر ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص: 78.
(4) الطبرى: المرجع السابق.



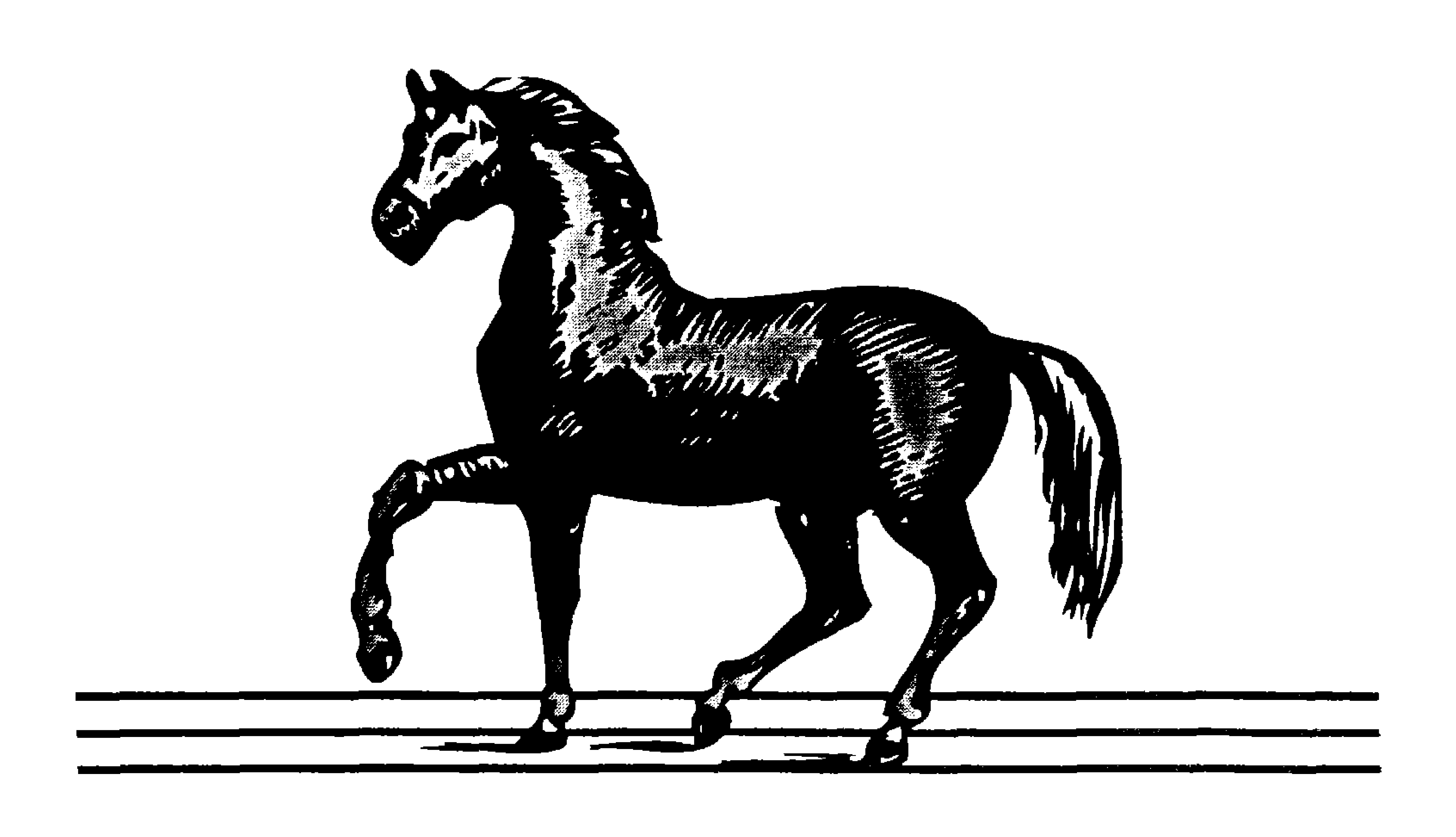
فى هذه الشخـصيات وتقويم أعـمالهم اختلافًـا بعيدًا، وخاصـة الوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، فـبينما يدافـع عنها طائفة من المؤرخـين، ويرون أن ثمة مبـالغة عولج بها تاريـخهما، وأنهمـا كان أميل إلى الصلاح.. نجد فى الـوقت نفسه من يذهب إلى رميهما ـ ولاسيما الوليد ـ بأقبح الصفات.

ولذلك حديث مفصل فيما يلى.

***



الوليد بن يزيد
الخليفة المفترى عليه



نبدأ فى تجلية الصورة الحقيقية للخليفة المفترى عليه (من وجهة نظرنا) مشيرين إلى القضية ـ من أولها ـ تلك التى انتهت بتقديم صورة غير موضوعية عن هذا الخليفة الأموى (المقتول) ظلمًا. . . . .

كان الوليد بن يزيد فى الحادية عشرة من عمره حين جعل أبوه يزيد بن عبد الملك ولاية العهد لعمه هشام بن عبد الملك (105 ـ 125هـ). . . وجعله بعده، ولم يمت يزيد إلا وابنه الوليد فى الخامسة عشرة، فكان يندم على أنه استخلف أخاه هشامًا وترك ابنه الوليد. . . وكان يزيد بن عبد الملك يقول إذا نظر إلى ابنه الوليد: الله بينى وبين من جعل هشامًا بينى وبينك. . .

وفى هذا المناخ ـ ومن خلال الأقوال المتناثرة هنا وهناك ـ لم تسر العلاقة بين هشام وابن أخيه وولى عهده الوليد، كما ينبغى أن تكون العلاقة بين خليفة وولى عهده، أو بين عم وابن أخيه. . .

وفى مرحلة من المراحل بدا للخليفة هشام زحزحة ابن أخيه الوليد عن ولاية العهد، لصالح ابنه (مسلمة بن هشام) الذى كان مشهوراً بالعبث شهرة كبيرة، وكان (الوليد بن يزيد) عندما يرميه عمه الخليفة هشام بتهمة الفساد، يردّ عليه بأنه على (دين ابنه مسلمة) (أبى شاكر). . . وهذا وَرَدَ صريحًا حين عمد هشام للتشكيك فى دين الوليد. . فأرسل إليه ردًّا فيه بيت من الشعر:

يا أيها السائل عن ديننا * * * نحن على دين أبى شاكر

فكأنه يقول لعمه الخليفة هشام: قبل أن تتهمنى فى دينى انظر إلى ابنك مسلمة (أبى شاكر) الذى تريد وضعه مكانى وليًا للعهد، فهو أسوأ منى!!

وهذا يعكس ـ بطبيعة الحال ـ الروح العدائية التى سادت بين الخليفة هشام وولى عهده وابن أخيه الوليد بن يزيد!!



ويرى بعض المؤرخين أن هشامًا نفسه ـ فى المراحل الأولى من خلافته ـ كان يحاول تسهيل العبث للوليد وتقريب المفسدين منه، حتى يجد فرصة للطعن فيه، ومن ثم تنحيته عن ولاية العهد!!

وأيًا كان الأمر فخلال العشرين عامًا التى حكم فيها هشام كانت الحرب الباردة قائمة بين جبهتين غير متكافئتين: جبهة الخليفة هشام ـ بكل سلطانه ـ وجبهة ولى عهده وابن أخيه (الوليد الثانى) أو الوليد بن يزيد... الذى لا حول له ولا قوة... اللهم إلا قوة شخصيته، ومقاومته لكل تشويهات عمه وإغراءاته من أجل قبوله التنحى عن (ولاية العهد).

وفى إحدى المرات كتب الوليد إلى عمه أبياتًا من الشعر يتألم فيها من الحرب المعلنة عليه ويقول له فى بعضها:

رأيتك تَبْنى جاهداً فى قطيعتى *** فلو كنت ذا إرْبٍ لهدَّمت ما تبنى

تـُثير على الباقين مَجنَى ضغينة *** فويلٌ لهم إن مِتُّ من شرِّ ما تجنى!![1]

أما القلة التى كانت تقف مع (الوليد) وترى أنه صاحب حق، وأنه أجدر بالخلافة من مسلمة (أبى شاكر) وأن هذا الخلل من شأنه أن ينشئ صراعًا داميًا داخل البيت الأموى فى ظروف بالغة الخطورة، فرائحة الانقلاب العباسىّ بدأت تزكم الأنوف.... وأوضاع البيت الأموى شبه متردية... والشمال الإفريقى ثائر على الأمويين بتأثير استهتار (هشام) بهم... والخارجية أنشأوا ممالك مستقلة فيه، وخراسان كذلك بدأت تعرب عن سخطها.... ومع ذلك كله فهشام يشغل نفسه بحرب ابن أخيه وولىّ عهده لنقل الولاية لابنه العابث مسلمة...

شهود عدول وأدلة قوية:

ونحن هنا لن نستطرد فى ذكر تاريخ الوليد.... فهذا ليس موضوعنا، وإنما هدفنا تقديم أدلة براءته... على الأقل من دعوى (الإجماع) على سفهه...

---

(1) الطبرى: التاريخ أحداث سنة 125هـ.

و(الإجماع) على أنه يستحق الثورة عليه والقتل، و(الإجماع) على أن يزيد بن الوليد (الناقص) "أعدل بنى مروان"، فضلاً عن مقارنته بعمر بن عبد العزيز!!

ومن هنا سندخل ـ مباشرة ـ فى الحديث عن (الوليد) (المظلوم المقتول) وعن يزيد (الظالم القاتل)، من وجهة نظرنا.

أولاً:

من الطريف أن (مسلمة بن هشام) نفسه، وهو الذى يسعى والده هشام لجعله وليًا للعهد كان ضدَّ أبيه، وكان يكثر من مخاطبة أبيه فى الرفق بالوليد والكف عنه، وإيقاف حرب التشهير عليه... ولهذا فإن (الوليد) عندما جاءته الخلافة، وراح ينتقم من رجال هشام وأبنائه الذين كانوا يحاربونه معه استثنى (مسلمة بن هشام ـ أبا شاكر) وأمر ألا يعرض له أحد، ولا يدخل أحد من الجنود منزله؛ تقديرًا لما يعلمه من مواقفه معه أمام والده، وأنه ـ كما يقول الطبرى ـ "يكثر أن يكلم أباه فى الرفق به ويكفّه عنه"، مع أن مسلمة كان ـ كما هو معروف ـ صاحب المصلحة الأولى فى حرب والده هشام على الوليد..!!

ولعل هذه شهادة عدل من أقرب الأطراف مصلحة فى ظلم الوليد وتنحيته بعد التشهير به وتجريده من الصلاحية للخلافة.

ثانيًا:

أما الشاهد الثانى (العدل) ـ أيضًا ـ فهو مسلمة بن عبد الملك شقيق الخليفة الذى حاول جاهدًا أن يردع أخاه الخليفة هشامًا عن المضىّ فى مسيرة ذم الوليد بن يزيد وترويج الشائعات عنه، وقد ذكرت بعض المصادر أن هشامًا كان يعمد إلى تشويه الوليد بطريقة فجة مقززة، ومن ذلك ما يذكره بعضهم عن (مداومته على ذكر تهتك الوليد وإدمانه على الشراب، ويذكر ذلك فى مجلسه ويقوم ويقعد به!!) بطريقة لا تليق بخليفة!!



وقد كان شقيق الخليفة مسلمة بن عبد الملك يجدُّ فى صرف هشام عن هذا التشهير بالوليد، ويجتهد فى الحدّ من هذه الحروب الباردة القائمة بين الخليفة وولىّ عهده... لكنه لم ينجح فى ذلك... وإن كانت وقفاته ضد أخيه الخليفة قامت سدًّا يحول دون انفجار الأوضاع بينهما... ولهذا فعندما مات مسلمة (عم الوليد وشقيق الخليفة) وجد الوليد نفسه وحيداً أمام عمه هشام... وأصابه غمّ كبير، فلم يجد أمامه إلا أن يترك قصر الخلافة والعاصمة دمشق، وأن ينزل البادية فى ضاحية تسمى الأزرق بالأردن هو وبعض خاصته... فانتهزها هشام فرصة، وحرمه عطاءه هو وسائر مواليه وخاصته... واستدار ينكل بكل المقربين من الوليد، محتجًا بأن الوليد صحب معه مؤدبه عبد الصمد بن عبد الأعلى (وهو يشك فى دينه) وكتب إلى الوليد بذلك، فأبعد الوليد (عبد الصمد) لكن هشامًا لم يُعد إليه عطاءه وبقى على حربه للوليد.

ثالثا:

أما الدليل الثالث أو (الشاهد الثالث) فهو رجل ثقة عند المؤرخين، ومن أكثر بنى مروان عقلاً وشجاعة وصراحة، وهو (مروان بن محمد) الذى كان عاملاً لهشام على أرمينية وما يليها، ومع ذلك فلم يكن راضيًا عن أسلوب هشام فى معاملة الوليد.... ولهذا أرسل إلى الوليد ـ فور علمه بتوليه الخلافة ـ رسالة تؤكد إدراكه للظلم والافتراء الذى وقع عليه من هشام.... ويقول له فيها: "باركُ الله لأمير المؤمنين فيما أصاره إليه من ولاية عباده، ووراثة بلاده، وكان من تفشّى غمرة سكرة الولاية ما حمل هشامًا على ما حاول من تصغير ما عظّم الله من حق أمير المؤمنين، ورام من الأمر المستصعب عليه، الذى أجابه إليه المدخولون فى آرائهم وأديانهم، فوجدوا ما طمع فيه مستصعبًا، وزاحمته الأقدار بأشدّ مناكبها، وكان أمير المؤمنين بمكان من الله حاطه فيه حتى أزّره بأكرم مناطق الخلافة، فقام بما أراه الله له أهلاً"[1].

(1) الطبرى 7/ 216.

فالحمد لـله الذى اختار أمير المؤمنين لخلافـته، ووثائق عُرَى دينه، وذبّ له عما كاده فيه الظالمون، فرفعه ووضـعهم، فمن أقام على تلك الخسيسة من الأمور أوْبق نفسه، وأسـخط ربه، ومن عدلتْ به التوبة نازعًا عن الـباطل إلى حق وجد الله توابًا رحيمًا"[1].

وقد يقال: إن هذا محض نفـاق، لكن شخصية مروان بن محـمد أكبر من ذلك، ويؤكـد هذا أنه وقف وقفـة صدق مع (الولـيـد) عندمـا تآمر عليـه يزيد بن الوليد، وبعـد مقتلـه أعلن الثورة انتقـامًا له وأخذًا بالثـأر من قاتليـه، فرجلٌ هذا سلوكه رجل صدق وولاء للبيت الأموى كله ـ أولاً ـ وللوليد ثانيًا ـ كما أنه ثالثًا ـ هو الذى نصح الوليد بزيادة الأعطيات للناس بعد أن شحَّ عـليهم هشام، فلما جاء يزيد أنقص الأعطيات فسماه مروان (بالناقص)!!

رابعًا:

ومع التـجنى الذى احـتشـد به ابن كـثيـر فى (البـداية والنهـاية) وهو من المتأخرين، وقد اعتمد على مراجع ثانوية، فإنه يعترف بحقيقة وردت عند (الطبرى وغيره) وهى من الحـقائق المعروفة... فبـعد أن يورد رسالة مروان بالبيـعة للوليد ونصيحته له بزيادة الأعطيات إنقاذًا للناس مما أصابهم من بخل هشام....

واستجابة الوليـد له... يقول ابن كثير: "لقد سـار الوليد فى الناس سيرة حسنة بادئ الـرأى وأمر بإعطاء الزمنى والمجـذومين والعمـيان لكل إنسـان خادم، وأخرج من بيت المال الطيب والتحف (التى كان يختـزنها هشام) لعيالات المسلمين وزاد فى أعطيات الناس، ولا سيما أهل الشام والوفـود، وكان كريمًا ممدحًا شاعرًا مجيدًا، لا يسأل شيئًا قط فيقول لا"[2].

---

(1) السابق 7/ 217.

(2) البداية والنهاية لابن كثير 4/ 9.

ويزيد ابن جرير الطبرى وهو يتحدث فى سيرة الوليد فيقول: وكان وهو ولىّ عهد - مع ظروفه المعروفة - يُطعم مَنْ وفد إليه من أهل الصائفة قافلاً، ويُطعم من صدر عن الحج بمنزل يقال له زيزاء ثلاثة أيام، ويعلف دوابهم، ولم يقل فى شىء يُسأله: لا، فقيل له فى ذلك فقال: [لا أعوِّد لسانى شيئًا لم أعتده]!! فهل هذا أسلوب عابث ماجن؟!!

خامسًا:

من المساجلات المتبادلة بين هشام والوليد نستطيع أن نقول مطمئنين:

إن رسائل الوليد - فى هذا الوقت الذى كان يتهم فيه بأبشع التهم - دالة على إيمان وخلق يصعب معهما تصديق ما روج عنه... فعندما قطع هشام عطاء الوليد كتب إليه الوليد يقول: "لقد بلغنى الذى أحدث أمير المؤمنين من قطع ما قطع عنّى، ومحو ما محا من أصحابى وحُرمى وأهلى، ولم أكن أخاف أن يبتلى الله أمير المؤمنين بذلك ولا أبالى به منه (...) فإن يكن ذلك لشىء فى نفس أمير المؤمنين (علىَّ)، فقد سبَّب الله لى من العهد، وكتب لى من العمر، وقسم لى من الرزق ما لا يقدر أحد دون الله على قطع شىء منه دون مدّته، ولو صرف شىء عن مواقعه، فَقَدَرُ الله يجرى بمقاديره فيما أحبَّ الناس أو كرهوا، ولا تأخير لعاجله ولا تعجيل لآجله، فالناس بين ذلك يقترفون الآثام على نفوسهم من الله، ولا يستوجبون العقوبة عليه، وأمير المؤمنين أحق أمته بالبصر بذلك والحفظ له، والله الموفق لأمير المؤمنين بحسن القضاء له فى الأمور"(1)، (فهل هذا أسلوب عابث ماجن؟!!).

سادسًا:

ولم يكن أمر زيادة الأعطيات أو رعاية الزمنى والعميان مجرد استجابة لرسالة مروان ابن محمد (القائد المحنك المجرّب) - بل كان هذا الأمر جزءًا من

(1) الطبرى 7/ 212، 213، ط4 دار المعارف بمصر.

سياسة عـامة تدل على حنكة الوليد وفهمه للأوضاع العـامة التى ورثها عن هشام والتى أوجبت أمرين ـ كما يقول رياض عيسى ـ[1]:

أولهما: أن الوليد أراد أن يتألف الناس جميـعًا وأهل الشام بخاصة فزاد فى أعطياتهم فى محاولة واضحة منه لاستـمالة أهل الشام بخاصة لأنهم عضد الدولة وعمادها، كـما أنه قد يكون هناك تذمّر بين أهل الشـام أراد الوليد أن يحول دون استفحاله، وأن يؤكد للشوام أنهم ما يزالون السند الأمامى للبيت الأموى.

وثانيهما: أنه أراد أن يتألف أفراد البيت الأمـوى، وأن يحاول محو الصورة البشعـة التى رسمها له عمـه هشام فى أذهان الناس عمومًـا، وفى أذهان أهل بيته خاصة، وهذه المحـافظة على تألف أهل بيته هى الأولى من نوعـها، إذْ لم نسمع من قبل عن أى خليفة أموى فعل ما فعله الوليد بالنسبة لأهل بيته، شعورًا منه بأن المرحلة التى تمرّ بها الدولة الأموية عمومًا تقـتضى تكاتف أفراد هذا البيت فى فترة كانت فيها أخبار الدعوة الناشطة التى يقوم بها آل البيت (والعباسيون) تملأ الأسماع بينما البيت الأموى فى صراعات تهدد وجوده!!

ويتساءل رياض عيسى ـ ونحن معه ـ:

ـ فى ضوء هذه السـياسة ـ ودلالتها ـ ألا يمـكننا أن ننطلق إلى الدعوة على الأقل لإعادة النظر فى المكتوب والمتعارف من سيرة الوليد بن يزيد الذى تصوره لنا المصادر بأنه لم يُتْقن سوى شرب الخمر واللهو والمجون؛ إذ إننا نرى فى أفعاله هذه مؤشرات واضحـة على تفهمه لأوضاع الدولة، ومحاولتـه لتدارك ما يمكن تداركه من انهيار محتمل؟!!

---

(1) النزاع بين أفراد البـيت الأموى ودوره فى سقوط الخـلافة الأموية، ص 138، 139، ط1 دار حسَّان للنشر ,1985

سابعًا:

يفيدنا ابن الأثير فى الكامل (وهو أوثق من ابن كثير وأقدم منه) ما يؤكد أن كثيرين كانوا يتعاطفون مع الوليد، ويعرفون أنه مظلوم حتى من خصوم الأمويين الألداء (العباسيين)، فقد روى شبيب بن شيبة رأى المهدى ومن معه فى الوليد فقال: كنا جلوسًا عند المهدى ـ الخليفة العباسى ـ فذكروا الوليد فقال المهدى: كان زنديقًا، فقام أبو علاثة الفقيه: فقال: يا أمير المؤمنين إن الله عزّ وجل أعدل من أن يولى خلافة النبوة وأمر الأمة زنديقًا، لقد أخبرنى من كان يشهده... بمروءة فى طهارته وصلاته... فقال المهدى: بارك الله عليك يا أبا علاثة)...

ويروى ابن الأثير: أن الوليد كان ينهى الناس عن الغناء؛ لأنه يزيد فى الشهوة ويهدم المروءة، ويقول بعد ذلك: "وقد نزَّه قوم الوليد مما قيل فيه وأنكروه ونفوه عنه، وقالوا: إنه قيل عنه وألصق به وليس بصحيح، قال المدائنى: دخل ابنٌ للغمر بن يزيد أخى الوليد على الرشيد، فقال له: ممّن أنت؟ قال: من قريش، قال: من أيّها؟ فأمسك، فقال: قل وأنت آمن ولو أنك مروان، فقال: أنا ابن الغمر بن يزيد (شقيق الوليد) فقال الرشيد: رحم اللهُ عمَّكَ الوليد ولَعَنَ يزيد الناقص، فإنه قَتَل خليفةً مجمعًا عليه! ارفع حوائجك فرفعها فقضاها".

ثامنًا:

يلفت نظرنا عدد من المؤرخين المعاصرين الكبار إلى الطابع الأسطورى (اللاعقلانى) الذى يفضح ـ فى حد ذاته ـ التهم الموجهة إلى الوليد.... فأستاذنا الدكتور حسين مؤنس يعلق على هذه التهم[1] بقوله: (إننا بالنسبة لهذه الأخبار أو التهم الأسطورية، يجب أن نفتح عيوننا عندما نقرؤها؛ لأن المسألة هنا ليست مسألة الخطأ أو الكذب فى الخبر؛ بل إن هذه الأخبار تضر بعقولنا؛ لأننا تعودنا

(1) تنقية أصول التاريخ الإسلامى، ص92، 93.



قراءة الأخبار والحكايات الكاذبة الفارغة وقبولها، مما يؤدى بعقولنا فى النهاية إلى الهيافة والهشاشة، ويعطى القارئ فكرة سيئة عن الإسلام والمسلمين.

ومن المستحيل علينا أن نقبل (أمثال هذه الأخبار الجزافية الواردة عن الوليد)؛ لأن الأمر ليس إساءة إلى الوليد بن يزيد فحسب؛ بل إهانة لعقولنا أيضًا، ومهما كانت كراهية الواحد منّا لبنى أمية، فإن الأمر ينبغى ألا يصل بنا إلى احتقار عقولنا وإهانة أنفسنا).

ويشير الدكتور (نبيه عاقل) إلى أنّ ما يقال عن الوليد مثال على الظلم الصارخ الذى أوقعه المؤرخون الذين كتبوا فى ظل العباسيين بالأسرة الأموية وبرجالاتها، ويجدر بنا أن ننبه إلى أن ما نجده فى المصادر عن خلاعة ومجون وفسق الوليد الثانى أمر مبالغ فيه إلى أبعد الحدود.

ونحن نستطيع القول: إن المؤرخين الذين كتبوا فى ظل العباسيين وجدوا فى شخص الوليد نواحى ضعف، ومواضع للنقد، فما كان منهم إلا أن ضخموها وزادوا فيها تقربًا من الأسرة العباسية الحاكمة، أو بغضًا فى الأسرة الأموية قاتلة الحسين وعدوّة الشيعة اللدودة[1].

ـ كما يلفت نظرنا الدكتور (عاقل) إلى أن فى الأخبار والروايات الواردة عن الوليد مبالغات لا يمكن أن تصدق، كما أن فى بعض الإشارات الأخرى فى نفس هذه المصادر ما يدحضها ويجعلنا نَشمُّ مقدار المبالغة فيها، وأغلب الظن أن هذه الروايات المبالغ فيها إلى الحدّ الذى وصفنا ما هى إلا حصيلة حقد عباسىّ على شخصية أموية وُجد فيها مجال للطعن فضُخِّم وهوِّل واستُغل إلى حد يتجاوز كل ما هو معقول.

(1) الدكتور / نبيه عاقل.. دراسات فى تاريخ العصر الأموى، مطبعة جامعة دمشق، ص: 285.



أما أستاذنا الدكتور (احمد شلبى) فيردّ على هذه التهم التى يرى المبالغة ظاهرة فيها بدليل ملموس... فيقول: "فى اعتقادى أنه لو صحّ عن الوليد ما أشيع عنه من انحراف ومعاصٍ لكانت هذه فرصة تحقق لهشام مآربه؛ ولذلك أرى أن الوليد لم يكن من الفسق بالدرجة التى تروى عنه، ولو كان كذلك لما شهدناه خليفة مع أن هشامًا كان يتربص به.

- واعتقادى أن قتل الوليد كان فرصة لواضعى الروايات من أعداء بنى أمية فخلفوا من ذلك الشيء الكثير، وابتدعوا صوراً جديدة تنسب للوليد ألوانًا من الفسق، كما وضعوا باسمه الأشعار التى تصوره زنديقًا محتقراً للقرآن الكريم مهاجمًا تعاليم الإسلام، والذى يجعلنى أرى فيها بعض المبالغات أن مقاومة الوليد كانت كبيرة، وأن أتباعه عند اصطدامه بجيوش يزيد بن الوليد كانوا كثيرين، وأن مروان بن محمد زحف لمساعدته بجند لو أسرع قليلاً لحقق له النصر، وأن الثورات التى طالبت بالثأر له لم تهدأ حتى انتصر أتباعه بقيادة مروان بن محمد، وأخرجت جثة قاتله يزيد بن الوليد وصلب، ورجل فيه ذلك الفسق الذى يصورونه لا يُعقل أن ينال كل هذا التأييد[1].

تاسعًا:

ومن الأدلة أيضًا وقوف عقلاء بنى مروان مع الوليد ضد يزيد، وتروى المصادر التاريخية أن اليمانية الذين وقف الوليد ضدّهم هم الذين بدأوا الفتنة، وجاءوا إلى يزيد وأغروه بإعلان نفسه خليفة عوضًا عن الوليد، ووعدوه بالثورة على الوليد معه، ويروى الطبرى أن يزيد لما أغرته اليمانية بذلك شاور أخاه الأكبر سيد بنى مروان (العباس بن الوليد) فى ذلك.. فأتى يزيد إلى أخيه العباس وحدّثه فى الأمر فزجره أخوه ونصحه بعدم الإقدام على مثل هذا العمل، ولكن يزيد لم يقنع بنصيحة أخيه وأخذ يتصل بالناس سرًّا، ويأخذ البيعة لنفسه، فلما بلغ الخبر

(1) د/ أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى عصر الدولة الأموية، ص 89.

أخـاه العـباس زجـر أخـاه بشـدة وقال له: (إن عُـدت لمثل هذا لأشـدنك وثاقـًا ولأحملنك إلى أميـر المؤمنين)، وطلب العباس إلى أحد المقـربين من أخيه يزيد، (وهو مولاه فطن) أن يردّه عن فعلته، وأن يبصره بعـواقبها، وكذلك اتخذ (مروان ابن محـمد) موقفـًا مماثلاً لموقف العبـاس بن الوليد حين بلغـه أن يزيد بن الوليد يؤلب الناس على الوليد بن يزيد ويدعـو إلى خلعه، وكتب من موقعـه فى أرمينية إلى سعـيد بن عبـد الملك بن مروان يأمـره أن ينهى الناس عن هذا الأمر ويبـصره بالأخطار التى قد تنجم عن استمرار يزيد بن الوليد فى الدعوة لنفسه[1].

ـ وقد حـمل سعيد بن عـبد الملك رسالة مـروان بن محمد إلى العـباس بن الوليد وأطلعه عليها، فما كان من العباس إلا أن دعا أخاه يزيداً وتوعده وهدده إن هو استمر فى فعلته، فأنكر يزيد أنه يقـوم بأى مسعى لأن يئول الأمر إليه، وعندما علم (العباس بن الوليـد) بغدر أخيه يزيد وبهجومه مع اليـمنيين والساخطين على الوليد من أبناء هشام والوليـد بن عبد الملك ـ أسرع العبـاس لنصرة الوليد، ولكن جنود يزيد عندما رأوه خدعوا الناس وقالـوا هذه راية العباس بن الوليد، وقد بايع لأمير المؤمنين يزيد بن الوليد، فكان جواب العباس على ذلك قولته المشهورة: (إنا لله. . . خدعة من خدع الشيطان ـ هَلَكَ بنو مروان).

ـ وهكذا كـذب يزيد على أخـيه العـبـاس وعلى سعـيـد بن عبـد الملك، وخدعهما، واستمر فى طريقه المشئوم، وكل هذا يدل على أن الوليد لم يكن أهلاً للثورة عليه، وأنه لم يكن عابثًا ماجنًا، كما يدلّ على فساد أخلاق يزيد!!

عاشراً:

يروى جمهرة المؤرخين وعلى رأسهم الـطبرى، وابن الأثير، وابن كثير ـ أنه لما أحاط أتباع يزيد بن الوليـد بالوليد بن يزيد فى قصره وحصـروه قبل أن يقتلوه، قال لهم الوليـد: أما فيكم رجل شريف له حـسب وحياء فقال له يزيد بـن عنبسة

(1) الطبرى 7/ 143.

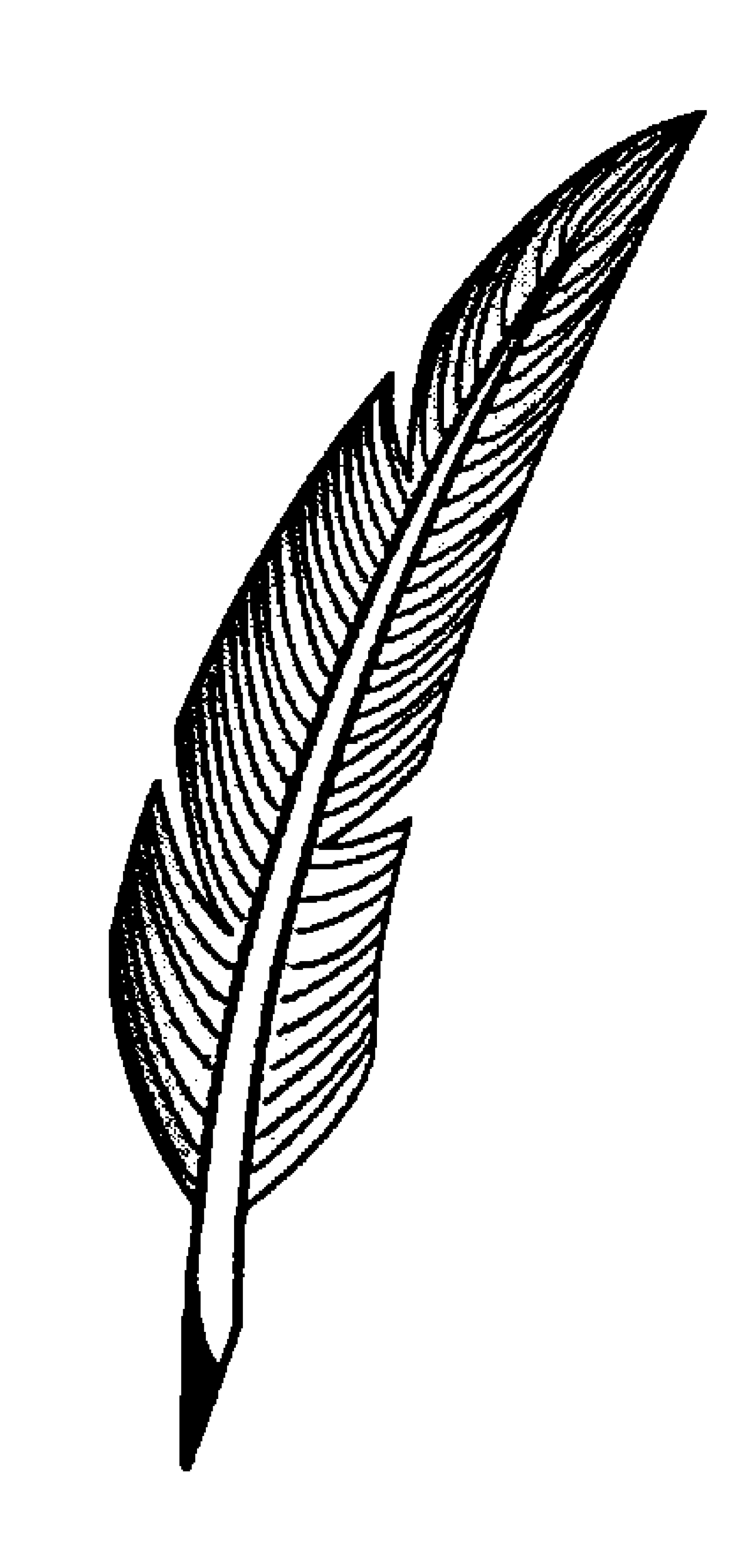
السكسكي: كلِّمني، قال له: من أنت؟ قال: أنا يزيد بن عنبسة، قال: يا أخا السكاسك، ألم أزد في أعطياتكم؟ ألم أرفع المؤن عنكم؟ ألم أعط فقراءكم؟ ألم أخدم زمناكم؟ فقال: ما ننقم عليك في أنفسنا، ولكن ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله، فقال: حسبك يا أخا السكاسك فلعمري... لقد أكثرت وأغرقت، وإن فيما أحل لي لسعة فيما ذكرت.

- ورجع الوليد إلى الدار فجلس وأخذ مصحفًا، وقال: يوم كيوم عثمان، ونشر المصحف يقرأ، ثم قتلوه، وكان آخر كلامه قبل أن يقتل: (أما والله لئن قتلتموني لا يرتق فتقكم، ولا يلم شعثكم، ولا تجتمع كلمتكم).

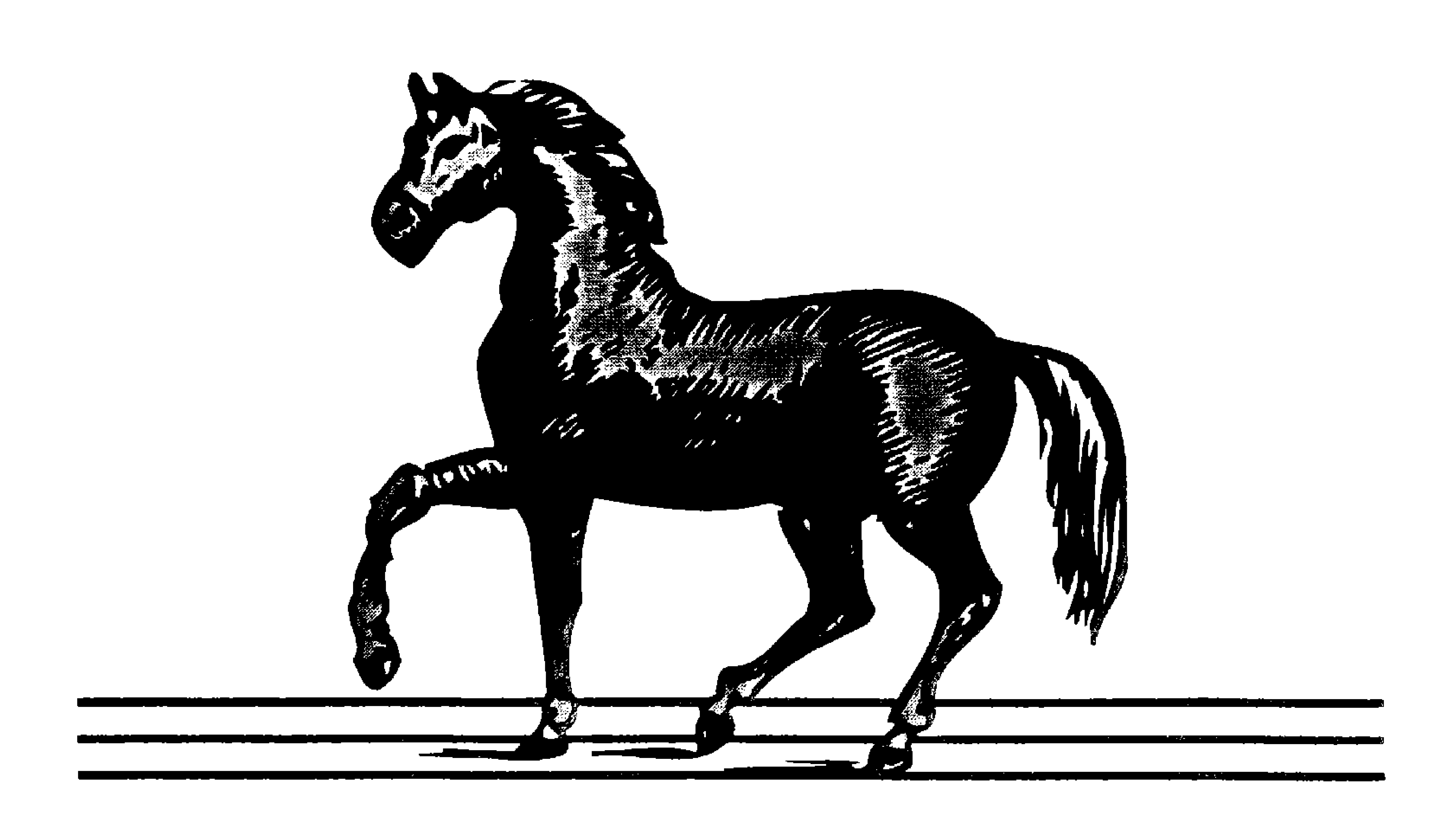
ويعلق صديقنا الدكتور/ عبد الشافي عبد اللطيف[1]: على هذا الموقف الإيماني الرائع الذي ليس من حقّنا أن نكذب صاحبه وهو يستقبل الآخرة بقوله: إن الذي يرى فيما أحل الله له سعة عن اقتراف المحرمات، وينزع إلى المصحف عندما أحيط به، وأيقن أنهم قاتلوه، لا يمكن أن يكون ماجنًا، يقترف ما رموه به، ويهين المصحف ويمزقه، كما تذهب بعض الروايات (الأسطورية التي ذهبت إلى أكثر من ذلك) إن هذا لو حدث من حاكم مسلم في عصرنا هذا لرماه الناس بالحجارة، فكيف بالوليد وهو خليفة المسلمين في عصر قريب إلى حد ما من عصر النبوة والخلافة الراشدة، وملئ بالعلماء والصالحين من التابعين؟!!

* * *

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 199.



يزيد بن الوليد



من الظلم ـ كل الظلم ـ أن نضع يزيد بن الوليد فى كفة واحدة مع عمر بن عبد العزيز. . . فالخليفة الراشدىّ الخامس جاء إلى الحكم على غير هوى منه، وكان أزهد الناس فيه، ويزيد جاء إلى الحكم بمؤامرة كبيرة استثمرت ظروف الوليد النكداء مع عمه هشام. . . ولم يصل يزيد إلى الحكم إلا بعد قتال مرير وقتل للخليفة الأموى القائم. . .

ـ وسوف نذكر من أساليب (يزيد) (الميكافيلية) القائمة على الكذب والخداع وتصنّع النسك والعبادة ما يبيّن الفرق الشاسع بينه وبين عمر بن عبد العزيز (علمًا بأننا لا نقصد المقارنة بينهما فهى لا يسمح بها أصلاً؛ لأن المسافة بينهما شاسعة) وإنما لنبيِّن عدم مصداقيته فى تلك الخطبة العصماء التى أوردها خليفة بن خياط ـ بعيد قتله الوليد ـ لندلّ على أنها خطبة (سياسيّة) لتبرير جريمته، واستحلال دم خليفة بالشبهات والظنون، ومتاجرته ـ بل اختلاقه ـ الشبهات، وترويجه لها عن الوليد. . . فهى خطبة عصماء ككل الخطب العصماء التى نسمعها من بعض حكام العرب والمسلمين فى المولد النبوى وفى ليلة القدر، والتى تكاد تقنعنا بأنهم (أمراء فى الإيمان) بينما هم (مندوبو الشيطان) فى الأرض ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة]. . . فليس (بالخطب العصماء) يُقوَّم الناس، ولا تدرس مسيرة التاريخ، وإنما بالوقائع العملية والأساليب الإسلامية المعتمدة. . .

* * *

ومع كل هذا. . . نقدم بعض الأدلة والقرائن حول (يزيد). . . إضافة إلى ما قدمناه ـ ونحن نتحدث عن (الوليد) ـ لتكتمل أطياف هذه الصفحة المضطربة من تاريخنا.

أولاً:

يذكر الطبرى ـ وغيره ـ أن يزيد بن الوليد كان (قَدَريًّا)... ويروى ابن كثير أن يزيد الناقص دعا الناس إلى القـدر وحملهم عليه وقرب أصحـاب غيلان الذى كان هشام قد قتله، وكان أخوه (إبراهيم) قدريًّا كذلك، وضدّ هؤلاء القدرية وقف الخليفة هشام، ولما جاء الوليد كلمه بعضهم بشأنهم فأبى تركهم، وقال لهم: (إنها من حـسنات هشـام) وأبى التـفاهم مـع هؤلاء القدرية الـذين منهم (يزيد).... وبتأثيرهم استخلف يزيد أخاه إبراهيم (القدرى) وكانوا فى ذلك ذوى نفوذ سياسى وفكرى كبير!![1].

ثانيًا:

وكان يزيد يفتخر بنسبه الفارسىّ من جهة أمه، وهى أم ولد اسمها شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرى، وهو القائل:

أنا ابن كسرى وأبى مروان * وقيصر جدّى وجدّى خاقان**

فهل يقارن هذا القَـدَرىّ، المتباهى بكسرى وقيصر بعمر بن عبد العزيز؟[2].

ثالثًا:

لم تظهر عنصـرية يزيد فى تباهيه بنسبـه من جهة أمه ـ فـحسب ـ بل زادها وضوحًـا حرصه على الـوقوف موقف العـداء الثابت من القـيسيـة... يبرز هذا الموقفَ ذلك الحوارُ الذى جرى بينه وبين يزيد بن حجرة الغسانى.

وكان رجل دين وفضل وذا مكانـة وقدر عند الشاميين... فـقد عَاتب يزيد ابن حجرة الخليـفة يزيد بن الوليد قائلاً: مالى لا أرى أحدًا من قـيس يغشاك ولا

---

(1) الطبرى 7/ 166 حوادث سنة 126هـ.

(2) الطبرى 7/ 298، حوادث سنة 126هـ.



يقف ببابك؟ فأجابه يزيد: لولا أنه ليس من شأنى سفك الدماء لعاجلت قيسًا.. فوالله ما عزّت إلا بذلّ الإسلام[1]؟!!

رابعًا:

وعلى العكس من ذلك كان تدليله لليمنيين ومحاباته لهم وإغداقه عليهم لمساعدته فى الوصول إلى الخلافة - سببًا من أسباب نضوب بيت المال، مما اضطره إلى إنقاص أعطيات الجند، كما أن القبائل المضرية نفرت منه، وبدأت تتخذ مواقف ثورية إيجابية ضدّه نتيجة موالاته الظالمة لليمنيين وتجاهله للمضريين... وهكذا ولدت الخطيئة خطيئة، واضطربت عليه منذ ولايته الأمور!!

خامسًا:

بدأت أساليبه فى التظاهر بالورع والزهد تتكشف - لمجموع الناس - واحدة تلو الأخرى.. فها هو يستعمل وسائل انتهازية وتجارية فى جذب الناس إليه، وفى الوصول إلى أهدافه... ومن الطريف أنه تنكّر ذات ليلة فى البادية وركب حماراً - مستعملاً الأساليب السريّة الانقلابية - وهو يسعى فى بيعة الناس له، فبايعه أكثر أهل دمشق سرًّا (!!) وبايعه أهل المزّة غير معاوية بن مصاد الكلبى (وهو سيد أهل المزّة) فمضى يزيد من ليلته إلى منزل معاوية بن مصاد ماشيًا فى قليل من أصحابه، فأصابهم مطر شديد، فأتوا منزل معاوية بن مصاد، فضربوا بابه، ففتح لهم، فدخلوا... فقال ليزيد: الفراش أصلحك الله.. قال يزيد: إنّ فى رجلى طينًا وأكره أن أُفسد بساطك، فقال: الذى تريدنا عليه أفسد... فكلمه يزيد فبايعه، ورجع يزيد إلى دمشق وهو على حمار أسود، فنزل دار ثابت بن سليمان بن سعد الخُشَنِى[2]، ثم استمر يزيد فى تآمره مع رجاله بهذه الطريقة ليله ونهاره.

(1) الطبرى 7/ 271، وانظر: رياض عيسى: المرجع السابق، ص 155.

(2) الطبرى 7 / 240.



سادساً:

كان الناس يخرجون معه لقتال الوليد على جعل يجعله لهم؛ بل كان أحيانًا يضطر إلى الزيادة فى هذا الجعل عندما لا يستجيب الناس له، فليس فى الأمر (ثورة شعبية لم تأخذ حقها)، وإنما هى مؤامرة تركت أسوأ الآثار بكل المقاييس، وقد ذكر رياض عيسى ـ بأسلوب صريح ـ اعتماد يزيد على (الرشوة) فى جلب الناس، فبعد ما سيطر يزيد على دمشق دعا الناس إلى التطوع فلم يتقدم منهم الكثير فاضطر لأن يرشوهم بالمال، وأعلن أن من سار فله ألفان فاجتمع ألف رجل أعطى كلاً منهم ألفين[1].

وقد حدَّث عمر بن مروان الكلبى أن ابن الشماخ الكلبى حدثه أن يزيد بن الوليد كان له مناد يُنادى فى الناس بأمره: من ينتدب إلى الفاسق (يعنى لقتال الوليد) وله ألف درهم؟ فاجتمع إليه أقلّ من ألف رجل، فأمر رجلاً فنادى: من ينتدب إلى الفاسق وله ألف وخمسمائة[2]!!

سابعًا:

وقد أضاف يزيد إلى أسلوبه الانتهازى جريمة أخرى، فقد عمد إلى رصد مكافأة خاصة مقدارها مائة ألف لمن يأتيه برأس الوليد، وهذا ـ ضمنًا ـ يعنى فتح الباب للتمثيل بالوليد وقطع أعضائه. . .

وقد تبارى المرتزقة عبيد المال لإثبات أنهم الذين قتلوا الوليد. . . لقد احتزّ أبو علاقة القضاعى رأس الوليد فأخذ عقبًا (وهو العصب الذى تعمل منه الأوتار) وخاط الضربة التى فى وجه الوليد وقدم بالرأس على يزيد[3]، ومن جانب آخر

(1) رياض عيسى: السابق، 149.

(2) الطبرى7/ 243، حوادث سنة 126هـ.

(3) الطبرى 7/ 246.



أقبل أحد أبناء خالد بن عبد الله القسرى فسلخ من جلد الوليد قَدْر الكف... وقُطعت كفّ الوليد اليسرى (!!) فبعث بها إلى يزيد، فسبقت الرأس ليلة الجمعة، ثم أتى بها وحملها إليه عشرة فأعطى كل واحد منهم عشرة آلاف، ثم أمر فنصب الرأس للناس بعد صلاة الجمعة... وأمر يزيد بن الوليد بعد ذلك بنصب الرأس(!!) فقال له يزيد بن فورة مولى بنى مروان: إنما تُنصب رءوس الخوارج، وهذا ابن عمك، وخليفة، ولا آمن إن نصبْتَه أن ترق له قلوب الناس، ويغضب له أهل بيته... فقال يزيد: والله لأنَصبنَّه، فنصبه على رمح، ثم قال له: انطلق به، فطفْ به فى مدينة دمشق، وأدخلْه دار أبيه، ففعل، فصاح الناس وأهل الدار[1]... فهل هذه هى أخلاق الإسلام.. ومع من؟ مع الرحم... ومع خليفة... وبهذا الأسلوب من التشفّى والتمثيل والحقد... وأين هذا من عمر بن عبد العزيز عليه رضوان الله؟!!

ثامنًا:

لم تكن الخطبة العصماء التى ألقاها يزيد إلاّ تهدئةً لخواطر الناس - وكانت أقرب ما تكون للشعارات الثورية - لامتصاص الغضب وتهدئة النفوس، وخداعهم بوعود معسولة... وقد أحسن صديقنا الدكتور عبد الشافى عبد اللطيف[2]، عندما علق على هذه الخطبة بقوله: بهذه الخطبة الطويلة التى خصص يزيد جزءاً منها للنيل من ابن عمه وتجريحه والطعن عليه واتهامه بالكفر - ليبرر قتله - والباقى لشرح سياسته وكأنه أبو بكر الصديق، أو عمر بن الخطاب؛ حيث أراد أن يظهر بمظهر الزاهد فى الحكم، وأنه ما خرج إلاّ غضبًا لله ولرسوله ولدينه، بهذه الخطبة استهل يزيد بن الوليد عهده القصير، ونسى أو غفل أن الناس والوقت والوضع العام فى الدولة قد تغيّر عما كان عليه فى عهد أبى بكر وعمر، أو حتى فى عهد جدّه عبد الملك بن مروان.

---

(1) الطبرى 7/ 250، 251

(2) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص: 204 وما بعدها.

والحقيقة أنه بفعلته تلك جرَّ على دولة بنى أمية كوارث كانوا فى غنى عنها، وشغلهم بصراع مرير فيما بينهم أضعف كيانهم وأنهك قواهم، فى وقت نشط فيه الدعاة العباسيون وضاعفوا جهودهم للقضاء على الدولة كلها.

تاسعًا:

وكما هو المتوقع فى مسيرة كل الانقلابات الهائجة القائمة على القتل والتآمر، لا يلد الدم فيها إلا دمًا، ولا تثمر الفتنة إلا فتنة... فبدأ البيت الأموى - أولاً- ينفجر من داخله شأن كل الانقلابات، فاضطرب حبل بنى مروان وهاجت الفتنة - كما يقول الطبرى - فبعضهم سُرَّ لمقتل الوليد مثل أولاد هشام، وآخرون ساءهم قتله... وقام أهل حمص بالثورة ثأرًا لدم الوليد، وأغلقوا أبواب مدينتهم، وأقاموا النوائح والبواكى على الوليد، ولما علموا أن العباس بن الوليد (شقيق يزيد) لم يكن مخلصًا فى نصرة الوليد الثانى وثبوا على داره فهدموها، وانتهبوا وسلبوا حرمه وأخذوا بنيه فحبسوهم، وطلبوه فما كان من العباس بن الوليد إلا أن هرب والتحق بيزيد الثالث، وقام أهل حمص بمكاتبة غيرهم ودعوهم إلى المطالبة بدم الوليد، كما كتبوا بينهم كتابًا ألا يدخلوا فى طاعة يزيد، وأن يبايعوا لواحد من أبناء الوليد إن كان له ولد حى، وأبلغوا ما اتفقوا عليه إلى واليهم الأموى مروان بن عبد الله بن عبد الملك، فوافقهم على ما اتفقوا عليه.

وطردوا رسول يزيد إليهم شر طردة، وخرجوا يريدون دمشق، فلما حاول واليهم مروان بن عبد الله أن يثنيهم عن عزمهم قتلوه وقتلوا ابنه معه، وولوا عليهم أبا محمد السفيانى، وتابعوا طريقهم باتجاه دمشق، وجرت بين أهل حمص الثائرين المطالبين بدم الوليد الثانى وبين جند يزيد الثالث معارك ضارية(1).

أما فى فلسطين، فقد دعا يزيد بن سليمان بن عبد الملك أهل فلسطين لقتال يزيد الثالث، وانضم إليهم فى ثورتهم على الخليفة الجديد أهل الأردن الذين كان يلى أمرهم محمد بن عبد الملك.

---

(1) رياض عيسى، السابق، ص 156، 157.



وهكذا فقد زاد مقتل الوليد الثانى فى اشتعال الفتنة بين أفراد البيت الأموى، ولم يكن يزيد الثالث الشخصية الأموية التى ينعقد حولها إجماع أهل البيت[1].

وعندما توفى يزيد بالطاعون بعد ستة شهور من ولايته (جمادى الآخرة ـ ذو الحجة سنة 126هـ) كانت بلاد الشام ـ وهى حصن الأمويين ـ تشتعل ناراً، كما كان أبناء الأسرة الأموية منقسمين على أنفسهم، منشغلين بصراعاتهم عن الأخطار القاتلة المحدقة بهم... فكانت حركة يزيد الانقلابية من أبرز العوامل التى أدت إلى سقوط خلافة بنى أمية!!

* * *

ـ وليس عجيبًا أن تكون آخر الكلمات التى نطق بها يزيد الناقص وهو على فراش الموت:

واحزناه..... واشقاءاه؟!!

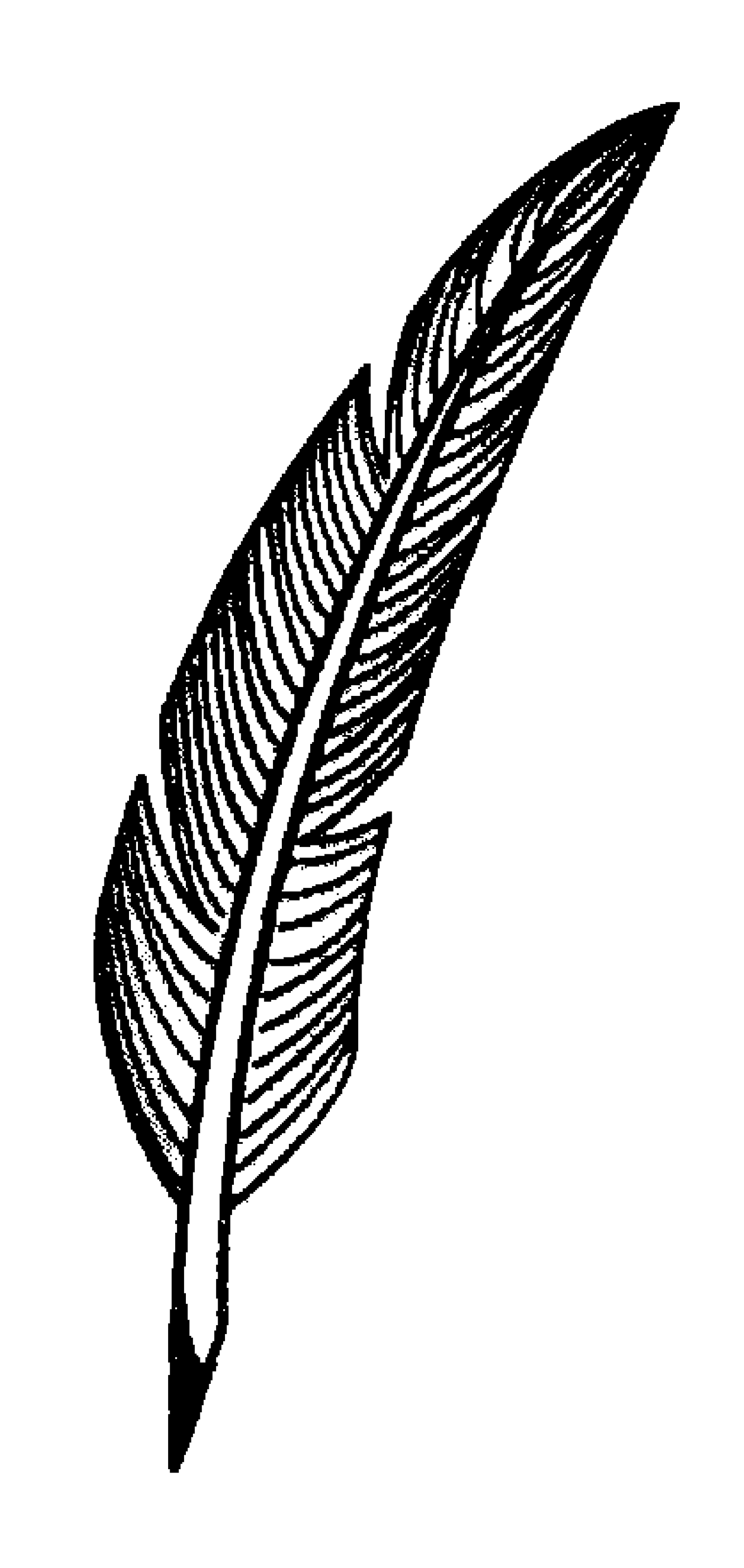
ـ لقد نجح يزيد مثل كل الانقلابيين فى هدم كل شىء؛ لكنه لم ينجح فى بناء أىّ شىء... لأن ما قام على حقد وباطل لابد أن ينتهى إلى حقد أعمق وباطل أكثر!!

ـ ويشاء عدل الله أن يحكم مروان بن محمد، وأن يُخرج جثة يزيد من قبره ليفعل بها مثل الذى فعله يزيد بجثة ابن عمه الوليد!!!

* * *

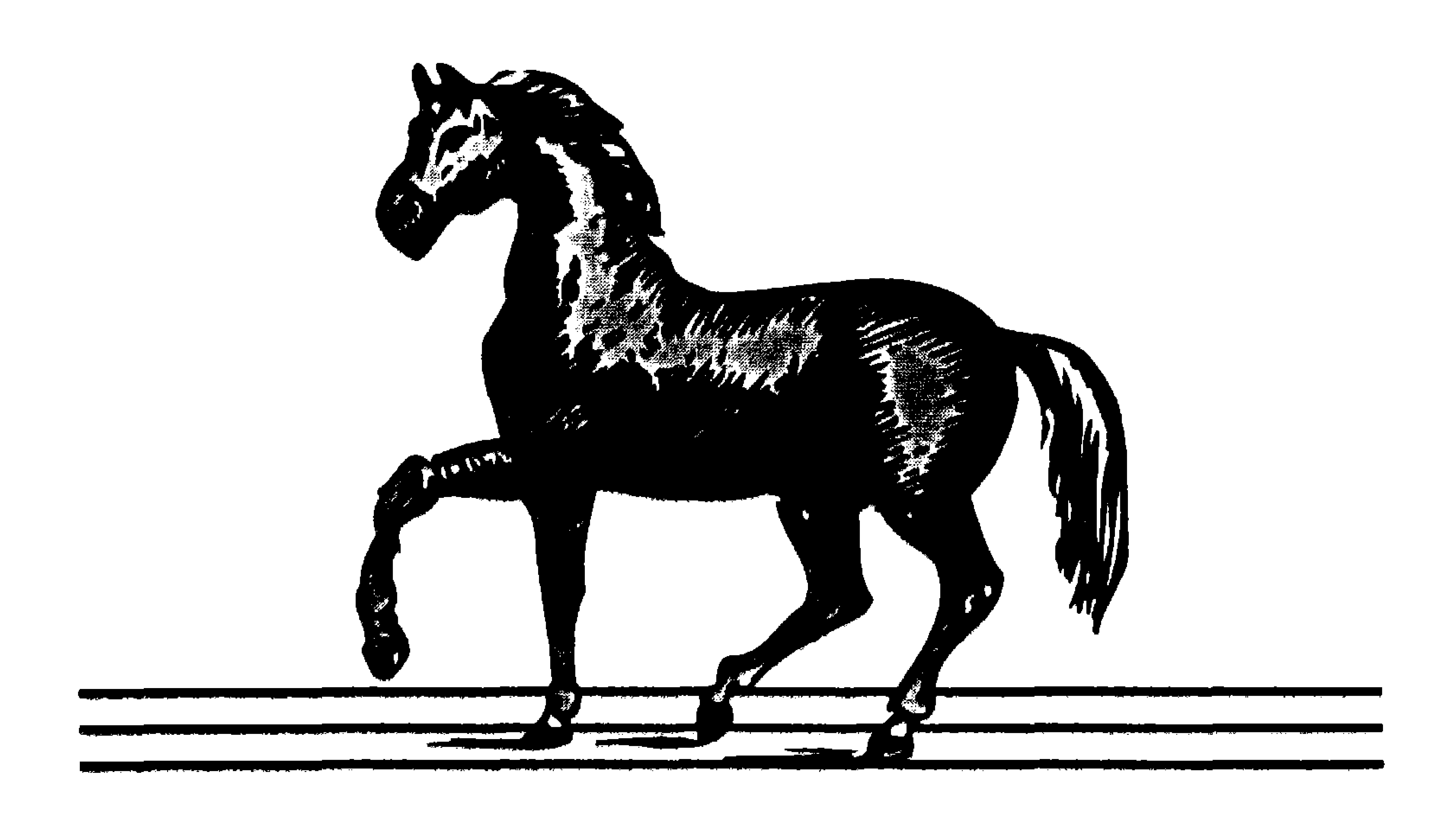
(1) المرجع السابق، ص: 158.





بنو أمية

تقويم تاريخى



يقتضى التقويم الصحيح لأية دولة فى التاريخ ـ وصولاً إلى معرفة إيجابياتها وسلبياتها وعوامل تقدمها، وأسباب سقـوطها ـ إلقاء نظرة تركيبية شمولية لدورتها التاريخيـة، كما يقتضى تتبـعًا (تحليلاً) دقيقًا للسـيرة الشخصية لقـادتها والعناصر الفاعلة فيها؛ وذلك لمعرفة مدى كفايتهم ومؤهلاتهم، وهل كانوا جديرين بالأماكن التى احتلوها، أو كانوا ضعفـاء تسببوا بتصدرهم فى إفساد الحياة السـياسية والحياة العامة لأمتهم، وبالتالى إسقاط دولتهم؟!!

وعند إلقاء نظرة شمولية على الدولة الأموية، نجد أن هذه الدولة قد عاشت إحدى وتسعين عامًا بالتقويم الهجرى (41 ـ 132هـ)، وتسعة وثمانين عامًا تقريبًا بالتقويم الميلادى (661 ـ 750م)، وهى فترة وجيزة بالنسبة لعمر الدول.

وثمة دويلات لا يكاد يُسمَع بها فى التاريخ الإسلامى نفسه ـ مشرقه ومغربه ـ قد عاشت أكثر من هذه الفترة، ومع ذلك يبدو سقوطها أمرًا عاديًا لم يلتفت إليه أحد من الباحثين، وذلك على العكس من دولة بنى أمـية التى اهتم بها وبسقوطها كثير من المؤرخين منصفين وغير منصفين...!!

إن هذه الدولة الأموية قد أخـذت مكانتها لدورها فى الفتوحـات الإسلامية من جـانب؛ ولأنها حـملت الراية بعـد الراشدين مـن جانب آخـر، ولارتباطهـا بالسلف الصالح وعصر الاحتجاج من جانب ثالث، ولعظمة خلفائها ـ مهما كانت الآراء التفصيلية حولهم ـ من جانب رابع.

وهذه الدولة ـ شأنـها شأن الدول التى تقـوم فى التاريخ ـ قـد مرت بأطوار ثلاثة:

أ - الميلاد والانطلاق:

وقد شملت هذه المـرحلة فى الفرع السفيانى عـهد معاوية بن أبى سـفيان، وشملت فى الفرع المروانى عهدى مروان بن الحكم، وفـترة من عهد عبد الملك بن مروان.



ب - مرحلة الازدهار والفتوحات:

وقد شملت هذه المرحلة فترة من عهد عبد الملك بن مروان، ثم عهود الوليد، وسليمان وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك سنة (125هـ / 743م).

جـ - مرحلة الانهيار المباشر:

وهى تبدأ بالوليد بن يزيد بن عبد الملك (125 ـ 126هـ)، وتنظيم عهود يزيد بن الوليد (126 ـ 126هـ)، وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك (126 ـ 127هـ).. وأخيراً مروان بن محمد (127 ـ 132هـ) آخر خلفاء بنى أمية!!

بيد أن ثمة نوعًا من التداخل بين هذه المراحل.. فعهد معاوية مثلاً لم يخل من فتوحات كثيرة.. كما أن الدولة كادت تنهار فى فترة معاوية بن يزيد بن معاوية (ربيع الأول ـ ذو القعدة 64هـ)، كما أن عهد يزيد بن عبد الملك (101 ـ 105هـ) إنما دخل فى فترة الازدهار بتأثير الإشعاعات القوية التى سبقته، وفى قمتها عمر ابن عبد العزيز (99 ـ 101هـ)، والإشعاعات التى جاءت بعده مُمَثلة فى عهد هشام الذى حاول الحفاظ على مجد الدولة، ونجح فى ذلك إلى حدٍّ كبير!!

وقد تعرض بنو أمية قبل وصولهم إلى السلطة، وأثناء حكمهم، لثلاث فتن كبرى كان لها تأثيرها القوى على كيانهم التاريخى، ولئن كانت الفتنة الأولى بين على ومعاوية (35 ـ 41هـ) قد انبثقت من خلال رمادها، وعلى أشلاء ضحاياها؛ دولتهم، فمما لا شك فيه أن هذه الفتنة كانت سببًا فى أن دولتهم قد وُلِدَت ولادة عسيرة، وأنها ترعرعت ـ على الرغم مما يمكن أن يكون لديها من القوة العصبية والمتانة الشخصية ـ وسط أعشاب ضارة كثيرة، وفى جو لا يحمل لوجودها وداً، وليس مستعداً لأن يوفر لها من التعاون والإخلاص أسباب البقاء... وكان عليها منذ الميلاد فى عام الجماعة، أن تجعل من هذه الجماعة المحيطة بها جماعة محبة لها متعاونة معها... وقد بذل معاوية ويزيد بن معاوية وعبد الملك والوليد وهشام



وغيرهم الكثير من الحلم والكرم؛ فى سبيل تأليف القلوب المحيط بهم؛ لكن نجاحهم كان نجاحًا موقوتًا، ولم يستطيعوا استئصال الآثار الناجمة من مرحلة الميلاد العسير الذى تمثل فى الفتنة الأولى.

والحقيقة أن بنى أمية ـ عند النظر السليم ـ لا يتحملون وحدهم وزر الفشل فى هذا السبيل؛ بل إن الذين كانوا يصارعونهم، ويعمدون إلى إحداث الفتن كلما خمدت مثل الشيعة والخوارج يتحملون ـ أكثر من بنى أمية ـ الوزر فى هذا الأمر . . .

لقد تنفس المسلمون الصعداء عندما سلَّم الحسن بن على الأمر إلى معاوية فى ربيع الأول من عام الجماعة. . . لكن نفرًا قليلاً من المسلمين ظلوا على ميولهم فى الفتن والثورات، ففى العام نفسه خرج عبد الله بن أبى الحوساء[1] بالنخيلة من العراق، وخرج حوثرة بن ذراع[2] بعده، وخرج سهم بن غالب الهجيمى ومعه الخطيم الباهلى[3].

وفى سنة (44هـ) قتل زياد بن أبيه سهم بن غالب بالبصرة[4]، وفى سنة (49هـ) قتل زياد بالبصرة الخطيم الباهلى الخارجى[5]، كما خرج فى ولاية المغيرة بن شعبة فى الكوفة شبيب بن بجرة الأشجعى، وقتل[6]. وفى سنة خمسين قتل عمر بن الحمق الخزاعى بالموصل[7]. وفى سنة إحدى وخمسين قتل معاوية حجر ابن عدى، ومعه محرز بن شهاب وقبيصة بن ضبيعة القيسى، وصيفى بن بسيل بن

(1) خليفة بن خياط: التاريخ. . بتحقيق أكرم ضياء العمرى، ص: 203.

(2) خليفة بن خياط: التاريخ، ص: 204.

(3) المرجع السابق.

(4) المصدر السابق، ص: 207.

(5) المصدر السابق، ص: 209.

(6) المرجع السابق.

(7) السابق، ص: 212.

ربيعة[1]. إلى غير ذلك من صور الخروج التى فرضت على بنى أمية فرضًا، واضطروا لمواجهتها بالقوة، فأصابوا فى أحيان وأخطأوا فى أحيان أخرى.

وقد كان لاستشهاد بعض الصالحين فى العهد الأموى من أمثلة حجر بن عدى، وسعيد بن جبير، فضلاً عن الإمام الحسين رضى الله عنه مهما كانت الأسباب المؤدية إلى ذلك[2] أكبر الأثر فى إتاحة الفرصة لبعض الشاغبين على الدولة الأموية.

وهكذا كانت آثار الفتنة الأولى (فتنة الميلاد العسير) لمسيرة دولة بنى أمية قوية. وقد ظلت دولة بنى أمية تدفع ثمنها حتى أودت بالفرع السفيانى... ولولا ظروف قدرية لكان فى إمكان عبد الله بن الزبير أن يقضى على بنى أمية... فى الفتنة الثانية (... فتنة مقتل الحسين وثورة ابن الزبير)... فلقد فكر مروان بن الحكم فى الدخول فيما يدخل فيه الناس من طاعة ابن الزبير[3]... إلا أن (مؤتمر الجابية)[4] الذى نجح فى أن يحول دون أول (انشقاق داخلى) فى البيت الأموى قد مكن البيت الأموى بقيادة مروان بن الحكم[5] من لم شمله، وتجميع قواه، واستئناف مسيرته تحت قيادة فرع أموى آخر يمثل دمًا جديداً، ورئة جديدة وهو الفرع المروانى!!

لقد كان على عبد الملك بن مروان أن يتغلب على آثار الفتنتين: الفتنة الأولى التى قامت على أنقاضها ومن خلل رمادها دولة بنى أمية، والفتنة الثانية التى قام من بين أنقاضها الفرع المروانى الأموى؛ لكنها خلفت وراءها حركة تهدد

---

(1) السابق، ص: 213.

(2) انظر فى أسباب مقتل حجر بن عدى حوادث سنة51، وابن خلدون: العبر3/ 11ـ15).

(3) المسعودى: مروج الذهب 3/ 94، وعبد الرازق الأنبارى: مرجع سابق، ص: 192.

(4) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص: 295، وعبد الرازق الأنبارى: مرجع سابق، ص194، وعبد الشافى عبد اللطيف: العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص: 143.

(5) انظر فى فضل مروان: ابن العربى: العواصم من القواصم، ص: 89.

وجودها، وهى حركة ابن الـزبير التى لا زالت قوية عاتية. . . كمـا كان على عبد الملك أن يواجه فتنًا كثـيرة تلفعت بأردية مختلفة، فهـذه فتنة التوابين التى انطلقت بتأثيـر مقتل الحسـين، إذ رأى شيعة الكوفـة بعد أن خذلوا الحسـين أنه لن يغسل عارهم، ويريح ضمائرهم إلا القـيام بثورة يقتلون فيها قـتلته، أو يُقتلون. . . وقد تزعم حركتهم سليمان بن صرد الخـزاعى، والتقى بهم جيش عبد الملك بن مروان بقيادة عبد الله بن زياد واليه على العراق، وتمكن من هزيمتهم(1).

ولم يكد عبد الملك بن مروان يستبشر بانتصاره على حركة التوابين حتى كان عليه وعلى قادته فى الـعراق أن يواجهوا ـ ولمدة تزيد عن عشـر سنوات ـ حركات الشيعة، ومن أبرزها حـركة المختار الثقفى، وفرق الخـوارج التى كانت تبحث عن الموت أكثر من بحثها عن الحياة، ومن أبرز قادتها فى هذه الفترة صالح بن مسرح، وشبيب بن زيد الشيبانى؛ الذى توالت انتصاراته، ولـم يقض عليه الحجاج إلا سنة (77هـ)(2).

وقد استمرت الحروب سجالاً بين ابن الزبير وعبد الملك، ولـم يستطع القضاء عليه إلا عندما وجـه الحجاج إليه سنة (73هـ) فى مكة، ونصب الحجاج المنجنيق وضرب الكعبة(3).

وهكذا وبعد فـترة ليست قصـيرة وجهود كبـيرة تمكن عبد الملـك من عبور مرحلة الميلاد الثانى للدولة الأموية. . . ولم يعبرها إلا بعد أن استعان بجبابرة على غرار معاوية الذى استعـان بزياد بن أبيه (ابن أبى سفيان) فى الطور الأول. . فكان المهلب بن أبى صفرة، والحجاج بن يوسف الثقـفى سيفيه البتارين، اللذين يلاحق بهمـا الفتن، ويعالج بهما الأدواء. ومـعروف أن مثل هذا العـلاج يترك آثاره على

---

(1) خليفة بن خياط، ص: 274: 276.

(2) المرجع السابق، ص: 270، 274، 276.

(3) المرجع السابق، ص: 269.

المدى البعيد بالنسبة لمسيرة الأمم. . . . وما نظن أن هذا كان هو الطريق الحتمى الوحيد أمام عبد الملك. . . فثمة طرق للعلاج ـ يعلمنا إياها التاريخ ـ كثيرة، وهى أفضل من طريق السيف!!

لقد لخص عبد الملك منهجه، فكان أمينًا. . . قال:

إنى والله لا أداوى أدواء هذه الأمة إلا بالسيف، أيها الناس: إنا نحتمل لكم كل اللغوبة ما لم يكن عقد راية ولا وثوب على منبر، هذا عمرو بن سعيد، وحقه حقه، وقرابته قرابته، قال برأسه هكذا، فقلنا بسيفنا هكذا[1].

ولقد فعل الحجاج بسيفه الكثير فى أهل الكوفة والبصرة[2]. . . وكان فعله هذا سببًا فى اشتعال عدد كبير من الثورات. . . ولئن كان عبد الملك قد نجح ـ بالحجاج وأمثاله ـ فى تهدئة الأحوال، والقضاء على الفتن، فإنه لم ينجح فى فتح القلوب للفرع الأموى الجديد، وكان معاوية أكثر حصافة منه بحلمه وسعة صدره. . ولو لم تتطور الأمور فى عهد يزيد على هذا النحو لربما تغيرت مسيرة التاريخ!!

على أننا نعود فنؤكد أن الشيعة والخوارج، ومن ركبوا موجتهما؛ يتحملون الوزر الأكبر فى أكثر هذه المذابح التى وقعت فى العصر الأموى بصفة عامة، ولقد كانوا سببًا فى لجوء حكام بنى أمية إلى ولاة من أمثال زياد والحجاج. . ذلك أن الخروج على نظام الدولة كان أمرًا مستهانًا به لدى هذه الطوائف، وكأن العرب لم يكونوا قد استطاعوا أن يتجاوزوا مرحلة القبلية إلى مرحلة الدولة، ولاسيما بعد أن حدثت بعد الفتوق فى عروة الإسلام، والتقى المسلمون بسيوفهم، وتحركت فيهم ـ من جديد ـ العصبية القبلية. . .

(1) المرجع السابق، ص: 273.

(2) الطبرى: التاريخ 7/ 206، وما بعدها.



وقد كـان بإمكان بنى أميـة ـ باعتـبارهم العـصبـية الغـالبة[1] ـ امتـصاص العصبيات الأخرى بطرق مـلائمة لطبيعة العرب. . . إلا أنهم ـ على الرغم من كل ما بذلوه ـ لم يسـتطيعوا الوصـول إلى نظام الحكم الإسلامى القـائم على الشورى والعدل الكاملين، والذى كاد من شأنه أن يفتت على جانبيه هذه العصبيات المحيطة بهم!!

ومع ذلك ولخصائص كثيرة يتسم بها عهد عبد الملك وابنيه الوليد وسليمان، ثم عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك. . . ولوجود ولاة أشداء بالغ بعضهم فى الشدة. . ولدخـول المسلمين ـ بقوة وإصرار ـ باب الفـتوحات الإسلامـية على جبهات متعددة بقيادة أبطال عظماء من أمثال حسان بن النعمان، وموسى بن نصير على الجبـهة المغربيـة، وقتيبـة بن مسلم فى خراسـان وما وراء النهر حـتى حدود الصـين، ومحـمد بن القـاسم الثـقفى فى السند والهـند حتى جنوب البنجـاب، ومسلمة بن عبد الملك فى آسيا الصغرى. . .

لهذه العوامل كلها انشغل المسلمون بما هو أهم من الفتن والثورات الداخلية، وأفرغـوا طاقاتهم فى هـذا الجهاد الخـارجى العظيم. . . وكـان خلفاء هذا العـهد المروانى حتى وفاة هشام (65 ـ 125هـ) أهلاً لأن ينقاد لهم العرب والمسلمون.

فلمـا توفى هشـام كـان هذا إيذانًا بدخـول الدولة الأمـوية الفـتنة الثـالثـة والأخيرة. . . إنها الفتنة القاصمة. . .

لقـد وصلت العصـبـية الأمـوية إلى قمـة مـرحلة الدولة، وبدأت تفتـرس نفسها. . . وأصبحت أعجز من أن تعقد مؤتمر جابية جديد ترقع بها فتوقها، وتنقل القيادة إلى دم جديد.

---

(1) انظر فى نظرية العصبية الغالبة محـمد عابد الجابرى: فكر ابن خلدون: العصبية والدولة، ص: 268، نظر دار الطليعة ـ بيروت، الطبعة الثانية 1982م.

إن مرحلة التحدى التى مثلها رجل عظيم مثل معاوية السفيانى، ورجل عظيم آخر مثل عبد الملك المروانى قد انتهت. . . لقد انتهت الحاجة إلى جبابرة عظماء ـ على الرغم من كل أخطائهم ـ ولقد اتسعت رقعة الدولة بعد فتوحات قمم الفتح الإسلامى؛ الذين عبروا إلى الأندلس ووصلوا إلى جبال البرانس ـ غربًا ـ ووصلوا حدود الصين، وأرغموا ملكها على أن يدفع لهم الجزية ـ شرقًا ـ كما خضعت لهم بلاد السند والهند. . . فماذا بقى فى عالم القرن الثالث للهجرة. . الثامن للميلاد لم يخضع لنفوذ الأمويين؟!!. . وعلى امتداد الأرض الإسلامية أصبح العرب (طبقة حاكمة) منتصرة تعيش على (اقتصاد استهلاكى) يأتيها من الغزوات والخراج دون عناء إنتاجي يُذكر. . وليس من سبيل هنا إلا الترف واللهو، أو كما يقول علامة المغرب (عبد الرحمن بن خلدون): "حصول الترف وانغماس القبيل فى النعيم"[1]. . وسبب ذلك: أن القبيلة إذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره، وشاركت أهل النعيم بمقدار غلبها، واستظهار الدولة بها (. . . .) وينشأ بنوهم وأعقابهم فى مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم، ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية فى العصبية حتى يصير ذلك خلقًا لهم وسجية فتنقص عصبيتهم وبسالتهم فى الأجيال بعدهم بتعاقبهم إلى أن تنقرض العصبية فيأذنون بالانقراض. وعلى قدر ترفعهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء فضلاً عن الملك، فإن عوارض الترف والغرق فى النعيم كاسر من سورة العصبية التى بها التغلب[2]!!

وهذا العامل الذى قرره العلامة ابن خلدون يحتاج إلى آخرين يساعدانه على الوصول إلى غايته، وتحقيق السقوط. . . وقد توافر العاملان:

(1) المقدمة، تحقيق على عبد الواحد وافى 2/ 441.

(2) المقدمة 2/ 441.



أما أولهما: فكان الضعف السياسى للصبغة الدينية التى كانت قادرة ـ كما كانت دومًا ـ على توحيد العصبيات القبلية واستيعابها، كما أن العرب ومن فى معناهم لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم[1].

ومع توقف الفتوحات الإسلامية ـ بالإضافة إلى الترف ـ بدأت الغاية الدينية العليا تذوى فى النفوس.

وأما ثانيهما: فكان بلوغ الدولة طور الهِرَم بفساد العصبيات الحاكمة، وقد لجأت الدولة إلى الاستعانة بالمصطنعين والمرتزقة، كما لجأت إلى المصادرات والضرائب[2].

ونحن نجد فى مسيرة الدولة الأموية وجود هذه العوامل مجتمعة (وإن كانت عوامل مساعدة وغير أساسية)... فهناك الترف الذى سارت عليه الدولة وحاشيتها، وهناك لجوء الدولة إلى المصطنعين الذين لا يتولون أمر الدولة إلا لدنيا يصيبونها من مال أو منصب... ولقد خرج على الدولة كثير من رجالها؛ لأنهم لم يرتبطوا بها فكريًا ونفسيًا... فقد خرج المختار الثقفى، وقد خرج محمد بن الأشعب، وخرج يزيد بن المهلب، ونقم على الدولة عاملها على العراق لخمسة عشر عامًا خالد بن عبد الله القسرى؛ الذى عُزل وقبض عليه وسجن فى الكوفة[3]، وكان مصير موسى بن نصير التغريم والسجن، ومصير ابنه عبد العزيز واليه على الأندلس القتل، وابنه عبد الله واليه على إفريقية الإهانة والعزل، ثم القتل، وكانت نهاية قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفى القتل. وقد وصلت هذه العوامل بالدولة إلى مرحلة (الانشقاق الداخلى)، وهو أخطر ما يصيب الدولة، وقد وضح هذا الانشقاق بعد وفاة هشام سنة (125هـ).

---

(1) المقدمة 2/ 456.

(2) محمد عابد الجابرى: مرجع سابق، ص: 291.

(3) نبيه عاقل: تاريخ خلافة بنى أمية، ص: 311.

لقد كانت وصية يزيد بن عبد الملك قد نصت على أن يتولى الأمور بعد أخيه هشام ابنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك... الذى يقال له (الوليد الثانى) وقد حاول هشام إزاحة ابن أخيه إلا أنه لم يستطع، فحاول إفساده بدفعه إلى اللهو والمجون[1]، ولما عجز عن تقديم بديل له حاول إصلاحه، ولكن بقيت الإشاعات حول الوليد تشوه صورته. وعندما ولى الوليد كان ممتلئًا بالحقد على عمه، وأبنائه فبدأ خلافته باضطهاده، فضرب ابن عمه سليمان بن هشام مائة سوط، وحلق لحيته ورأسه، وغربه إلى عمان، كما حبس يزيد بن هشام[2]... وهكذا بدأ الانشقاق الداخلى يجتاح بنى أمية من الداخل...

وقد لعب يزيد بن الوليد بن عبد الملك دورًا خطيرًا فى تأجيج الفتن حول ابن عمه الوليد، فقد كان أشدهم فيه قولاً[3]، وكان الناس على قوله أميل؛ لأنه كان يظهر النسك، ويتواضع ويقول: ما يسعنا الرضا بالوليد (!!) حتى حمل الناس على الفتك به[4].

ولم يكن قتل الوليد وتولية يزيد إلا بداية الفتنة... فإن مروان بن محمد بايع يزيد على مضض؛ لأنه لا يحب الفتنة، لكنه سماه الناقص (بدل يزيد) ـ فى إحدى روايات إطلاق هذا اللقب عليه ـ وفى السنة نفسها ـ كما يقول الطبرى ـ: "اضطرب حبل مروان، وهاجت الفتنة"[5]... وتوالت الأحداث... فثار أهل حمص، ورفضوا البيعة ليزيد "وأقاموا النوائح والبواكى على الوليد"[6]، وأعلن أهل الأردن وفلسطين خلافهم، وأسرع نصر بن سيار بالتمرد، ودبت الفتنة القبلية

(1) المرجع السابق، ص: 229.

(2) الطبرى، ص: 8/ 319.

(3) المرجع السابق 8/ 319.

(4) المرجع السابق.

(5) تاريخ الأمم والملوك 9/ 22.

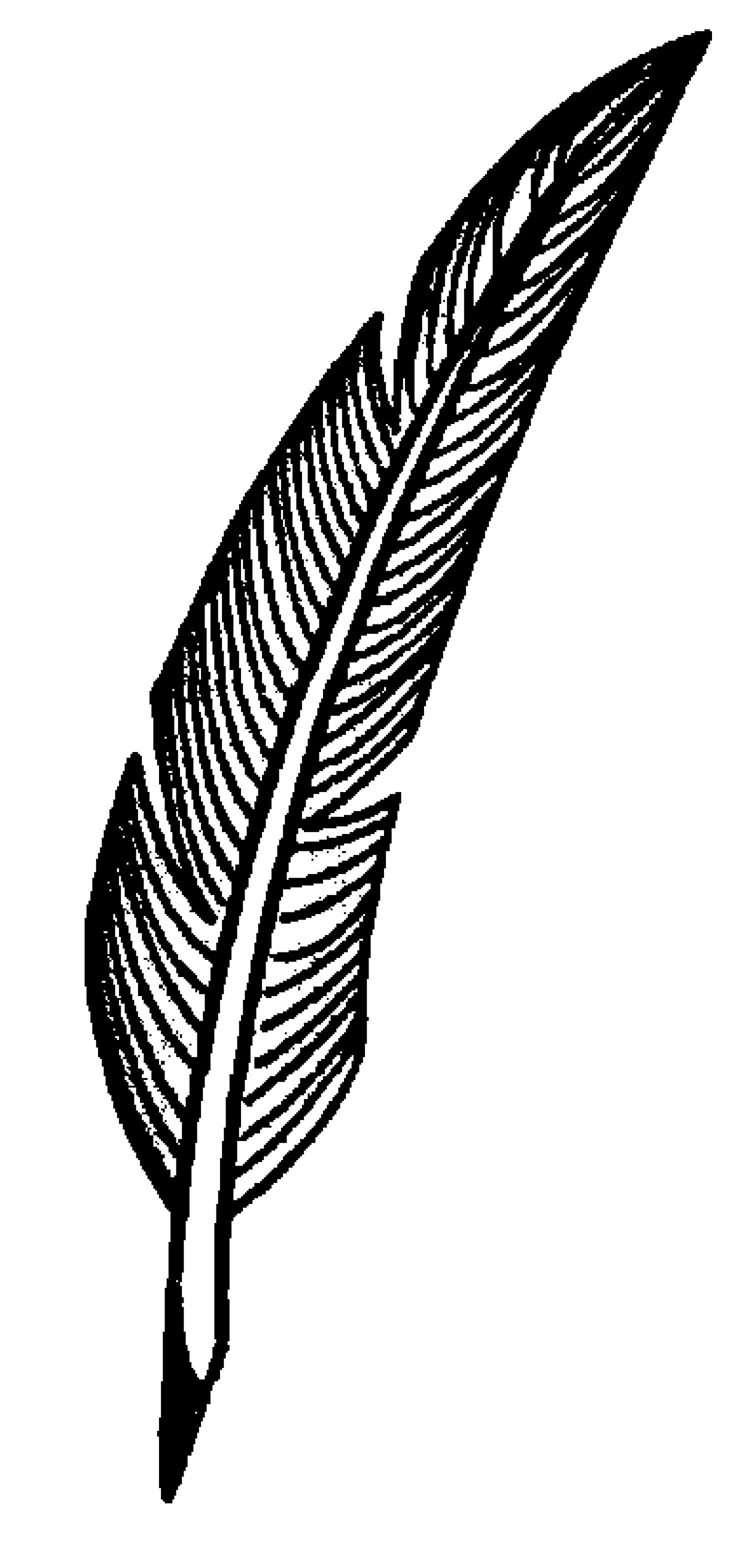
(6) السابق 9/ 23.

بين القيسية واليمنية، وانقسم البيت الأموى على نفسه. . . يتلذذ بعضه بقتل بعضه. . . وعاجل الموت يزيد فمات فى الـ ـة نفسها[1] سنة (126هـ)، وتحرك مروان بن محمد رافضًا ما أظهره بعضهم من بيعته أخى يزيد إبراهيم بن الوليد، وتمكن خلال شهرين ونصف ـ وهى مدة ولاية إبراهيم بن الوليد ـ من خلعه وتوطيد الأمر لنفسه. . . وهكذا ولى مروان سنة (127هـ)، ليبدأ معركة ضارية ضد قوى كثيرة متربصة بالدولة. . . وقد كانت لديه الكفاية لينتصر لولا أن جبهة بنى أمية التى كان الخلفاء قبله يعتمدون عليها كانت قد تمزقت، وأصبح بأسها بينها شديدًا. . . ولهذا كان لابد أن يسقط مروان بن محمد. . وتسقط دولة بنى أمية؛ لأن الحبال كانت قد تقطعت منذ أقدم أموى هو يزيد، على قتل أموى آخر هو الخليفة الوليد، وانقسم بنو أمية بين زعيمين أمويين. . . فتجرأ الناس على دماء بنى أمية. . . بقيادة بعض بنى أمية. . . وكانت النهاية الضرورية ـ كما يعلمنا التاريخ ـ استمرار نزيف الدماء!!

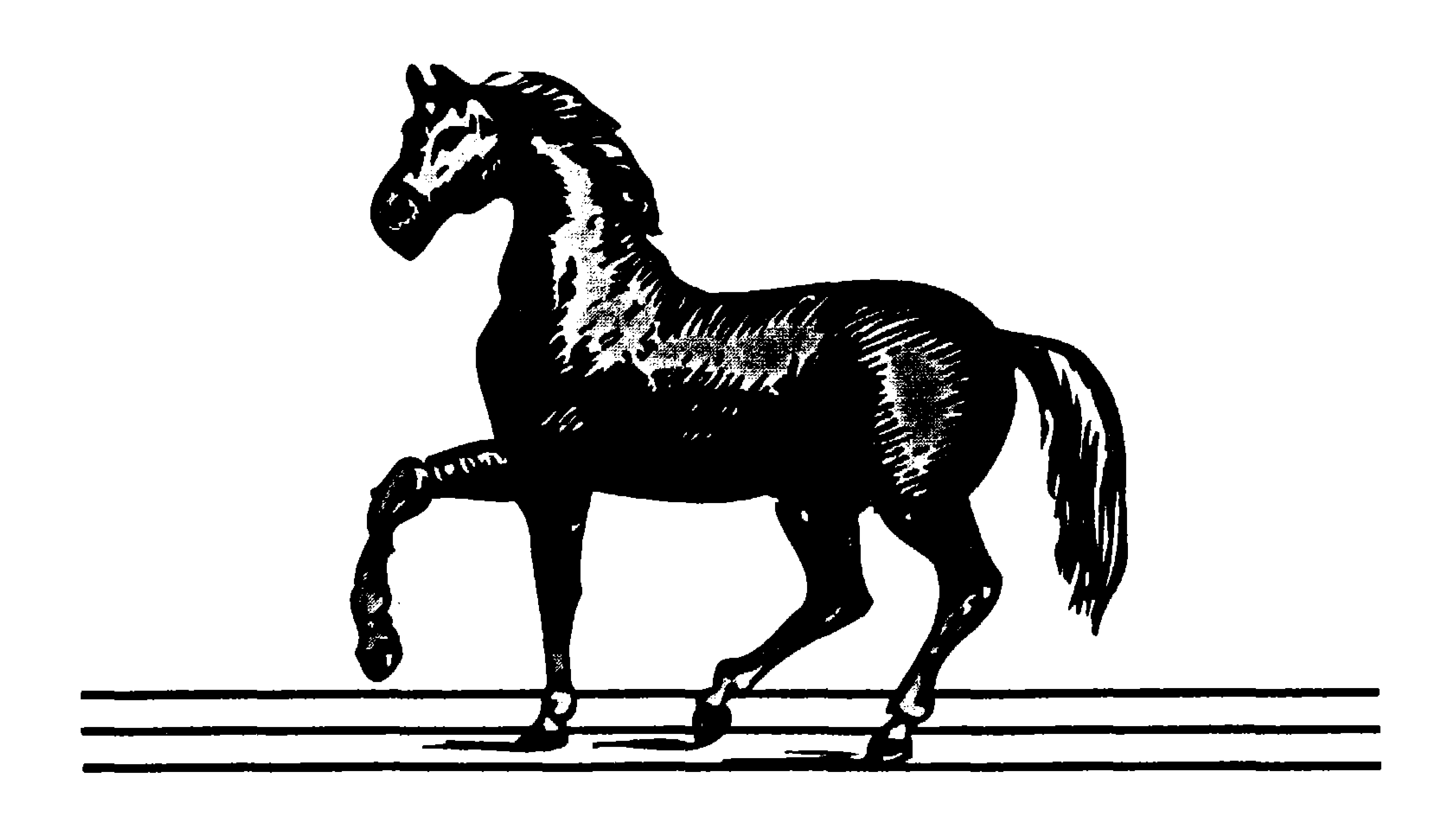
وكانت الفتنة الثالثة. . . الفتنة القاصمة!!

* * *

(1) خليفة بن خياط: تاريخه، ص: 369.



من المنجزات الحضارية
فى عهد بنى أمية



(١) معاوية بن أبي سفيان

أ - تطوير الدواوين:

كان من الطبيعى أن يتوسع خلفاء بنى أمية فى إنشاء الدواوين، والعمل على تطويرها؛ لمواكبة تطور الحياة الإسلامية، وتزايد رقعتها بعد حركة الفتوحات.

وقد عُرف الخليفة معاوية بن أبى سفيان بالحرص على حسن إدارة الدولة، ومراعاة مصالح الرعية، فلم يأل جهداً فى ابتداع الأساليب الإدارية النافعة، وإنشاء الدواوين والأجهزة بإدارة الدولة.

وقبل قيام الدولة الأموية كان ثمة دواوين ثلاثة، أنشأها الخليفة الراشد (عمر ابن الخطاب رضى الله عنه)؛ وهى: "ديوان القضاء"، و"ديوان الجيش"، و"ديوان الخراج".

ومن الدواوين التى استحدثها معاوية بن أبى سفيان ـ فضلاً عن تطويره للدواوين القديمة ـ:

"ديوان البريد": استحدثه معاوية بعد اتساع نطاق الدولة؛ من أجل تسهيل الاتصال بين الخليفة فى دمشق وعمال الأقاليم. وكان هذا الديوان يقوم بمهمتين أساسيتين هما:

أ ـ نقل الرسائل من مركز الخلافة وإليها، سواء كانت رسائل داخلية متبادلة بين الخليفة وولاة الأقاليم، وكبار الموظفين، أم رسائل خارجية؛ وهى التى يتبادلها الخليفة مع ملوك الدول الأجنبية.

ب ـ مراقبة أعمال الولاة وكبار الموظفين والوقوف على أساليبهم فى إدارة الدولة ؛ لإحاطة الخليفة علمًا بما يجرى فى الدولة.



"ديوان الخاتم": وكـان أكبـر دواوين الدولة، ويقوم مـوظفوه بنسخ أوامـر الخليفة، وإيداعـها فى هذا الديوان، بعد أن تحزم بخيط وتخـتم بالشمع، ثم تختم بخاتم صاحب هذا الديوان، كما هو الحـال اليوم فى قلم الأرشيف أو السجلات. وكان الهدف من إنشاء هذا الديوان منع التلاعب والتزوير فى مراسلات الدولة.

"ديوان الرسائل": ويقوم متولى هذا الديوان بالإشراف على الرسائل الواردة من الولايات الإسلامـية، أو الموجـهة من الخليـفة إلى عمـاله، وكان كُـتَّاب هذا الديوان يختـارون بعناية فائقـة، من بين المشهـورين بالبلاغـة والفصاحـة، والعلم بالشريعة وأحكامها، ومن أصحاب المروءة والأخلاق الفاضلة، كما رُوعى فيهم أن يكونوا من أرفع الناس نسبًا وحسبًا.

ب - تأسيس المدن، وتعمير البلاد:

أسـهم خلفاء بـنى أميـة فى إنشـاء عدد من المدن الإسـلامـية فى المشـرق والمغرب، لم يزل مـعظمها معـروفًا وقائمًـا حتى اليوم، ومن المدن الشهـيرة التى أنشئت فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان:

- مدينة القـيروان (فى الجمهـورية التونسيـة حاليًا): أسـسها عقـبة بن نافع الفهرى فى إفـريقية سنة (50 ـ 55هـ)، وكانت عاصمـة الشمال الإفريقى كله فى عهد الأمويين، ومركزًا من أعظم مراكز الحضارة الإسلامية.

وكذلك عُنى مـعاوية بحركة البناء والتـعمير، وأولى اهتـمامًا كبـيرًا لتطوير مشـاريع الرى؛ كحفـر الأنهار، وشق القنوات، وتوسـيع شبكات الرى، وإقـامة السدود والقناطر. . .إلخ. فـفى عهده قام زياد بن أبيـه (والى البصرة) بحـفر عدة أنهار مثل: نهر معقل، ونهر أم حبيب، ونهر مسلم؛ الأمر الذى أسهم فى إنعاش الحياة الزراعية بالبصرة، كما قام زياد بإنشاء قنطرة فى الكوفة.

جـ - إنشاء الأسطول والحملات البحرية:

عُنى معـاوية عقب ولايتـه الخلافة؛ بـإنشاء السفن الحـربية، لصـد غارات البيزنطيين على البلاد الإسلامية، ورتب لغزوها الشواتى والصوائف، ووضع نظامًا يكفل اسـتمـرار الحرب بينه وبيـنهم شتـاءً وصيـفًا، وبلغ أسطول الشـام (1700) سفـينة، وفى عهد مـعاوية غزا عقـبة بن عامـر جزيرة رودس. وفى سنة (54هـ) أنشئت بمصر لأول مرة دار لصناعة السفن فى جزيرة الروضة[1].

***

(1) راجع: أبو الحسن الروحى: بلغة الـظرفاء فى تاريخ الخلفاء، ص: 138، 139، المجلس الأعلى للشئـون الإسلاميـة ـ القاهرة (1425هـ ـ 2004م)، السيـوطى: تاريخ الخلفاء، ص: 233، وما بعدها، دار الجيل ـ بيروت، الـطبعة الثالثة (1997م)، د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام 1/ 276، وما بعدها، 1/444 وما بعدها، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة، ط/ السـابعة (1994م)، د/ طه عـبد المقـصود: دراسـات فى تاريخ الخلافـة الأموية، ص: 345وما بعدها، دار الهانى ـ القاهرة (2004م).

(2) "يزيد بن معاوية" (60 - 64هـ)

من المعلوم أن خـلافـة يزيد بن معـاوية كـانت حافلة بـالفتن والصراعـات الداخلية؛ التى كان أبرزها خـروج الحسين بن على - رضى الله عنهمـا - ومقتله، وخروج عـبد الله بن الزبيـر، ومحـاولته الاسـتقـلال بالحجاز؛ ولذلـك كان من الطبيعى أن تخلو الفترة التى ولى فيهـا يزيد الخلافة من المنجزات المهمة، والأعمال الجليلة سواء على المستوى الداخلى أو الخـارجى، باستثناء ما أورده البلاذرى، وأبو الحسن الروحى فى ترجمتهما ليـزيد؛ حيث ذكرا أنه "فى أيامه فتح مسلم بن زياد خوارزم وبخـارى" فى بلاد ما وراء النهـر، وعبر نهـر جيحـون، وأخضع سكان سمرقند، وظل يشن غزواتـه من مرو على بلاد الصغد[1]، على نحو يشى برغبة يزيد فى مواصلة سـياسة الفتوحـات فى أقاليم المشرق، وإن حال بينه وبـين تحقيق رغبته ظروف الدولة فى عهده.

* * *

(1) أبو الحسن الروحى: بلغة الظرفاء فى تاريخ الخلفاء، ص: 143.

(3) مروان بن الحكم (64 - 65هـ)

على الرغم من انشغال مروان بن الحكم بالقضاء على فتنة ابن الزبير، واسترداد مصر والحجاز، وإعادتهما إلى حوزة الخلافة الأموية؛ فإنه لم يهمل الجبهة الداخلية؛ بل عمل على ضبط أحوالها، وإعادة الاستقرار والهدوء إلى أبناء المجتمع؛ فمن مآثره: أنه ضبط المقاييس والموازين؛ حتى لا يقع الغبن فى البيع والشراء(1).

وأوصى ولده عبد الملك حين ولاه مصر بأن يحسن إلى رعيته، ويسوسهم سياسة عادلة، فمما قاله: "يا بنى، عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك، واجعل وجهك طلقًا تصف لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره؛ يكن لك عينًا على غيره، وينقد قومه إليك".

ويروى أيضًا أن عبد العزيز بن مروان قال: "أوصانى مروان عند مخرجه من مصر إلى الشام، فقال: أوصيك بتقوى الله فى سرك وعلانيتك؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأوصيك ألا تجعل لداعى الله عليك سبيلاً؛ فإن المؤذنين يدعون إلى فريضة افترضها الله عليك، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا، وأوصيك ألا تعد الناس موعداً إلا أنفذته، وإن حملت على الأسنة، وأوصيك ألا تعجل فى شىء من الحكم حتى تستشير؛ فإن الله عز وجل لو أغنى أحداً عن ذلك، لأغنى نبيه محمداً ﷺ عن ذلك بالوحى الذى يأتيه، قال الله عز وجل: ﴿... وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ... ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

إن نصيحة مروان لابنه عبد العزيز؛ تمثل خلاصة تجارب مروان، وخبرته الطويلة فى السياسة والحكم، وتفصح عن جانب من أخلاقه؛ فهو لم ينس أن يُذكّر ابنه بتقوى الله فى السر والعلانية، والتزام الصلاة وعدم إهمالها، كما أوصاه بالبر والإحسان إلى الناس، والوفاء بالوعد، واستشارة ذوى الرأى السديد والعقل

(1) د/ حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام 1/ 291.



الراجح فى أى عـمل من أعمال الـدولة. وتجدر الإشارة إلى أن مـروان بن الحكم كان حين ولى المدينة يتبع أسلوبًا شوريًا ديمقراطيًا إسلاميا.

وقد اتبع عبد العـزيز نصائح أبيه، فظل واليًا ناجحًا على مصـر مدة عشرين سنة[1].

* * *

(1) د/ سيدة إسماعيل كـاشف: عبد العزيز بن مروان، ص: 36، 37، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، العدد 239، (2005م).

(4) عبد الملك بن مروان (65 - 86هـ)

أ - تطوير الإدارة وإصلاح النظم الإدارية:

شهدت النظم الإدارية فى عهد عبد الملك بن مروان نهضة كبيرة، وتطويراً ملموسًا؛ حمل المؤرخين المحدثين على وصف عبد الملك بن مروان بأنه المؤسس الثانى للدولة الأموية بعد معاوية بن أبى سفيان.

فقد ظلت الدواوين إلى عهد عبد الملك تستخدم لغات أجنبية، ففى العراق وإيران كانت لغة الدواوين هى الفارسية، وفى الشام ومصر كانت اللغة المعتمدة فى الإدارة هى اليونانية والقبطية، وليس يخفى ما تنطوى عليه "عُجمة" النظام الإدارى؛ من خطورة بالغة على اللغة العربية - وهى اللغة الرسمية لدولة الإسلام - وتناقض صريح مع شخصية الدولة وطابعها العربى.

وإلى عبد الملك بن مروان يرجع الفضل فى القضاء على هذا الوضع الشاذ؛ حيث أصدر أوامره - وكان حريصًا على متابعة شئون الدولة، وإدارتها بكفاءة ودقة - بتحويل لغة الدواوين إلى العربية؛ فتكون هى اللغة الرسمية الوحيدة فى جميع الدواوين، فيما عُرِف فى مصادر التاريخ بـ "تعريب الدواوين".

وكان تعريب الدواوين أحد السبل التى سلكها عبد الملك؛ بغية تعريب الجاليات والأقاليم، فانتشرت اللغة العربية، واشتد إقبال الموالى على تعلمها، وإتقانها؛ إذ كانت هى السبيل إلى تقلد الوظائف والمناصب الإدارية العالية.

وتجدر الإشارة إلى أن عبد الملك كان فقيهًا أديبًا، شديد الاعتزاز بالعربية، عظيم الحرص على إتقانها، ومعرفة دقائقها وأسرارها، حتى رُوى عن الأصمعى أنه قال: "أربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل: الشعبى، وعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف، وابن القِرِّيَّة"(1).

(1) وهذا الحكم على التغليب، فقد لحن الحجاج بن يوسف، فى آية رقم (24) من سورة التوبة مرة عند قراءتها فقال: (أحبُّ) بدلاً من (أحبَّ)، وقد أبلغه بذلك - بناءً على طلبه - أحد الناس، فنفاه.



ومن أمثلة عناية عبد الملك بتطوير النظم الإدارية؛ ما تناقلته المصادر عن التحسينات التى أدخلها عبد الملك على ديوان البريد، بعد أن أصبح أداة مهمة فى إدارة شئون الدولة، وبلغ من اهتمامه بالبريد أنه أوصى صاحبه ألا يمنع عامل البريد من الدخول عليه ليلاً أو نهاراً؛ لأن عدم دخوله ساعة قد يفسد أعمال الولاية سنة كاملة.

واهتم عبد الملك كذلك بنظام الحجابة؛ حتى إنه أوصى أخاه عبد العزيز، الذى ولى مصر من قبله (65 ـ 86هـ) قائلاً: "...... وآثر الرفق فى الأمور؛ فإنه أبلغ بك، وانظر حاجبك فليكن من خير أهلِك؛ فإنه وجهك ولسانك، ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه؛ لتكون أنت الذى تأذن له أو ترده".

ب - إصلاح النظام النقدى وإصدار الدينار العربى الإسلامى:

كان إصلاح النظام النقدى من أهم الأعمال التى قام بها عبد الملك بن مروان، فحتى ذلك العهد كان العالم الإسلامى يعتمد على العملة الأجنبية، سواء الفارسية "الدراهم" أو "الرومية" الدنانير. ولم يعرف المسلمون عملة إسلامية خالصة إلا فى عهد عبد الملك؛ الذى كان يرى أن ضرب العملات العربية الإسلامية ضرورة لازمة؛ لتدعيم البناء الاقتصادى والسياسى للدولة العربية؛ حيث تناقصت العملات الأجنبية "من دراهم ودنانير" بعد سقوط الإمبراطورية الفارسية، وتردى أوضاع الإمبراطورية البيزنطية تناقصًا هدد النشاط الاقتصادى والتجارى المتزايد فى الدولة الإسلامية، وذلك فضلاً عن اضطراب عيار هذه العملات، وانتشار الغش والتزييف فى المتداول منها.

ويبدو كذلك أن عبد الملك كان يسعى إلى توحيد النظام النقدى الإسلامى فى سائر أنحاء الدولة العربية، ولاسيما بعد تعدد العملات التى أصدرها عبد الله بن الزبير فى الحجاز، وأخوه مصعب فى العراق، وكذلك فإن ضرب عملة عربية إسلامية يعبر عن سيادة الدولة، وينبئ عن تحررها من كل نفوذ أجنبى؛ ذلك أن تداول عملات أجنبية فى عصر بلغت فيه الدولة العربية ذروة تألقها السياسى

الحضـــارى، يتعارض مع السيـاسة العربيـة التى تبناها عبد الملك فى كـافة مناحى الحياة، اقتـصـاديًا وسـيـاسيًـا وإداريًا، والتى من كان أبرز تجليـاتها حركـة تعريب الدواوين.

ولقد مر الإصلاح النقدى الذى قام به عبد الملك بن مروان بمرحلتين قبل أن تأخذ العملات الأمـوية صورتها الإسلامية الخالصـة، ففى المرحلة الأولى: ضربت الدنانير الذهبية على غرار الفلوس البيزنـطية، فبتر أعلى الصليب من وجه العملة، وظهر علـى شكل حرف (T)، وأحيط هـذا الصليب بعبـارات التوحـيد المنقـوشة بالخط الكوفى، أما فى الوجه الآخر فقد أبقى على صورة هرقل وولديه قنسطنطين وهرقليوناس.

وفى المرحلة الثانية: استبعد عـبد الملك التأثيرات البيزنطية نهائيًا؛ بأن نقش صورته هو مكان صـورة هرقل وولديه، ثم أبقى العمـود القائم على المدرج الذى يحمل الصليـب فى العملات القـديمة، وأصبح وجـه الدينار يحمل صورة عـبد الملك، وأصبح ظـهره منقوشًـا بكتابة تدور على حـافة الدينار نصهـا: "بسم الله ضرب هذا الدينار سنة ست وسبـعين"، وأصبح الصليب مجرد عـمود قائم على أربع مدرجات. ولقـد سبب ظهور صورة عبـد الملك على ديناره احتجاج جـماعة من الصحـابة، الذين أنكروا على عبد الملك تشـبهه بالأباطرة، كمـا أنكروا إظهار الصور التى ينهى عنـها الشرع، كمـا أثار صدور هذا الإصلاح النقـدى الإسلامى ثورة على نظام النقد البيزنطى العالمى.

ومع ذلك فـقد كـان دينار المرحلة الثانيـة تمهيـداً لصدور الدينار الإسـلامى الخالص فى سنة (77هـ)، وكـان يتوسط الوجـه العـبارة الآتيـة: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له"، فى حـين كان يدور على الحافة عبارة: "مـحمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهـره على الدين كله"، أما الظهر فقـد كان يتوسطه: "الله أحد الله الـصمد لم يلد ولم يولد"، وكـان يدور بالحافـة "بسم الله ضرب هذا الدينار عام سبع وسبعين".

ولم يكتف عبد الملك بتعريب العملة؛ بل وحد عيارها، وأمر بجمع النقود الأجنبية الرومية والفارسية - وكان أكثرها مغشوشًا - وأعيد سبكها؛ وفقًا للعيار الجديد. ووقف عبد الملك بالمرصاد لأية محاولة لغش النقود أو تزييفها، ولم يتسامح فى إنزال أشد العقوبة بمن يثبت عليه التورط فى شىء من ذلك.

جـ - إحصاء السكان وتقدير الضرائب:

وفى عهد عبد الملك عمل فى خراسان إحصاء جديد للسكان عامة، وكلف كل شخص بسداد ما فرض عليه من الضريبة، وزادت جزية كل شخص ثلاثة دنانير على ما كانت عليه من قبل، وعمل مثل ذلك فى العراق؛ من أجل إنعاش خزانة الدولة.

د - إصلاح الجيش:

حين تمكنت الجيوش الإسلامية من فتح العراق ومصر والشام وغيرها؛ انصرف المسلمون إلى الزراعة، وشُغلوا بتكوين الثروة، وامتلاك العقارات، وتركوا الجندية، وانصرفوا عن الجهاد، وفترت الروح العسكرية فيهم، فلا جرم أدخل عبد الملك بن مروان نظام التجنيد الإجبارى، فزاد عدد الجيش زيادة كبيرة، وكان يقتصر على العنصر العربى، فتمكن الأمويون من مواصلة فتوحهم، وضموا شمال إفريقية، وبلاد الأندلس، واستولوا على كثير من مدن المشرق.

هـ - البناء والتعمير:

ازدهرت حركة البناء والعمران فى عهد عبد الملك ازدهارًا كبيرًا، فمن المدن التى أنشئت فى عهده: مدينة واسط، أسسها بالعراق بين الكوفة والبصرة الحجاج ابن يوسف الثقفى، وبنى وسطها قصرًا فخمًا بجوار المسجد الجامع، وأحاطها بالأسوار والخنادق، وعمل على تحويلها إلى مركز حضارى متكامل؛ يصلح لأن يكون مركزًا إداريًّا، يمكن الحجاج من ضبط أحوال العراق، والهيمنة على شئونها.



ومن المدن التى أنشئت فى عهد عبد الملك كذلك: مدينة أردبيل، ومدينة برذعة.

وفى عهد عبد الملك بذل واليه الكفء (الحجاج بن يوسف) جهوداً كبيرة فى ميدان البناء والعمران، فأتم حفر نهر الأنبار، وقام بحفر عدة أنهار فى المنطقة الواقعة بين الكوفة وواسط والبصرة.

وفى مصر تولى عبد العزيز بن مروان أمرها نحو عشرين عامًا (64 ـ 85هـ)، فكانت له فيها إنجازات واضحة، وأدخل ضروبًا من الإصلاح، وبنى مقياسًا للنيل؛ وزاد فى جامع عمرو بن العاص من ناحية الغرب، وأدخل فى شماله رحبة فسيحة، وأقام على خليج أمير المؤمنين قنطرة بطرف الفسطاط سنة (69هـ)، وبنى مدينة حلوان، واتخذها عاصمة لولايته سنة (73هـ) بعد أن تفشى وباء الجذام بالفسطاط، ونقل إليها بيت المال، وأنشأ بها بركة كبيرة ساق إليها الماء من العيون القريبة من جبل المقطم، على قناطر معلقة مشيدة على أعمدة تصل عيون الماء بالبركة، وغرس عبد العزيز فى حلوان الأشجار والنخيل، وبنى بها المساجد وغيرها من البنايات الفخمة؛ حتى قيل: إنه بذل فى سبيل ذلك مليون دينار.

ومن مآثر عبد الملك بن مروان فى ميدان العمارة الدينية إنشاؤه مسجد قبة الصخرة بالقدس سنة (72هـ). وهى الصخرة التى عرج الرسول ﷺ من فوقها ليلة الإسراء والمعراج.

وليس بصحيح ما يقال من أن عبد الملك بن مروان أنشأ القبة ليجعلها موضعًا لحج المسلمين عوضًا عن الكعبة، فهذا من اختراعات أعداء الإسلام، وهو لا يدخل فى عقل إنسان؛ لأن مكة وفيها الكعبة كانت جزءاً من دولة عبد الملك، وبعد أن انتهى أمر ابن الزبير أمر عبد الملك بتجديد الحرم المكى وإعادته كما كان.

ثم كيف يجوز فى العقل أن خليفة مسلمًا هو عبد الملك بن مروان ـ وموضعه من العلم والإسلام معروف ـ يتصور أن الحج صحيح إلى موضع آخر



غير بيت الله الذى بناه إبراهيم - عليه السلام - وحج إليه محمد ﷺ، ونص عليه فى القرآن الكريم.

ونظام قبة الصخرة التخطيطى يشبه نظام كنيسة العذراء التى شيدها (جستنيان) فى أنطاكية، فقد اتخذت شكل بناء مثمن، أقيمت فوقه قبة عالية تغطيها الفسيفساء المزينة باللون الأخضر والذهبى، وحملت القبة على دائرة من العقود، نصف الدائرة، تقوم على أعمدة قديمة جلبت من عمائر قديمة، وعلى أكتاف، وارتبطت فيما بينها عند رءوس التيجان بأوتار خشبية ضخمة، ويفصل بين الصف الدائرى للعقود التى تقوم عليها القبة، والمثمن الخارجي للبناء كله، مثمن من العقود التى تقوم على الأعمدة والأكتاف، وقد ظل تخطيط قبة الصخرة فريداً فى العمارة الإسلامية فى عصورها المختلفة؛ لأن تصميمها يطابق الغرض الذى أقيمت من أجله؛ وهو تحويط الصخرة المقدسة بالحرم الشريف.

و - استئناف سياسة الفتوحات:

نشطت فتوح بلاد ما وراء النهر منذ أن ولى الحجاج بن يوسف خراسان مع العراقين فى سنة (78هـ)، فى خلافة عبد الملك بن مروان؛ ومن مدن المشرق التى تم فتحها فى عهد عبد الملك، أو أعلنت خضوعها للدولة الإسلامية بدفع الجزية: خجندة، وبلاد الصغد، وإقليم تركستان، وترمذ، ولمعت آنذاك أسماء قواد عظماء مثل: المهلب بن أبى صفرة، وقتيبة بن مسلم، وغيرهما.

وفى المغرب اتسعت رقعة الدولة الإسلامية؛ بفضل جهود عبد الملك، وما حققه عماله وقادته من فتوحات؛ حيث نجح حسان بن النعمان الغسانى فى القضاء على المقاومة البربرية والبيزنطية، بعد أن سحق جيش الكاهنة سنة (82هـ)، واستعاد قرطاجنة، وأنشأ إلى الشرق منها مدينة تونس، وبنى بها داراً لصناعة الأسطول، وأسس فيها مسجداً جامعًا، وداراً للإمارة، وثكنات للجند؛ حتى أصبحت من أعظم مدن المغرب.

وفى سنة (85هـ) ولى موسى بن نصير إفريقية، فنجح فى فتح المغرب كله، ولم تستعص عليه منهـا سوى مدينة سبتة؛ لمناعتهـا، ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطية[1].

***

(1) راجع: السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص: 256، وما بعدها، د/ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص: 351، 405، وما بعدهما، مؤسسة شباب الجامعة ـ الإسكندرية ـ بدون تاريخ، د/ حسين مؤنس: المساجد، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد37، ص: 155، 1981م، د/ طه عبد المقصود: دراسات فى تاريخ الخلافة الأموية، ص: 345وما بعدها.

(5) الوليد بن عبد الملك (86 - 96هـ)

أ - التطوير الإدارى:

حذا الوليد بن عبد الملك حذو أبيه؛ فى العناية بإصلاح النظم الإدارية وتطويرها، فحول ديوان الخراج فى مصر إلى العربية بعد أن كان باليونانية، يؤيد ذلك أوراق البردى العربية التى يرجع تاريخها إلى عهد الوليد؛ حيث دونت باليونانية والعربية معًا.

ومنذ عهد الوليد ورد فى المصادر التاريخية اسم "ديوان المستغلات"، ويبدو أن الغرض منه كان إدارة الأبنية والحوانيت والعمارات.

وكذلك عُنى الوليد بديوان البريد عناية فائقة؛ لأنه يسهل مهمة الحكم فى دولة اتسعت أطرافها، وكان الوليد يحمل على البريد الفسيفساء المذهب من القسطنطينية إلى دمشق؛ حتى صفح منه حيطان المسجد الجامع بها، ومساجد مكة والمدينة والقدس.

ب - استمرار التجنيد الإجبارى:

إن حال التجنيد من تطوع وإجبار كان يتغير بين حين وآخر بتغير الأمراء، واختلاف ظروف القتال، وقوة الخلافة نفسها، وسياستها فى التوسع والفتح.

ولما كان عهد الوليد بن عبد الملك عهد فتح وجهاد، حتى بلغت الدولة الأموية أقصى اتساع لها، فقد استمرت حالة التجنيد الإجبارى، لتمكين الجيش من أداء مهمته فى الغزو والتوسع.

وكان الحجاج يشتد فى تجنيد الناس، فلا يدع قرشيًا ولا رجلاً من بيوتات العرب، حتى روى أنه ضرب البعث على المحتلمين[1]، ومن أنبت من الصبيان، فكانت المرأة تجىء إلى ابنها - وقد جرد - فتضمه إليها، وتقول له: بأبى؛ جزعًا عليه.

(1) الذين لم يبلغوا الحلم (سن البلوغ).



جـ - العناية بالطرق والعمارة والبناء:

يعد الوليد بن عبد الملك ـ بحق ـ أعظم خلفاء بنى أمية أثرًا فى ميدان البناء والعمران، حتى قيل: إن الناس فى دمشق كانوا يتحدثون فى عهد الوليد عن البناء والعمائر وجمالها، وفى عهد سليمان بن عبد الملك عن الطعام والشراب، وفى عهد عمر بن عبد العزيز عن الدين والقرآن؛ إشارة إلى أن الناس كانوا يسيرون سيرة خليفتهم، فكانوا فى عهد الوليد ـ تأثرًا به ـ يحرصون على التشييد والتأسيس، ويولعون بالضياع والعمارات؛ لوفرة الثروة فى أيديهم.

وقد أنشأ الوليد عددًا من الطرق، ومهدها، ولاسيما الطرق المؤدية إلى الحجاز، كما حفر الآبار على طول هذه الطرق، ووظف لها من يُعنى بها، ويمد الناس بمائها، وحشد الوليد لأعمال العمران آلاف العمال الذين استقدمهم من مصر، ومن مناطق الشام المختلفة، ومن الهند وبلاد فارس.

وكان الوليد أول من أمر بتشييد المستشفيات لذوى الأمراض المزمنة؛ حيث يذكر اليعقوبى: أنه أول من عمل البيمارستان للمرضى، وأول من أجرى الأرزاق على العميان والمساكين والمجذومين.

وعُنى الوليد عناية فائقة ببناء وتجديد المساجد الكبرى، وذلك على النحو التالى:

1 ـ المسجد الحرام:

فقد اشترى الوليد كثيرًا من الدور التى كانت تقع حول الكعبة، وهدمها وضمها إلى المسجد، وأرسل إلى خالد بن عبد الله القسرى (عامله على مكة) ثلاثين ألف مثقال ذهبًا، فصفَّح باب الكعبة، والميزاب والأساطين؛ وذلك لمزيد من التحسين والتجميل، وبنى سور المسجد على عُمدٍ من الرخام.



2 ـ المسجد النبوى:

فقد أمر الوليد ابنَ عمه عمر بن عبد العزيز ـ وكان واليًا على المدينة النبوية (87 ـ 93هـ) ـ أن يهدم المسجد النبوى، ويعيد بناءه وتوسعته، وأرسل إليه أموالاً كثيرة لهذا الغرض، وثمانين عاملاً من عمال البناء، من الشام وقبط مصر، وكميات كبير من الفُسيفساء، وقد عهد عمر بالإشراف على البناء إلى واحد من كبار الفقهاء التابعين، وهو "صالح بن كيسان"، المتوفى فى حدود سنة (140هـ)، وكان مؤدبًا لعمر بن عبد العزيز ثم لأولاده، وكان ثقة، صالحًا، فقيهًا، مُحدثًا.

وقد استمر العمل فى البناء نحو ثلاث سنوات، وفى سنة (91هـ) حج الوليد بن عبد الملك وزار المسجد النبوى.

3 ـ المسجد الأقصى:

بناه الوليد بالقرب من مسجد قبة الصخرة، وقد زينه الوليد بالفسيفساء والرخام، واحتفل ببنائه كاحتفاله بالمسجد الحرام، والمسجد النبوى.

4 ـ الجامع الأموى بدمشق:

وهو أعظم المساجد التى أنشأها الوليد بن عبد الملك؛ بل لعله أعظم العمائر التى خلفها لنا العصر الأموى، وكان موضع بنائه كنيسة يوحنا المعمدان؛ التى أقامها الإمبراطور (ثيو دوسيوس) داخل معبد الإله جوبيتر الدمشقى، وهو معبد وثنى قديم، احتفظت الكنيسة بجدرانه الخارجية، وأبراجه الأربعة القائمة فى الأركان. فلما افتتح المسلمون دمشق دخلها خالد بن الوليد من الجهة الشرقية عنوة، وانتهى إلى النصف الشرقى من الكنيسة، فاتخذه المسلمون مسجدًا، بينما دخل أبو عبيدة المدينة من الجهة الغربية صلحًا، فترك النصف الثانى من الكنيسة للنصارى، وبذلك شارك المسلمون نصارى دمشق فى كنيستهم الكبرى، وأقاموا صلواتهم فى النصف الشرقى دون أن يقوموا بإجراء أى تغيير معمارى فيه، واكتفوا باتخاذ موضع القبلة فى الجدار القبلى.

وقد حاول معاوية بن أبى سفيان أن يقنع نصارى دمشق بالتنازل عن نصيبهم لضمه إلى المسجد، فأبوا إباءً شديداً، فأمسك عن طلبه، وعاود عبد الملك بن مروان مطالبتهم بهذا الشطر؛ لإدخاله فى الجامع، وبذل لهم مالاً، فأبوا أن يسلموه إليه، فلما تولى الوليد الخلافة رأى أن يقيم مسجداً جامعًا للمسلمين لا يقل عظمة عن الكنائس البيزنطية العظمى، فقد رأى الشام بلداً يكثر فيه النصارى، ورأى لهم بيعًا حسنة قد بولغ فى زخارفها، وانتشر ذكرها مثل كنيسة القيامة، وبيعتا اللد والرها، فبادر بمفاوضة أصحاب الكنيسة فى التخلى عن شطرهم، وعرض عليهم مالاً كثيراً؛ لقاء تنازلهم عن هذا الشطر، فلما أبوا انتزعه منهم قسراً، وأمر بهدم الكنيسة والجامع القديم، وبناء الجامع، وتم بناؤه فى عام (87هـ / 706م)، وعلى الرغم من أن هذا الجامع تعرض للحريق عدة مرات، وأضيف إليه، وجُوِّد عدة مرات، فإنه لا يزال يحتفظ حتى اليوم بتخطيطه الإسلامى الأموى، ويشتمل على بيت للصلاة، وصحن (أى فناء) تحيط به أروقة، ويتألف بيت الصلاة من ثلاثة أروقة موازية لجدار القبلة تجملها أعمدة رخامية، ويعترض هذه البلاطات فى منتصفها؛ بلاط أوسط عمودى على جدار القبلة، ينتهى بالمحراب، يتجاوز فى ارتفاعه البلاطات العرضية الأخرى؛ الممتدة من الشرق إلى الغرب، فبينما يبلغ (15م) فى هذه البلاطات، يصل إلى نحو(23م) فى البلاطة الوسطى. وتعلو هذه البلاطات أسقف منشورية الشكل، فى حين يقوم عليها فى منتصف بلاط القبلة قبة حجرية أضيفت فى عصر متأخر، وكانت جدران المسجد مكسوة بزخارف من الفسيفساء الملونة والمذهبة.

وقيل: إن الوليد أنفق على عمارة هذا المسجد خراج المملكة سبع سنين، وقيل: إن حساب ما أنفق على المسجد حمل ثمانية عشر بعيراً، فأمر الوليد بإحراق الحساب، ولم ينظر فيه، وقال: "هو شيء أخرجناه لله فلم نتتبعه".

5 ـ الجامع الأموى فى حلب:

ويقال إنه كـان معادلاً للجامع الأمـوى فى دمشق؛ بجماله وفنـه، وخاصة أحجاره المرمرية وفسيفسائه[1].

* * *

(1) د/ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص: 438 ـ 440، د/ سيدة إسماعيل كاشف: الوليد بن عبد الملك، ص(173 ـ 207)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، العدد (238)، د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام 1/ 298، وما بعدها، 1/450.

(6) سليمان بن عبد الملك (96 - 99هـ)(1)

أ - الإحسان إلى الرعية:

وصف المؤرخون سليمان بن عبد الملك بأنه كان مؤثرًا للعدل، راغبًا فى الخير؛ ولذلك فلم يكد يلى الخلافة سنة (99هـ)؛ حتى رد المظالم، وفك الأسرى، وأطلق أهل السجون، وأحسن إلى الفقراء، وخفف عن الناس كثيرًا مما أرهقهم به عمال الوليد بن عبد الملك؛ بفضل توجيهات وزيره عمر بن العزيز، ورجاء بن حيوة.

ب - بناء مدينة الرملة:

وفى سياق اهتمام خلفاء بنى أمية بالبناء والعمران، قام سليمان بن عبد الملك ببناء مدينة الرملة سنة (98هـ)، وهى مدينة عظيمة بفلسطين، كما يذكر ياقوت الحموى فى معجم البلدان.

جـ - محاولة فتح القسطنطينية:

يصف ابن الطقطقى أيام سليمان بن عبد الملك: "بأنها كانت ذات فتوح متوالية"، وربما كانت محاولة فتح القسطنطينية من أهم ما يُذكر له فى هذه السبيل.

وكان الوليد قد شرع فى إرسال حملة للاستيلاء على القسطنطينية، ولكنه توفى قبل مسير هذه الحملة، فلما ولى سليمان الخلافة، أنفذ هذه الحملة، ورابط فى مرج دابق على بعد أربعة فراسخ من حلب. وقد دافع أنستسياس الثانى (إمبراطور الروم) عن حاضرة ملكه بكل ما أوتى من قوة، وأرسل إلى الثغور

---

(1) راجع: أبو الحسن الروحى: بلغة الظرفاء فى تاريخ الخلفاء، ص:153، 154، ابن الطقطقا: الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص: 128، السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص: 269 ـ 271، د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام1/ 323.



حملة؛ لتحـول دون وصول الأقوات والمؤن إلى جند المسلمين، ولكنهـا أخفقت، وانضم إلى جيش المسلمين فى آسـيا الصغرى ليو الأزورى البـيزنطى، وكان يطمع فى الملك، واتحد مع مسلمة بن عبـد الملك بن مروان (أمير هذه الحملة)، ومن ثم أخذ المسلمـون يستـولون على بلاد آسيا الصـغرى مدينة تلـو مدينة؛ حتى عـبروا البحـر، ووصلوا إلى أسوار القـسطنطينيـة، وتبعهم أسطـول المسلمين من الثـغور الشامية والمصرية، واشترك فى حصار حاضرة البيزنطيين.

غير أن (ليو) خرج على صفـوف المسلمين، وأعلن نفسه إمبراطوراً بدلاً من (أنستسيـاس) الذى كان مكروهًا من الأهلين، واشتد حصـار المسلمين للمدينة من البحر، وهاجمـها أسطولهم، فعمل (ليو) على استدارج سـفن المسلمين، ففتكت بها النـار الإغريقيـة، ونفدت أقـواتهم، فتـحملوا آلام الجوع والمرض؛ حـتى فنى جُلهم بعد أن دمرت أكثر سفنهم.

* * *

(7) عمر بن عبد العزيز (99 - 101هـ)(1)

أ - إبطاله سب على بن أبى طالب فى الخطبة:

كان بنو أمية يسبون على بن أبى طالب على المنابر فى الخطبة، فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، أبطل ذلك، وكتب إلى نوابه بإبطاله، على أن يقرأ مكانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل].

فاستحسن الناس ذلك، ومدحه الشعراء، فممن مدحه كثير عزة بقوله:

وَلِيتَ فلم تَشْتُم عليًا ولم تُخِف ... بَرِيًا ولم تَتبَعْ مقالةَ مُجْرِمِ

ورثاه الشريف الرضى بقوله:

يا ابنَ عبد العزيز لو بكتْ العَيْـ ... ـنُ فتىً من أمية لبكَيْتُكَ

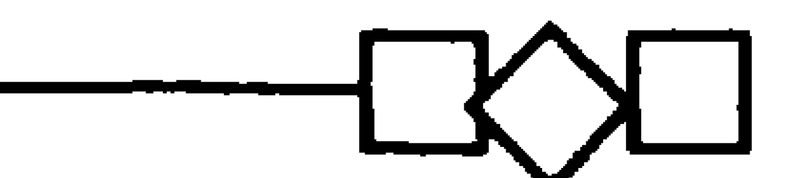
أنتَ أنقذْتَنَا من السَبِّ والشتـ ... ـمِ فلو أمكنَ الجزاءُ جزيْتُكَ

ب - تمسكه بالكتاب والسنة منهاجًا للحكم:

فبعد أن ولى الخلافة خطب الناس قائلاً: "أيها الناس؛ إنه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبى بعد محمد ﷺ الا وإنى لست بقاضٍ؛ ولكنى منفذ، ولست بمبتدع ولكنى متبع، ولست بخير من أحدكم، ولكنى أثقلكم حملاً، وإن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق".

---

(1) راجع: أبو الحسن الروحى: بلغة الظرفاء فى تاريخ الخلفاء، ص:156، ابن الطقطقا: الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص: 129، السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص: 272، وما بعدها، د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام 1/327 ـ 333، د/ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص:412.



جـ - الإصلاح المالى والتخفيف عن الرعية:

الواقع أن الإصلاح المالى الذى نهض به الخليفة العظيم (عمر بن عبد العزيز) كان يصب فى مصلحة الرعية، ولم يكن الهدف منه زيادة موارد بيت المال، فقد رفع عمر الجزية عمن أسلم، وخفف الضرائب عن عامة المسلمين، ولاسيما الموالى من الفرس.

فكانت النتيجة أن نقص إيراد بيت المال نقصًا ملموسًا، فأشار بعض الولاة بعدم رفع الجزية عمن أسلم، فرفض عمر رفضًا قاطعًا؛ بدافعٍ من شدة إيمانه، وحرصه على إعلاء كلمة الله، وكان مما قاله لأحد ولاته: "إنَّ الله إنما بعث محمدًا ﷺ هاديًا، ولم يبعثه جابيًا، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الإسلام على يديه".

د - الدعوة إلى الإسلام والحرص على نشره:

وفى ضوء فقه عمر بن عبد العزيز لغاية البعثة المحمدية، وأنها ليست سوى هدايتهم ودعوتهم إلى الاستقامة على منهاج الإسلام، وليست كما فهمها البعض جزية وجباية، جعل عمر يتخذ التدابير لنشر الدعوة الإسلامية، فتألف أهالى البلاد المفتوحة بحسن المعاملة، والتسامح حينًا، وبالمال أحيانًا؛ لتشجيعهم على الدخول فى الإسلام، حتى إنه كان يمنحهم هبات من بيت المال، وقيل: إنه أعطى قائدًا نصرانيًّا ألف دينار يتألفه بها على الإسلام، كما أمر عماله بدعوة أهل الذمة إلى الإسلام، وقد قيل: إن الجراح بن عبد الله عامله على خراسان أدخل فى الإسلام نحوًا من أربعة آلاف شخص، كما كتب عمر إلى ليو الثالث (ملك الروم) يدعوه إلى الإسلام.

ودخل كثير من أهالى بلاد ما وراء النهر فى الإسلام؛ استجابة لسياسة التسامح التى انتهجها عمر، وكذلك استجاب لدعوته كثير من أمراء السند.



وحرص عمر كذلك على تفقيه مسلمى البربر بشئون دينهم من خلال ما أرسله إليهم من دعاة وفقهاء؛ حتى لم يبق واحد منهم لم يدخل فى الإسلام.

وبلغ من تأثير سياسة التسامح التى انتهجها عمر أن أحد كتاب النساطرة كان يضيف كلمات التبجيل والتقديس إلى اسم الرسول وإلى أسماء الخلفاء الأول، كلما عرض لذكرهم، ويستنزل الرحمة على عمر بن عبد العزيز.

هـ - ضرب المثل للحكام فى الزهد والتقشف والتعفف عن أموال الرعية:

كان عمر بن عبد العزيز فى غاية النسك والصلاح والتواضع، مع الزهد والتقشف، رغم ما كان عليه قبل الخلافة من ثراء وميلٍ إلى التنعم، والتمتع بمتع الحياة ولذائذها. والحكايات المروية عنه فى هذا الجانب أكثر من أن تحصى، ولا بأس من الإشارة إلى بعضها.

قال مالك بن دينار: الناسُ يقولون: مالك زاهد، وإنما الزاهد عمر بن عبد العزيز؛ الذى أتته الدنيا فتركها.

وقال يونس بن أبى شبيب: شهدت عمر بن عبد العزيز وإن حُجْزَةَ إزاره لغائبة فى عُكَنه، ثم رأيته بعد ما استخلف، ولو شئت أن أعد أضلاعه من غير أن أمَسَّها لفعلت.

وقال ولده عبد العزيز: سألنى أبو جعفر المنصور: كم كانت غلة أبيك حين أفْضت الخلافة إليه؟ قلت: أربعين ألف دينار، قال: فكم كانت حين توفى؟ قلت: أربعمائة دينار، ولو بقى لنقصت.

وقال مَسْلَمة بن عبد الملك: دخلت على عمر بن عبد العزيز أعُودُهُ فى مرضه، فإذا عليه قميص وسخ، فقلت لفاطمة بنت عبد الملك: ألا تغسلون قميصه؟ قالت: والله ما له قميص غيره.

قال أبو أمية الخصى غلام عمر: دخلت يومًا على مولاتى فغَدّتْنى عدسًا، فقلت: كل يوم عدس؟ قالت: يا بنىّ هذا طعام مولاك أمير المؤمنين.



وقال عَوْنُ بن المعـمر: دخل عمر على امرأته فقـال: يا فاطمة عندك درهم أشتـرى به عنبًـا؟ فقـالت: لا، وقالت: وأنت أمـير المؤمنين لا تقـدر على درهم تشترى به عنبًا؟! قال: هذا أهون علينا من معالجة الأغلال غدًا فى جهنم.

وقال الوليد بن أبى السائب: ما رأيت أحدًا قط أخْوَفَ لله من عمر.

وقال سعـيد بن سويد، صلى عـمر بالناس الجمعـة ـ وعليه قميص مـرقوع الجـيب من بين يديه ومن خلفـه ـ فقـال له رجل: يا أمـير المؤمنين: إن الله قـد أعطاك، فلو لبـست، فنكس مَلِيًّـا، ثم رفع رأسـه فقال: إن أفـضل القصـد عند الجِدَةِ، وأفضل العفو عند القدرة.

وقال عمرو بن مهاجر: كانت نفقة عمر بن عبد العزيز كل يوم درهمين.

وقال عطاء الخراسـانى: أمر عمر غـلامه أن يسخن له ماء، فانـطلق فسخن قمقمًا فى مطبخ العامة، فأمر عمر أن يأخذ بدرهم حطبًا يضعه فى المطبخ.

وقال عمـرو بن مهاجر: كـان عمر يسرج عليـه الشمعة مـا كان فى حوائج المسلمين، فإذا فرغ من حوائجهم أطفأها، ثم أسرج عليه سراجه.

و - الرفق فى معاملة خصوم الدولة:

كان من سـياسة عـمر بن عبـد العزيز أن يجنح إلى الرفق والمسـالمة؛ لجمع الشمل، وتوحيد الكلمة، ومن أمثلة ذلك: أن الخوارج لما خرجوا فى عهده لم يشأ أن يسلك معـهم سبيل العنف والشـدة، كما كان يفـعل من سبقـه من خلفاء بنى أمية؛ ولكنه ناظرهم، وقارعـهم بالحجة، ونجح فى إقناع الرسل الذين أرسلهم إليه زعيم الخوارج.

حيث يروى أن الخوارج لما خرجوا فى عهـد عمر أرسل إلى زعيمهم شوذب كتابًا يقول فيه:



"بلغنى أنك خرجت غضبًا لله ولنبيه، ولست أولى بذلك منى، فهلم أناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرنا"، فكتب شوذب إلى عمر: "لقد أنصفت، وقد أرسلت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك".

وكان عمر بن عبد العزيز يرمى بهذا العمل إلى إزالة الخلف بين الفريقين، عن طريق الإقناع بالحجة والبرهان... ولم يرد بما عرف عنه من كراهة لإراقة دماء المسلمين إلا أن يسلك معهم سبل اللين، وقد أثمرت سياسة عمر، فشهد أحد هذين الخارجين المتناظرين بأن عمر على صواب، وذكر المسعودى: أن أحد هذين الرسولين قال لعمر: "ما سمعت كاليوم قط حجة أبين وأقرب مأخذًا من حجتك، أما أنا فأشهد أنك على الحق، وأنا برىء منك"، فقال عمر للرسول الآخر: "فأنت ما تقول"؟ قال: ما أحسن ما قلت وأبين ما وصفت! ولكنى لا أفتات على المسلمين بأمر؛ حتى تعرض عليهم قولك، فأنظر ما حجتهم، ثم مضى أحد الرسولين إلى شوذب وأتباعه؛ ليطلعهم على ما دار فى هذه المناظرة، ولكن المنية لم تلبث أن عاجلت عمر (25 رجب سنة101هـ).

ز - البناء والتعمير:

واصل عمر بن عبد العزيز سياسة أسلافه فى تعمير البلاد؛ فبنى الجحفة، وهى قرية كبيرة على طريق المدينة، وسميت الجحفة؛ لأن السيل اجتحفها، وحمل أهلها فى بعض الأعوام.

واشترى ملطية من ملك الروم بمائة ألف أسير وأعاد بناءها سنة (99هـ).

ح - النظر فى المظالم:

فى سياق المشروع الإصلاحى الذى قام به عمر بن عبد العزيز، تجدر الإشارة إلى أنه كان أول من ندب نفسه للنظر فى المظالم فردها، وراعى السنن العادلة



وأعادها، ورد مظالم بنى أمية على أهلها حتى قيل له، وقد شدد عليهم فيها وأغلظ: "إنا نخاف عليك من ردها العواقب"، فقال: "كل يوم أتقيه وأخافه دون يوم القيامة لا وقيته"[1].

* * *

(1) راجع: أبو الحسن الروحى: بلغة الظرفاء فى تاريخ الخلفاء، ص:156، ابن الطقطقا: الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص: 129، السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص: 273، وما بعدها، د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام 1/ 327 ـ 333، د/ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص:412.

(8) هشام بن عبد الملك (105 - 125هـ)[1]

أ ـ أدخل هشام بن عبد الملك نظام الأحداث، وكان صاحبه يضطلع بالأعمال العسكرية التى تعد وسطًا بين أعمال صاحب الشرطة والقائد.

ب ـ اهتم هشام بالقضاء اهتمامًا كبيراً، وتحرى فيمن يعهد إليه بهذا المنصب الجليل الكفاية والعدالة، فكان لا يتردد فى عزل من يشذ منهم عن الطريق السوى، وقد حكى الكندى أن هشامًا بلغه أن يحيى بن ميمون الحضرمى لم ينصف يتيمًا احتكم إليه بعد بلوغه، فكتب إلى عامله على مصر يقول: "اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذمومًا مدحوراً، وتخير لقضاء جندك رجلاً عفيفًا، ورعًا تقيًا، سليمًا من العيوب، لا تأخذه فى الله لومة لائم".

جـ ـ واصل هشام سياسة أسلافه فى البناء والتعمير، فأنشأ مدينة الرصافة بالقرب من الرقة فى العراق، وأنشأ الحكم بن عوانة الكلبى مدينة المحفوظة فى السند، وأنشأ عمر بن محمد بن القاسم الثقفى مدينة المنصورة فى السند أيضًا، وبنى سعيد أخوه قبة بيت المقدس.

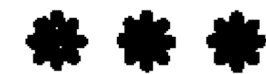
ومن إصلاحات هشام: تقوية الثغور، وحفر القنوات والبرك فى طريق مكة، ولما تولى خالد بن عبد الله القسرى العراق فى عهده (105 ـ 120هـ)؛ استصلح الأراضى، وشق الأنهار، فحفر بالعراق أنهاراً عديدة من أشهرها: نهر المبارك، ونهر خالد، ونهر الجامع، وغيرها، كما قام ببناء أسواق جديدة، وجعل لأهل كل حرفة مكانًا خاصًا بهم. وقد بلغت نفقات حفر نهر المبارك (12) مليون درهم، وكان هذا النهر يسقى مساحات واسعة من أراضى السواد، وهى المناطق الواقعة بين واسط والبصرة.

---

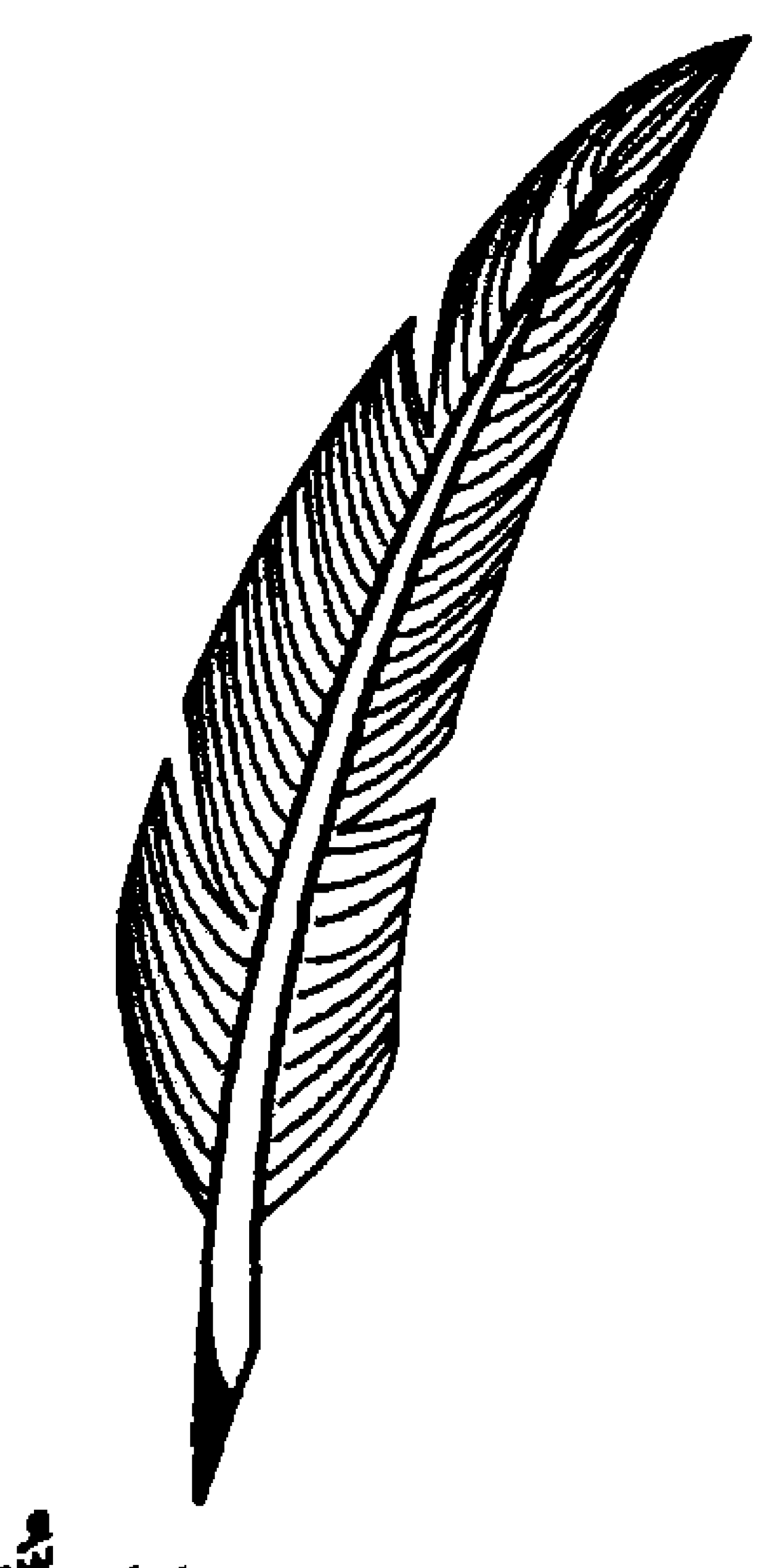
(1) راجع: أبو الحسن الروحى: بلغة الظرفاء فى تاريخ الخلفاء، ص: 159، السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص: 296، 297، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام 1/ 333، طه عبد المقصود: دراسات فى تاريخ الخلافة الأموية، ص: 357، 358.

د ـ وفى عهده فتـحت قيصرية الروم سنة (107هـ)، وفى سنة ثمان فتحت خنجرة، وفى سنة اثنتى عشرة فتحت خرشنة فى ناحية ملطية.

هـ ـ واستمرت فى عهده كذلك سياسة الإصلاح النقدى، فإبان ولاية خالد القسـرى للعراق جـود الدراهم، واشتـد فى العيـار؛ حتى أحكم أمر النـقود أبلغ إحكام.



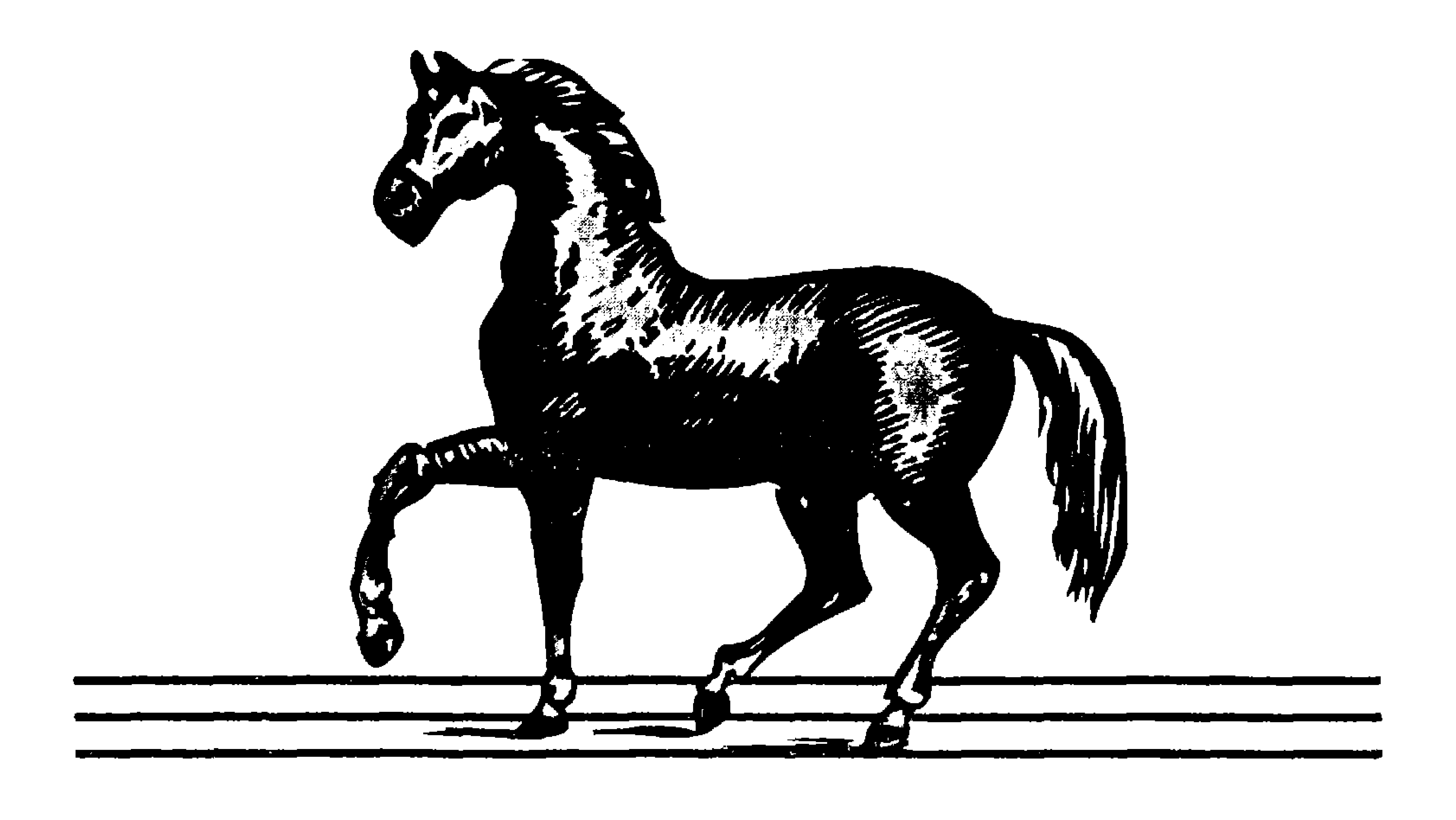




الرُّقى الفنى والتنظيمى

فى العصر الأموى

«نظام النقابات» (نموذجا)



على الرغم من أن (برنارد لويس) فى كتابته (عن النقـابات الإسلامية) يتسـم بكثير من غموض الرؤية والموقف[1]؛ فإنه ـ مع ذلك ـ لم يملك إلا أن يعترف بأن طوائف أهل الصناعات والحرف تعد من أهم ظواهر الحضارة الإسلامية فى القرون الوسطى[2]، وبأننا: (نجـد فى أصناف الحرف فى الإسـلام ما يسـاوى تلك الحيـاة القـوميـة التى هى من أبرز مظاهر تاريخ أوروبا فى القـرون الوسطى. . . فالنقـابة كانت مـهمة فى الحيـاة الإسلاميـة؛ لدرجة أن تخطيط المدينة (الإسلامـيـة) ـ التى كانت تبنى على أسـس تجارية ـ كان يقرر فـى كثير من الأحـيان حسب حـاجات أصحاب الحرف[3].

ويتابع (برنارد لويس) تحليله معتـرفًا بأن هناك رأيًا يقول: "بأن هذه النقابات هى متـممة للنقـابات البيزنطيـة التى سبقـتها إذ كانت توجـد نقابات متـعددة فى المقاطعات البيزنطية، كسوريا ومـصر حتى القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى)، وليس من المحتمل أنه قضى عليها من قبل الفاتحين العرب الذين كانت سياستهم ـ كما نعلم ـ ترك الهيئات الإدارية والاقتصادية التى خلفها البيزنطيون كما كانت عليه تقريبًا. ومع ذلك لا نرى أية إشـارة إلى وجود نقابات إسلامية قبـل القرن العاشر الميلادى، أى بعد ثلاثة قرون (من بدء الفتح)، كما أن هذه النقابات كانت من نوع يختلف تمامًا عن النقابات الموجودة قبل الفتح الإسلامى[4].

وهذا التـحليل فى رأينا هو الفـقـه السـديد المنسـجم مع أسلوب المسلمـين الإدارى بعامة، ويؤكد هذا ما ذكرته الدكتورة/ صفى على محمد عبد الله: من أن

---

(1) انظر مقال: النقابات الإسـلامية، ترجمة/ عبد العـزيز الدورى فى مجلة الرسالة، أعداد 355، 362، 456، لسنة (1940م) القاهرة.

(2) الرسالة: المرجع السابق، ص: 696.

(3) المرجع السابق.

(4) المرجع السابق.

الأوضاع الاقتصادية السائدة فى تلك الفترة ساعدت على وجود هذا التنظيم الاجتماعى المتمثل فى الطوائف الحرفية، وأن العرب - لظروف توسعهم وفتوحاتهم - أبقوا على النظم والتقاليد السائدة فى البلاد المفتوحة التى كانت حصاد تطور استمر قرونًا، فقد ظلت المدن الحرة، والصناعات المختلفة تحتفظ بأنظمتها الإدارية وقوانينها وعاداتها[1].

وأما عدم وجود إشارة إلى نقابات إسلامية فى العصر الراشد والأقوى - كما يقول برنارد لويس - فمرد ذلك فى رأيى - لأمرين:

أولهما: غياب مصطلح النقابة نفسه وبقاء المضمون، مع إحلال مصطلحات أخرى مثل (أرباب الحرف)، أو (شيوخ الطوائف)، أو (العرفاء)، أو (المتقدمين). . .

وثانيهما: غياب المفهوم النقابى بالمعنى البيزنطى أو الأوروبى، واندماجه فى إطار الوظائف الإسلامية، مع احتفاظه بشعبيته بدرجة كبيرة أحيانًا، قليلة أحيانًا أخرى، إلا أنه كان على طول التاريخ الإسلامى متعاونًا مع المحتسب ومع القاضى، ومع أجهزة الدولة، فضلاً عن تأثر هذا المصطلح، وأصحابه بالمفاهيم الإسلامية العامة التى هذبت كثيراً من حدة الصدام بين أرباب المهن والدولة، وأصحاب المهن العاملين فيها. . . وكان القاضى - أولاً - والمحتسب - ثانيًا - صمامى أمان لحركة النشاط الصناعى والتجارى وأصحابها.

فليس غريبًا - إذن - ألا يوجد مصطلح (النقابة) فى مجال الحرف والصناعات ما دام هناك مصطلح يقوم مقامه، ويحقق مضمونه.

ويتقدم بنا المؤرخ ابن عبد الحكم خطوة أخرى فى مجال إثبات وجود أشكال من التنظيم الحرفى؛ حين يتحدث عن تخطيط المسلمين للفسطاط بمصر، وعن

(1) مدن مصر الصناعية فى العصر الإسلامى، ص: 405، طبع الهيئة المصرية للكتاب، 2000م.



جباية الخراج عند المسلمين، فيذكر أن جماعات الصناع، وأصحاب الحرف كانت كل طائفة منها تعين فى نطاق واحد، كما أن أسواقها كانت مقسمة تقسيمًا تخصصيًا بين أصحاب الحرف والتجارات المختلفة مثل أسواق البزازين، والوراقين، وكذلك سميت أسواق مدينة القطائع بمصر بعد أن بنيت، فقيل: سوق البزازين، والحلوانيين والسراجين، وكان لكل صنف من جميع الصنائع سوق[1].

ويقول عن تخطيط المسلمين للفسطاط: "إن العرب كانوا يختطون حول أصحاب القراطيس الدور"[2].

ويقول فى حديثه عن جباية الخراج عند المسلمين على الأسلوب البيزنطى: "فإذا فرغوا نظروا إلى ما فى كل قرية من الصناع والأجراء، فقسموا عليهم بقدر احتمالهم"[3].

هذا بالإضافة إلى ظاهرة التخصص فى الأسواق التى تؤكد بدورها وجود نوع ضيق من التكتل المهنى، يشير إلى أن "المضمون النقابى" كان موجوداً من خلال عدد من أشكال التكافل والتعاون، فقد كانت كل طائفة من أصحاب المهن أو الحرف تتجمع فى مكان واحد تسمى به وتعرف به صناعتهم، وكان لها حارتها، وسوقها الخاص؛ الذى كان فى الغالب حول المسجد[4].

كما كان فى مصر ـ أيضًا ـ نوع آخر من التخصص فى صناعة المنسوجات حيث ذاعت شهرة بعض المدن المصرية فى تلك الصناعة، فنسبت بعض أصناف المنسوجات إلى أماكن إنتاجها فى المدن (كما فى سائر الصناعات فى العالم الإسلامى)، ومن المنسوجات التى اشتهرت فى الأسواق الخارجية، والتى نسبت

(1) صفى على محمد عبد الله: مدن مصر الصناعية فى العصر الإسلامى، ص: 406، 407.

(2) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص: 115، والعرب كانت تسمى ما يكتب فيه بالقرطاس، انظر: أدب الكتاب، ص: 15.

(3) ابن عبد الحكم: مرجع سابق، ص: 153.

(4) صفى على: مرجع سابق، ص: 407.



إلى بعض المدن المصرية الدبيقى، نسبة إلى مدينة دبيق، والتنيسى الذى ينسب إلى مدينة تنيس، والشطوى الذى ينسب إلى مدينة شطا، وكانت كلها مدن حول بحيرة تنيس.

ولا شك أن نظام التخصص هذا ـ عبر إطارات مختلفة من الالتحام ـ يعمل على وجود طوائف خاصة لصناعة النسيج فى تلك المدن، كما فى بعض المهن الأخرى، وهكذا كانت تجمع صناع المهنة الواحدة، وتظهرهم بما يميزهم عن بقية أفراد المجتمع(1).

ويبدو أنه كانت هناك صور من التسابق أو التنافس غير المنظور بين الخلافة الأموية والإمبراطورية البيزنطية فى مجال الحرف وتنظيماتها، وهذا يدلنا على أن الدولة الإسلامية لم تكتف بالإبقاء على التنظيمات الموروثة من الدول التى هيمنت عليها؛ بل إنها سعت إلى مزيد من التطور والإفادة من الدول ذات الخبرة الطويلة فى مجال التنظيمات، فقد وقعت تشابهات متعددة بين الأمويين والبيزنطيين فى عدد من مجالات التنظيمات الحرفية مثل الجلود والخشب، والصابون والخزف، وفى صناعة المنسوجات بخاصة، وفى هذا الإطار يُذكر أن نقابة المنسوجات كانت تنقسم إلى قسمين بارزين عند الأمويين والبيزنطيين معًا:

أولهما: قسم النقابات الحكومية.

وثانيهما: النقابات الخاصة.

أما القسم الأول:

وهو النقابات الحكومية، فيختص بالنقابات التى تعمل تحت إدارة الحكومة فى صناعة أو صباغة الأقمشة الثمينة الخاصة بملابس الإمبراطور البيزنطى أو الخليفة الأموى، ورجال القصور هنا وهناك، إلى جانب المنسوجات الحريرية التى كان

(1) المرجع السابق.



الخليفة ـ أو الإمبراطور ـ يبعث بها إلى حكام الدول الأخرى، على شكل هدايا أو إتاوة أو جزية، ويكسو بها الخليفة الكعبة المشرفة، ويوجهها الإمبراطور لعمل ستائر الكنائس[1].

وفى القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) صدر قرار من الإمبراطور هرقل ـ نعتقد أنه كانت له أصداؤه فى الدولة الأموية ـ وهو القرار الذى يمد فترة السماح بالانخراط فى عضوية النقابات بالنسبة لأبناء أعضاء النقابة وأقربائهم، حيث أصبح التحاق أى عامل جديد بالنقابة لا يتم إلا فى حالة وجود مكان شاغر، وعلى المتقدمين للعمل أن يجتازوا امتحانًا يعقده لهم رؤساء الصنعة وموظفو الحكومة، واستمر هذا القرار سارى المفعول حتى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى)[2].

وفى الفترة ما بين القرنين الرابع والعاشر الميلادى (الرابع الهجرى) لم يحدث أى تغيير بالنسبة للتنظيمات الداخلية للنقابات، وكذلك للمراقبة الإدارية على المصانع الحكومية، ومن الراجح أن يكون والى المدينة هو صاحب السلطة العليا على الصناعة والتجارة فى المدينة، ويمكن أن يكون من مهامه مراقبة المصانع[3]، وهو ما يحدث بالضبط فى المراقبة الإدارية للحكومة الإسلامية على المصانع.

---

(1) ليو السادس الحكيم: كتاب والى المدينة، ترجمة د/ السيد البار العرينى، مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، مجلد 19، ج1، ص: 153 ـ 187، القاهرة (1957م)، وزكى محمد حسن: فنون الإسلامى، ص: 347.

(2) عبد الوهاب القرش: العلاقات الحضارية بين البيزنطيين والمسلمين فى الشام ومصر فى العصر الأموى، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية دار العلوم القاهرة.

(3) زكى محمد حسن: فنون الإسلام، ص: 347، نقلاً عن عبد الوهاب القرش: مرجع سابق.

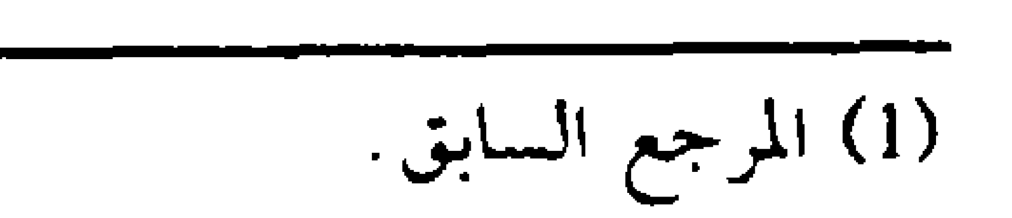


أما القسم الثانى:

وهو قسم النقابات الخاصة، وهى التى يطلق عليها اسم (SAMDTD)؛ تمييزاً لها عن النقابات العامة، فقد كانت تعمل فى صناعة المنسوجات التى تأتى فى الدرجة الثانية من حيث الجودة، وتبيعها إلى العامة من الناس، وتسهم بجانب أساسى فى التجارة الخارجية، وكانت هذه النقابات تقوم بتزويد الحكومة بجانب من الأقمشة كنوع من الضريبة أو الجزية العينية[1].

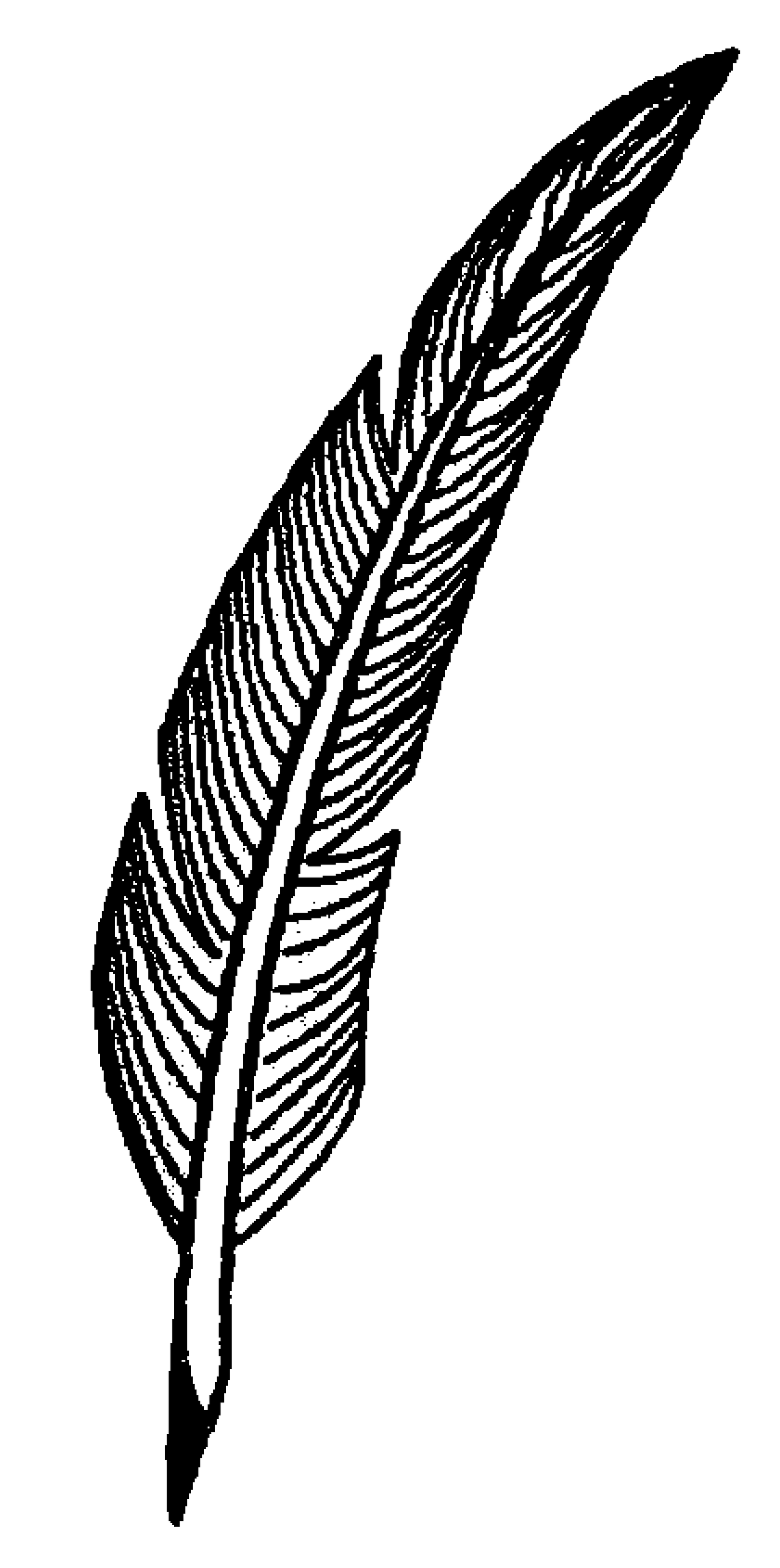
وهذا النموذج الذى ذكرناه (المنسوجات) يصلح قياسًا لغيره من النماذج التى تؤكد رقىّ التنظيمات الحرفية فى العصر الأموى وما قبله، وقدرة العرب على استيعاب التطورات الحضارية المحيطة بهم، والتعامل معها تعاملا نديًّا؛ لهذا ولا نستغرب أن تكثر التخصصات الدقيقة عندهم، وأن تكثر الأصناف عدداً وكيفًا، وأن يخرج العرب ببضائعهم إلى العالم بعد أن ركبوا البحار، وصنعوا الأساطيل، وهزموا الروم فى موقعة ذات الصوارى البحرية سنة (34هـ)، وعبروا بأسطول طارق بن زياد إلى الأندلس سنة (92هـ). . .

* * *

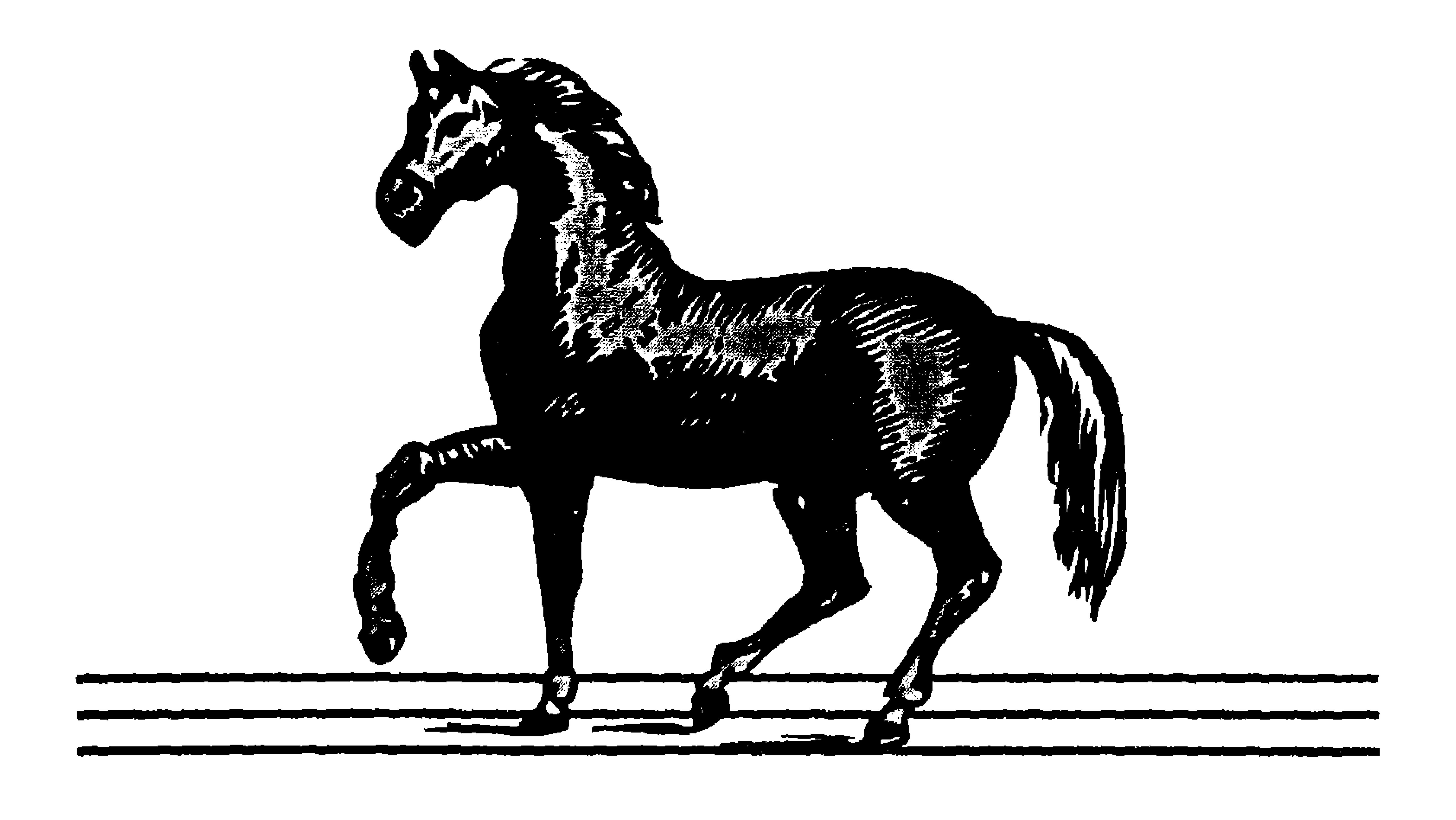


(1) المرجع السابق.





الفنون الصناعية
والقيم الجمالية الإسلامية
فى العصر الأموى



تميزت الفنون فى ظل الإسلام بمجموعة من القيم التى تبلورت فى المبادئ التالية:

مبدأ التكرار:

وهو تكرار العناصر الموجودة فى الطبيعة تأثراً بها ومحاكاة لها، وهو تكررا بلا ملل، لما فيه من تعمق فى الكون الفسيح اللامحدود.

مبدأ الإيقاع:

وهو تكرار العنصر على مسافات زمنية أو طولية، متساوية أو منتظمة التدرج تصاعديًا أو تنازليًا، وذلك أمر مناسب لأسلوب حياة الفنان المسلم الذى يعتمد على الترديد المستمر لنظام معين.

مبدأ التجريد:

وهو تجنب نقل الطبيعة نقلاً حرفيًا؛ بل الاعتماد على تطويع الشكل الطبيعى، وإخضاعه لأشكال هندسية معبرة عن روح الشكل وجوهره.

مبدأ الوحدة والتنوع:

وهو توحيد الأسلوب المستخدم فى الإبداع، مع التنوع فى وسائل تنفيذه وإخراجه للقضاء على الملل الذى يحدث نتيجة الاتحاد والتشابه.

مبدأ استخدام اللون:

للون قيمة واضحة عند الفنان المسلم؛ حيث يشيع استعماله فى الأعمال الفنية بمعان ودلالات معينة، فالألوان السوداء تعمى القلوب، وتكدر الأزواج، واللون الأصفر يمثل لون الشمس المشرقة، ولون رمال الصحراء الممتدة، واللون الأزرق هو لون قبة السماء والبحار ومن دلالاته العمق. . . وهكذا(1).

---

(1) عبد الفتاح مصطفى غنيمة: ميادين الحضارة العربية الإسلامية وأثرها على الحضارة الإنسانية 3/ 166 ـ 169، بتصرف، ط/ دار الفنون العربية بالإسكندرية.

مبدأ استخدام النسبة والتناسب:

وهو تكييف الأعمال الفنية مع حكمة الخالق فى خلقه، إذ إن أحكم المصنوعات وأتقن المركبات وأحسن المؤلفات ما كان تركيب بنيته، وتأليف أجزائه معتمداً على النسبة الأفضل المتناسبة مع ما حولها[1].

وإلى جانب هذه القيم والخصائص العامة التى أبدعها المسلمون بفضل الخبرات الفنية والصناعية المتنوعة الموروثة من الحضارات التى ورثوها، مع مزجها بالروح الإسلامية المنبثقة من عقيدة التوحيد، ومن النظرة الدينية والإنسانية للكون والحياة والإنسان. . . إلى جانب هذه القيم اتسم الفن الإسلامى بالجمع بين الإتقان والإحسان، فكان عمليًا وجماليًا زخرفيًا، فلم تكن الناحية الصناعية العملية- أو التقنية - هى الهدف وحدها؛ بل حرص الفنانون الحرفيون والصناع المسلمون على تزويق منتجاتهم الفنية بشتى أنواع الزخارف من رسوم كائنات حية بطريقة زخرفية، ومن زخارف هندسية ونباتية بالإضافة إلى الزخارف الكتابية[2].

ومن حيث استخدام الزخارف النباتية يلاحظ أن الفنانين المسلمين استخدموا عناصر زخرفية كثيرة مستمدة من عالم النبات من أشجار وأوراق وغصون وأزهار وثمار وغير ذلك. كما طوروا نوعين من هذه الزخارف النباتية، أطلق عليه الأوروبيون اسم "أرابسك" (Arabesque) نسبة إلى العرب ويسمونها أحيانًا نصف مروحة نخيلية[3].

وبلغ الفن الإسلامى فى الزخارف الهندسية مرتبة لا يدانيه فيها أى فن آخر؛ فقد طور المسلمون الزخارف الإسلامية على أسس مدروسة، ومن أمثلة تلك

(1) المرجع السابق بتصرف.

(2) حسن الباشا: دراسات فى الحضارة الإسلامية، ص:149، ط/ دار النهضة بالقاهرة، سنة 1975م.

(3) السابق، ص: 149 ـ 150.



الزخارف ما اصطلح على تسميته بالأطباق النجمية، وهى تتألف من عناصر هى الترس واللوزة والكندة[1].

وتدلنا المنتجات الفنية التى وصلتنا من عهد الأمويين من سنة (41ـ132هـ / 661 ـ 750م) على أن الفن الإسلامى اتخذ فى ذلك العصر طابعًا خاصًا متميزًا، وأن الإسلام أنتج فنًا يضاهى فى قيمته وعظمته انتصاراته السياسية والحربية والإدارية، ويسمى (الطراز الأموى)، حاملاً معه فى كل إقليم من أقاليم الدولة الإسلامية قسمات الفنون السابقة بها[2].

كما أنه يستمد فى الوقت نفسه التقاليد الفنية فى الأقاليم الأخرى الخاضعة للإسلام، والتى أتاح لها الحكم الواحد فرصة الامتزاج، وفى الوقت نفسه كان متمشيًا ـ أيضًا ـ مع تعاليم الدين الجديد، وروحه وشعائره، والطابع العربى[3].

وكان من الأسباب الرئيسية فى انتشار الكتابة العربية تعريب الدواوين فى عهد الخليفة الأموى "عبد الملك بن مروان"، كما كان الخط العربى الوسيلة الأساسية التى حفظ بها القرآن؛ إذ اتخذ النبى ﷺ كُتابًا يدونون الآيات الكريمة عند نزولها بخط عربى[4].

وكان لكتابة القرآن ولقراءته فى المصاحف أثر كبير فى إعلاء شأن الخط العربى، وفى تحسينه وتزيينه وفى النظر إليه بإكبار[5].

وربما كان من أهم مظاهر العناية بالخط العربى تفريعه إلى عدد من الخطوط، يتميز كل منها بخصائص معينة، وأهم هذه الخطوط نوعان رئيسيان هما الخط الكوفى المزوى الجاف، وخط النسخ المقور.

(1) حسن الباشا: دراسات فى الحضارة الإسلامية، ص: 150.

(2) السابق، ص: 151.

(3) السابق، ص: 151

(4) السابق، ص: 161.

(5) السابق، ص: 168.

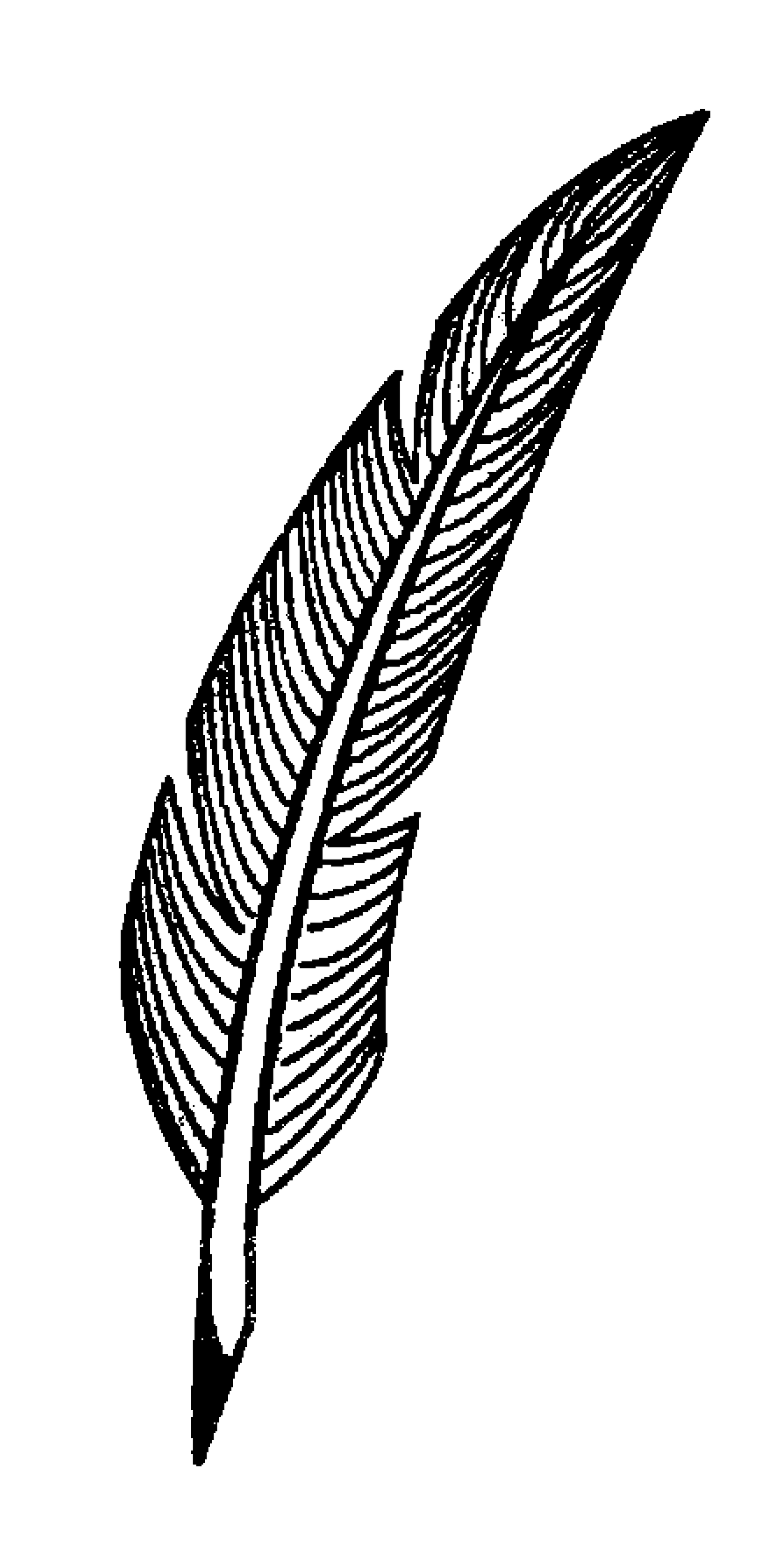


غـير أنه فى القـرون الخـمسـة الأولى غلب اسـتعـمـال الخط المبسـوط فى المصاحف، وفى الكتابات التذكارية الأثرية، وفى زخرفة الفنون التطبيقية، فى حين غلب استـعمال الخط المقـور فى المكاتبات اليـومية، وفى نسخ الكتب، وأقـدم ما وصلنا من أمثلة لاستخدامه فى النقوش سد العيار بالطائف؛ الذى يرجع إلى عهد معاوية بن أبى سفيان، وكتابات قبة الصخرة، وكتابات الأميال من عهد عبد الملك ابن مروان[1].

وكل هذا يدل على نضج فنى إسـلامى كبيـر ظهر مع ظهـور دولة الإسلام العالمية، كما يدل ـ كذلك ـ على طبـيعة الموقف الإسلامى من الفنون، ومن القيم الجماليـة، سواء فى الحرف والصناعات، أم فى الجـمالات الفنية المستـقلة، كالخط والكتـابة والتصـوير الزخـرفى، وكل ذلك مـا كان يمكن أن يـتم دون تنظيمـات جمـاعية حرفـية، فالظواهر الحـضارية تحتـاج إلى عمل جمـاعى منظم قادر على تطويرها.

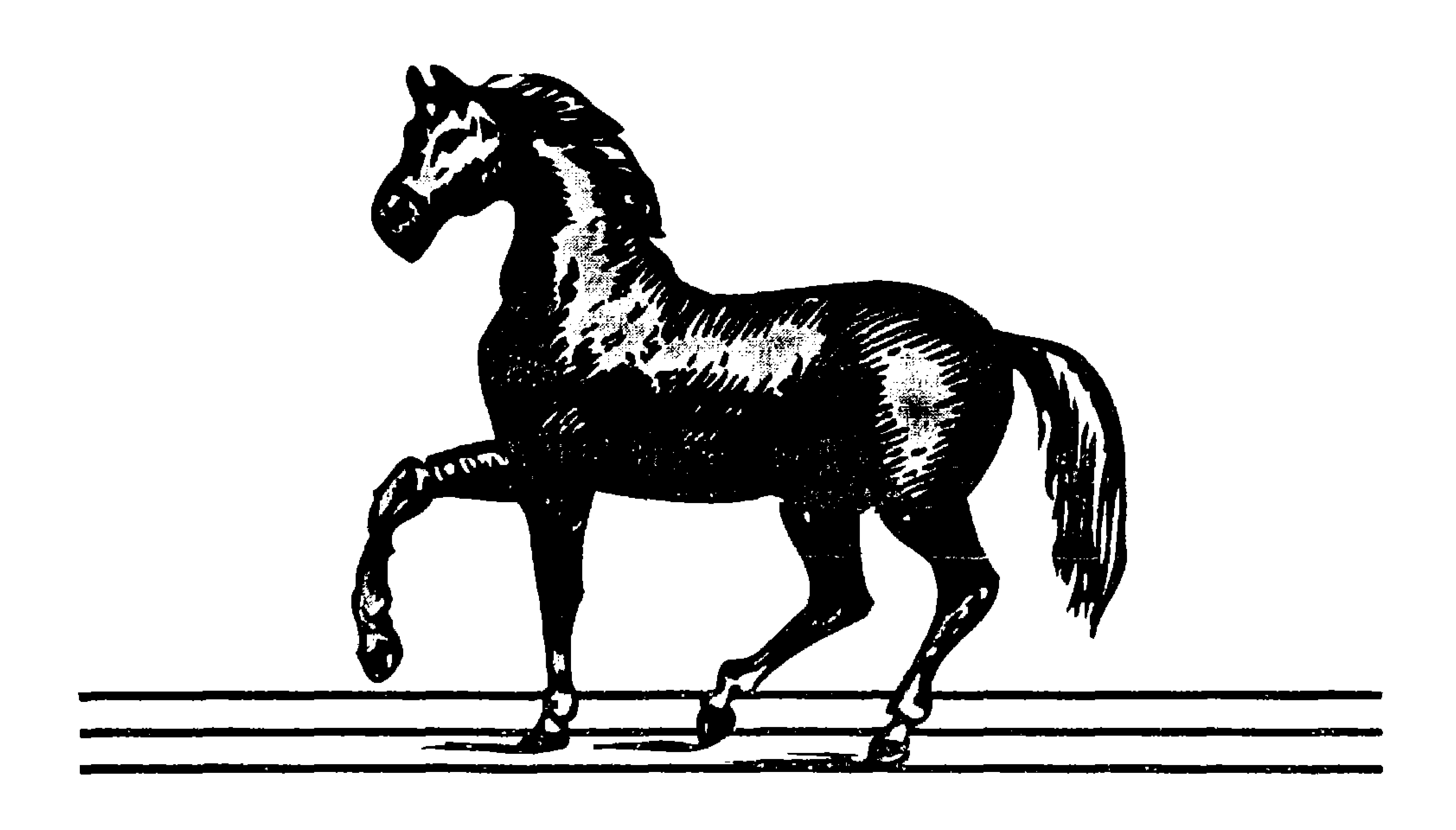
* * *

(1) حسن الباشا: دراسات فى الحضارة الإسلامية، ص: 168.



الأمويون

دولة الفتوحات



لعل أبرز ما امتاز به عصر بنى أمية كثرة الفتوحات شرقًا وغربًا، وبلوغ الدولة الإسلامية أقصى اتساع لها، فامتدت رقعتها قريبًا من سور الصين شرقًا إلى حدود فرنسا غربًا؛ بحيث إن الخلفاء العباسيين الذين ورثوا هذه الخلافة الكبيرة المترامية الأطراف؛ عجزوا عن الاحتفاظ بكل ما فتح من أقاليم فى عهد أسلافهم الأمويين.

ويشير ابن كثير إلى خصيصة الفتوحات التى اشتهر بها العصر الأموى ويقول: "وكانت سوق الجهاد قائمة فى بنى أمية ليس لهم شغل إلا ذلك، قد علت كلمة الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها وبرها وبحرها، وقد أذلوا الكفر وأهله؛ وكان فى جيوشهم الصالحون والعلماء وكبار التابعين، فى كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه... فكان سوق الجهاد قائمًا فى القرن الأول من بعد الهجرة إلى انقضاء دولة بنى أمية... فى بلاد الروم والترك والهند"[(1)].

وقد اقترن بفتوحات بنى أمية انتشار الإسلام واللغة العربية، فعصر بنى أمية هو العصر الذى اتخذت فيه الدولة طابعها العربى الإسلامى بشكل نهائى، حتى إن العروبة والإسلام هما الملمحان البارزان اللذان اتسمت بهاما البلاد المفتوحة فى العصر الأموى.

وفيما يلى نبذة مختصرة عن الفتوحات الإسلامية فى العصر الأموى، والجهود الكبيرة التى بذلها خلفاء بنى أمية لامتداد حدود الدولة، وتوسيع رقعتها.

(1) ابن كثير: البداية والنهاية 9/ 94، طبع دار الحديث، الطبعة/ الخامسة، 1998م.

أولاً: الفتوحات الأموية شرق العالم الإسلامي:

نشطت حركة الفتوحات عندما تولى معاوية بن أبى سفيان قيادة الأمة الإسلامية سنة (41هـ)، وذلك أن الفتوحات كانت قد توقفت عدة سنوات بسبب الفتنة الكبرى (35 ـ 41هـ) فاستولى المسلمون فى عهد معاوية على هراة وكابل، كما غزا عبد الله بن سوار العبدى بلاد السند مما يلى خراسان سنة (43هـ)[1]، وواصل المهلب بن أبى صفرة من بعده غزو السند سنة (44هـ)، وهاجم الإقليم الممتد ما بين الملتان وكابل[2].

وفى سنة (54هـ) غزا عبيد الله بن زياد والى خراسان إقليم تركستان، كما تمكن المسلون من غزو بخارى وسمرقند[3].

وفى عهد يزيد بن معاوية قام مسلم بن زياد والى خراسان بفتح خوارزم وعبر نهر جيحون، واستولى على سمرقند، ووجه إلى خجندة فانهزم، كما جعل يشن غزواته من مرو على بلاد الصغد[4].

وقد نشطت الفتوحات الإسلامية فى بلاد ما وراء النهر نشاطا كبيراً حين ولى الحجاج بن يوسف الثقفى إقليم خراسان سنة (78هـ) فى عهد عبد الملك بن مروان. فولى الحجاجُ خراسان للمهلب بن أبى صفرة الذى افتتح خجندة، وأدت إليه بلاد الصغد الجزية[5].

وفى سنة (86هـ) ولى الحجاج على خراسان القائد العربى الكبير قتيبة بن مسلم الباهلى، فى أول خلافة الوليد بن عبد الملك، فكان ذلك إيذانًا بانتقال

---

(1) انظر: ابن الأثير: الكامل 3/ 437.

(2) انظر: السابق 3/ 446.

(3) انظر: تاريخ الطبرى 5/ 297، 298، ابن الأثير: الكامل 3/ 458.

(4) انظر: ابن الأثير: الكامل 4/ 94 ـ 97.

(5) انظر: ابن الأثير: الكامل 4/ 453، وما بعدها.

الفتوحـات الإسلامية فى المشـرق إلى طور جديد من الازدهار؛ حيث أبدى قتـيبة نشاطًا وافرًا وهمة عالية، فغزا فرغانة وافتتح كاسان وأورشت وخشكت[1].

وفى سنة (87هـ) غزا قتيبة بيكند إحدى مدن بخارى وافتتحها عنوة، ثم عاد إلى مرو[2].

وفى سنة (88هـ) غزا نومـشكت ورامثنة[3]. وفى سنة (89هـ) غزا بخارى ونجح فى الاستيلاء عليها سنة (90هـ)، فأسس بها جامعًا بعد أن دمر بيت النار، فصالحه أهل الصغد على جزية يؤدونها إليه[4].

وفى سنة (93هـ) افتتح قتيبة سمرقند، وغزا فرغانة والشاش "طشقند" سنة (95هـ)، ففتح كاشان وقصبة وفرغانة وخجندة[5].

وفى سنة (96هـ) غزا قتيبة كاشغر أدنى مدائن الصين فطرقت جيوشه بذلك أبواب الصين من الجهة الغربية[6]. وهكذا ـ كما يقول د/ السيد عبد العزيز سالم ـ: كانـت فتوحـات قتـيبـة فى بلاد ما وراء النهـر فاتحـة لاتصال العـرب بالجنس التركى، كما كـان لجهود قتيبـة الموفقة أعظم الأثر فى إنشاء مراكز جـديدة للثقافة العربية والإسلامية فى وسط آسيا، كما قويت وسكنت العلاقات بين الدولة العربية والصين[7].

---

(1) انظر: ابن الأثير: الكامل 4/ 523.

(2) انظر: السابق 4/ 528 ـ 530، تاريخ الطبرى 6/ 439 ـ 433.

(3) انظر: السابق 4/ 533.

(4) انظر: السابق 4/ 535، 542.

(5) انظر: تاريخ الطبرى 6/ 472، وما بعدها، 6/492، 493.

(6) انظر: تاريخ الطبرى 6/ 500 ـ504.

(7) انظر د/ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص: 354.

وبعد مقتل قتيبة بن مسلم سنة (96هـ) ولّى سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب على خراسان والعراق سنة (97هـ) فاتجه يزيد إلى فتح جرجان وطبرستان. ولم يكن المسلمون قد دخلوا هذين الإقليمين قبل ذلك.

وقد استولى يزيد أولاً على قهستان صلحًا، ثم زحف منها إلى جرجان فدعاه أهلها إلا الصلح فأجابهم إليه. فأطمعه ذلك فى الاستيلاء على مدينة طبرستان الواقعة إلى الجنوب من بحر قزوين، فصالح صاحبها ـ بعد عدة معارك ـ على سبعمائة ألف[1].

فتوح الأمويين فى الهند:

كان من الطبيعى بعد أن أتم الأمويون فتح بلاد ما وراء النهر أن يفكروا فى فتح إقليم السند باب الهند، الذى أصبح يجاور آخر الحدود الشرقية للدولة العربية الإسلامية. وكانت أنظار المسلمين تتطلع إلى بلاد الهند منذ الفتوحات الإسلامية الأولى.

وفى سنة (44هـ) غزا إقليم السند المهلب بن أبى صفرة واشتبك مع قوات نبة ولاهور، وهما بين الملتان وكابل. وظل المسلمون يغيرون على إقليم السند من ناحية سجستان؛ ففتحوا مكران وقندهار، وغزوا البوقان والقيقان، وغنموا غنائم كثيرة[2].

وفى سنة (89هـ) وجه الحجاج بن يوسف الثقفى جيشًا لغزو السند بقيادة ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفى، فتمكن من فتح الديبل عنوة، واستولى على البيرون صلحًا، وجعل محمد بن القاسم الثقفى لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى اقترب من مهران، وهناك ألحق هزيمة كبيرة بجيوش داهر ملك السند، وبمقتل داهر تغلب محمد بن القاسم على بلاد السند، فافتتح مدينة روار عنوة، ثم زحف

(1) انظر: تاريخ الطبرى 6/ 506، وما بعدها، 6/524، 6/532 ـ 545.

(2) انظر: ابن الأثير: الكامل 3/ 446.

بجيوشه نحو الشمال الشرقى، ففتح مدينة برهمنا باد التى كان قد تحصن بها ابن داهر. ثم تمكن من الاستيلاء على مدينة الرور عاصمة داهر.

ثم عبر محمد القاسم نهر بياس أحد رواقد السند، وتوجه صوب مدينة الملتان أكبر مدن السند الأعلى، فتمكن من الاستيلاء عليها بعد مقاومة شديدة ومعارك طاحنة[1].

وحين ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سيَّر عمراً بن مسلم الباهلى عاملاً إلى السند، وأوصاه بالرفق بأهلها وتشجيعهم على اعتناق الإسلام، فأقبل إبان ولايته عدد كبير من أبناء السند على الإسلام[2].

ثانياً: الفتوحات الأموية فى غرب العالم الإسلامى:

لم يكد الأمر يستقر لمعاوية بن أبى سفيان سنة (41هـ) حتى وجه اهتمامه إلى استئناف سياسة الفتوحات فى المغرب، فتمكن قائده عقبة بن نافع من فتح غدامس وودان سنة (42هـ). وبعد وفاة عمرو بن العاص سنة (43هـ) فصل معاوية ولاية إفريقية عن مصر، وجعلها ولاية مستقلة تتبع دمشق مباشرة، وجعل قيادة الجيوش لمعاوية بن حديج التجيبى، فى وقت كانت تموج فيه إفريقية بالفوضى والاضطرابات. فخرج معاوية بن حديج من مصر سنة (45هـ) على رأس جيش ضخم لغزو إفريقية، فاشتبك فى موضع يعرف بقمونية قرب قرطاجنة بجيوش البيزنطيين، وتمكن من إلحاق الهزيمة بها، ثم استولى على سوسة وجلولاء، ثم اتجه شمالاً وافتتح بنزرت[3].

(1) انظر: ابن الأثير: الكامل4/ 537، تاريخ اليعقوبى 2/ 288، وما بعدها.

(2) انظر: تاريخ الطبرى 6/ 553، 554.

(3) انظر: ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار المغرب (1/ 15).



ويذكر البلاذرى أن معاوية بن حديج غزا صقلية لأول مرة سنة (46هـ)(1)، ثم اختتم غزواته فى إفريقية بفتح جزيرة جربة سنة (47هـ)(2).

وفى سنة (48هـ) ولى الخليفة معاوية عقبة بن نافع بدلاً من معاوية بن حديج الذى قفل راجعًا إلى مصر. فخرج عقبة على رأس جيوشه سنة (49هـ)، فأخضع - فى غضون ستة أشهر - الواحات الداخلية فى برقة. ثم توجه إلى إفريقية متجنبًا الطريق الساحلية، وافتتح غدامس وقفصة وقصطيلية وغيرها(3).

وفى سنة (50هـ) قرر عقبة بن نافع إنشاء قاعدة عربية إسلامية فى إفريقية تكون معسكرًا ثابتًا للمسلمين، فاختط مدينة القيروان التى اكتملت عمارتها سنة (55هـ)، وقدر لها أن تكون حاضرة المغرب الإسلامى كله فى عصر الخلافة الأموية إلى أن انفصل المغرب عن الدولة العباسية فى أواخر القرن الثانى للهجرة، وتكونت فيه إمارات مستقلة. وبتأسيس القيروان غدت إفريقية ولاية مهمة من ولايات الدولة العربية الإسلامية(4).

وفى سنة (55هـ) ولى إفريقية أبو المهاجر دينار، فزحف بجيوشه إلى المغرب الأوسط وغزا قبائل أوروبة البربرية، وهم من البرانس، واستطاع بحسن سياسته أن يستميل كسيلة زعيم تلك القبائل، فكان نصرانيًا فأسلم، واستعان به أبو المهاجر فى الاستيلاء على تلمسان، ثم شن هجومًا عنيفًا على قرطاجنة سنة (59هـ)، ولم يتركها إلا بعد أن تخلى البيزنطيون عن الأجزاء الواقعة جنوب قرطاجنة(5).

وفى سنة (60هـ) عاد عقبة بن نافع مرة أخرى إلى ولاية إفريقية، وواصل غزوه حتى وصل إلى المحيط الأطلسى ومعه بربر أوروبة وزعيمهم كسيلة، وهزم

(1) انظر: السابق 1/ 17.

(2) انظر: السابق 1/ 18.

(3) انظر: السابق، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة 1/ 132.

(4) انظر: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص: 366.

(5) انظر: د/ حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص: 170 - 176.

فى طريقه كل من اعترضه من البيزنطيين أو البربر، ووطنت الجيوش الإسلامية لأول مرة أرض المغرب الأقصى. بيد أن تلك الغزوة الكبرى انتهت باستشهاد عقبة فى طريق عودته إلى القيروان سنة (63هـ). حيث طوق البربر عند منطقة أوراس بزعامة كسيلة، الذى كان قد خرج على طاعة عقبة، وغادر مع حشد كبير من البربر المعسكر الإسلامى. وقد اضطرب زهير بن قيس البلوى نائب عقبة على القيروان أن ينسحب بالحامية العربية إلى برقة قبل أن يفاجئهم كسيلة بالهجوم، وأقبل كسيلة بعسكره فاستولى على القيروان سنة (64هـ)[1].

ولما ولى عبد الملك بن مروان خلافة بنى أمية بعث زهير بن قيس سنة (69هـ) على رأس جيش كثيف لاسترداد القيروان، فنجح زهير فى إلحاق هزيمة كبيرة بالبربر وقتل زعيمهم كسيلة، ودخل زهير القيروان، ونظم أمورها، ثم عاد إلى مصر، وفى طريق عودته دارت بينه وبين البيزنطيين معركة استشهد فيها زهير[2]، فاضطربت بلاد المغرب، واضطرمت بها نار الفتن، وتمرد البربر. وظهرت من بينهم امرأة بربرية تزعمتهم يقال لها: الكاهنة.

ولم يكد عبد الملك يفرغ من القضاء على فتنة عبد الله بن الزبير حتى وجد جيشًا ضخمًا لاستعادة المغرب بقيادة حسان بن النعمان الغسانى، وذلك سنة(74هـ)، وإذا كان حسان قد نجح فى اقتحام قرطاجنة والاستيلاء عليها، فإنه قد هزم هزيمة منكرة من قوات الكاهنة، فاضطر للتراجع بجيشه إلى برقة، وخرجت إفريقية بذلك من أيدى العرب[3].

وفى سنة (80هـ) أرسل عبد الملك إلى إفريقية جيشًا ضخمًا بلغ عدته أربعين ألف مقاتل تحت قيادة حسان بن النعمان الذى نجح هذه المرة فى هزيمة

---

(1) انظر: ابن الأثير: الكامل 4/ 105، وما بعدها.

(2) انظر: ابن الأثير: الكامل 4/ 108.

(3) انظر: ابن عذارى: البيان المغرب 1/ 33، وما بعدها.

قوات الكاهنة، ثم أمعن في مطاردتها والتضييق عليها بعد أن سحق جيشها وأباده، وقتلت الكاهنة نفسها في إحدى المعارك.

ثم نجح حسان في استرداد قرطاجنة من البيزنطيين وبنى تجاهها مدينة إسلامية تقع على البحر هي مدينة تونس، وأنشأ فيها داراً لصناعة الأسطول، كما أسس فيها مسجداً وداراً للإمارة، وما لبثت تونس أن غدت من أعظم مدن المغرب[1].

وقد بذل حسان جهوداً كبيرة في تنظيم أمور البلاد إداريًّا، وفي نشر الإسلام وتعريب البلاد، وبعث الفقهاء في أنحاء المغرب لتعليم البربر قواعد الدين واللغة، فأقبل البربر على الإسلام في حماسة شديدة ؛ حتى أصبح معظم جيش حسان منهم.

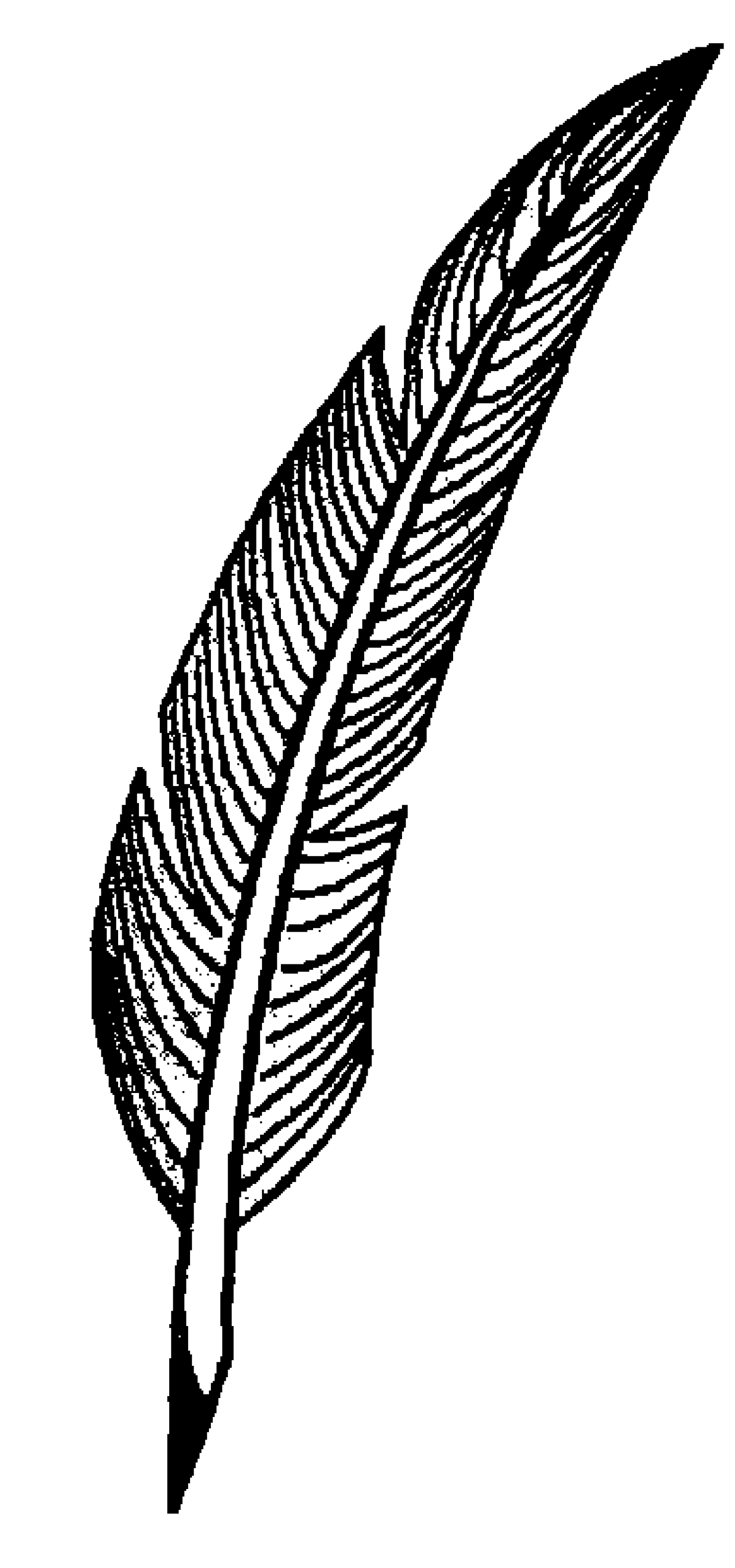
وهكذا فتح حسان إفريقية حربيًا ومعنويًا في آن واحد، واستطاع أن يحولها إلى ولاية إسلامية قلبًا وقالبًا [2].

وفي سنة (85هـ) ولي إفريقية موسى بن نصير، فتابع الفتوحات الإسلامية في الشمال الإفريقي بنشاط وافر وهمة عالية، ونجح في استكمال فتح المغرب كله، وإن كان قد اصطنع في سبيل خطته كل وسائل العنف والإرهاب مع الثائرين والناكثين بالعهود من البربر.

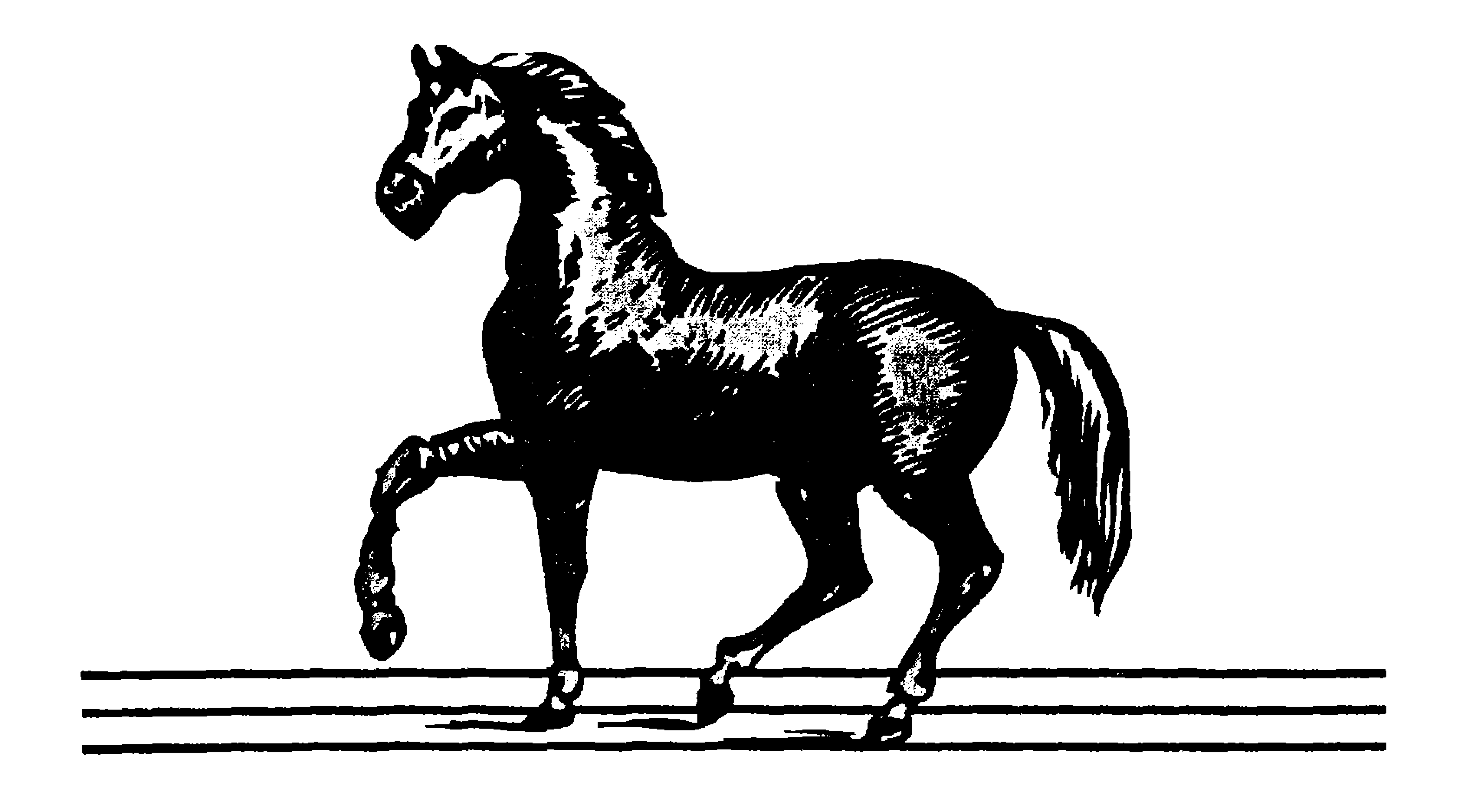
* * *

(1) انظر: د/ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص: 370، 371.

(2) د/ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص: 371، 372.



المجتمع الإسلامى
فى خلافة الأمويين



من صور الخطأ التى وقع فيها كثير من المؤرخين والمفكرين أنهم خلطوا بين مسيرة الحضارة، ومسيرة التاريخ، مطبقين الخطوط السياسية الفاصلة نفسها على التيار الحضارى، مع أن مسيرة الحضارة لا تخضع لتقلب الدول، فضلاً عن سقوط دولة وقيام أخرى تنتمى إلى المدرسة العقدية والإشعاع الثقافى نفسه. . .

وأنا أعجب حقيقة من هؤلاء المؤرخين؛ الذين نظروا إلى سنة (41هـ) التى قامت فيها الدولة الأموية، وكأنها منعطف جديد فى الحضارة الإسلامية؟

ترى هل انتهى فى هذه السنة جيل الصحابة الذين رباهم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو انقرض التابعون الذين تتلمذوا على يد التلامذة الأول للنبى محمد ﷺ؟!

إن بعض الصحابة قد عاشوا إلى ما بعد سقوط الدولة الأموية سنة (132هـ).

إن ما حدث بالضبط هو أن أسلوب انتقال الحكم قد تغير من شورى مطلقة إلى شورى مقيدة؛ نتيجة لظروف معينة لا نتعرض لها فى هذا المقام. . . أما نهر الحضارة الإسلامية فقد ظل يشق مجراه. . . وظلت الأمة هى الأمة والمبادئ هى المبادئ. . .

ونتيجة تطورات معينة، وابتعاد عن عصر النموذج والقدوة، وانفتاح على حضارات متعددة، والحصول على ثروات طائلة؛ ظهرت تجاوزات هنا وهناك، كما تظهر فى كل المنعطفات والدول العظمى. . . وهى تجاوزات قامت الأمة بنقدها والتنديد بأصحابها. . .

إن (هاملتون جب) ـ وهو مستشرق، لا يمكن وصفه بالدفاع عن تاريخ الإسلام ـ يومئ إلى طبيعة التغير فى نظام الحكم عند الأمويين، فيذكر أنه: "من

قبـيل التناقض أن يلصق الناس بالأمويين تلك التهـمة الشائعـة؛ وهى أنهم حولوا الخلافة إلى ملك (. . .).

"وهذا التناقض ذاته يوحى لنا بـأنه ينبغى علينا إذا شـئنا أن نفهم الـطبيـعة الحقيقية للأزمة، أن ننفذ إلى ما وراء سطح الواقع بكثير، وأن نجتهد بصورة خاصة فى تحرير أنفسنا من عادة مؤرخى العرب الذين يـنظرون إلى العملية التاريخية على ضوء الأعمـال الشخصية دون اعـتبار منهم للظروف التى اكتنفت أعـمال الأفراد، ورسمت حدودها، والقـضية التى أحب أن أطرحهـا فى هذا المقام تتلخص فى أن الأمويين كانوا ـ إذا جاز لنا التعبير على هذا النحو ـ ضحية عملية ديالكتيكية داخل المجتمع الإسلامى"[1].

وإذا نظرنا إلى الخلافة الأموية[2] هذه النظرة ـ غيـر السياسيـة ـ التى ترصد التطور الحضارى، وليس التعبير الفوقى؛ فإننا سنجد هذه الخلافة، التى قدر لها أن

---

(1) جب: دراسات فى حضارة الإسلام، ص: 48، دار العلم للملايين، ط/3، 1979م.

(2) كنموذج للتحليل المـوضوعى المنصف ـ غير الإسقاطى ـ نـقدم هذا النص من كلام المفكر الإسلامـى، والمصلح (الإمام/ سـعدى النورسىّ) فى مـعالجـة الصراع بين الإمـام على ومعاوية ـ رضى الله عنهـما ـ فى صفين، يقول الإمام النورسىّ: أمّـا ما وقع من حرب بين الإمام على وسيـدنا معاوية وأنصاره فى واقـعة "صفين"؛ فهى حـرب بين الخلافة والسلطنة (الملك الدنيوى)؛ أى أن الإمام عليًّا قد اتخذ أحكام الدين وحـقائق الإسلام والآخرة؛ أساسًا، فكان يضـحى بقسم من قوانين الحكم والسلطنة وما تقتضيـه السياسة من أمور فيهـا إجحاف فى سبيل الحقـائق والأحكام، أما سيدنا معاوية ومن مـعه، فقد التزمـوا (الرخصة الشرعـية)، وتركوا الأخذ بالـعزيمة؛ لأجل إسناد الحيـاة الاجتماعـية الإسلامية بسياسات الحكم والدولة، فـعدوا أنفسهم مضطرين فى الأخذ بهذا المسلك فى عالم السـياسة، لذا رجحـوا الرخصة على العزيـمة فوقعـوا فى الخطأ (أى أننا نفهم من كلام النورسى؛ أن الخـلاف يمثل وجهـتى نظر، وأن للمصيب أجـرين وهو الإمام على وأتباعه، وللمخطئ أجر وهو معـاوية وأتباعه (رضى الله عن الجميع)، (انظر النورسىّ: المكتوبات، ص: 68، نشر سوزلر ـ القاهرة).

تعيش فى التاريخ نحو قرن من الزمان تواجه بقايا الإمبراطوريات المندثرة رومية وفارسية، وتؤصل لمؤسسات اجتماعية واقتصادية وثقافية فى العالم الإسلامى الجديد والحديث، عهدا بالبداوة والكفر الوثنى والرومانى السابق، وذلك مع وجود بعض التجاوزات، خضوعًا لظروف التطور التى ألمحنا إلى بعض جوانبها سابقًا، مما يؤكد وجهة نظرنا فى أن التغير السياسى لا يرتبط بالتغير الحضارى.

إننا هنا نتساءل: هذه الجيوش الفاتحة التى ساحت فى معظم أقطار المعمورة من حدود الصين والهند، حتى سبتة فى المغرب الأقصى، وكافادونجا فى جبال البرانس بأسبانيا... ألم تقم على أكتاف الجندى المسلم المجاهد الذى كان يمضى مخلصًا شبه متطوع أو نظاميًّا وراء القادة الذين اختارهم بنو أمية؟... لقد أثبت هؤلاء أنهم مخلصون حقًّا بصرف النظر عن النظام السياسى الذى انتقلوا إليه... ولقد نشروا الإسلام فى المغرب الأقصى والأوسط والأدنى وطرابلس وبرقة وأسبانيا والصين والهند وبلاد آسيا الوسطى وأفغانستان وغيرها....

وفى هذا العصر وقعت عملية التعريب، وتم تنظيم الدواوين، وسك العملة، وبدأت العلوم العربية والإسلامية تكتمل صورها!!

وإذا كنا قد استشهدنا برأى (جب) فى طبيعة الانتقال من دولة الراشدين إلى الدولة الأموية؛ فإننا ـ ونحن نلقى بعض الضوء على أبرز خلفاء هذه الدولة الذين قاموا بالفتوحات، وساعدوا التطور ـ نتابع استشهادنا بمؤرخ أوروبى آخر من كبار الدارسين للتاريخ الإنسانى كله؛ إيمانًا منا بأن شهادة هؤلاء قد تكون أكثر قبولاً لدى المدرسة العلمانية، التى تصدر أحكامًا تعسفية غير متأنية على تاريخنا.

إن (ول ديورانت) يقول: «يجب علينا ألا نظلم معاوية، لقد استحوذ على السلطة فى بادئ الأمر؛ حيث عينه عمر ـ الخليفة الفاضل النزيه ـ واليًا على الشام، ثم بتزعمه الثورة التى أوقد نارها مقتل عثمان، ثم بما دبره من "الأساليب السياسية" البارعة التى أغنته عن الالتجاء إلى القوة إلا فى ظروف جد نادرة...

ولقد كان طريقه إلى السلطة أقل تخضبًا بالدماء من طرق معظم من أسسوا أسرًا حاكمة جديدة)[1].

وكان يجلس للناس خمس مرات فى اليوم، وقد استؤنفت الفتوحات الإسلامية فى عهده بعد توقف، وكان يسمع المدح فى منافسه فى مجلسه؛ بل ويسمع بفضله عليه ولا يعاقب على ذلك. . .

أما عبد الملك بن مروان ؛ فقد سار على خطى معاوية، وحاول أن يطبق سياسته الداخلية فى الجلوس للناس، وكان من فقهاء المدينة المعروفين، وقد احتج مالك فى الموطأ بعمل عبد الملك، وكان من فاتحى إفريقية قبل الخلافة، وقد استقرت قواعد الدولة فى عهده، وظهر طابعها العربى واستقلالها الحضارى.

أما ابنه الوليد الأول ففى عهده ـ كما يقول ديورانت ـ (واصل العرب فتوحاتهم فاستولوا على بلخ فى عام (86هـ / 705م)، أما الوليد نفسه فكان مثلاً طيبًا للحكام، يعنى بشئون الإدارة أكثر من عنايته بالحرب، ويشجع الصناعة والتجارة، بفتح الأسواق الجديدة، وإصلاح الطرق، وينشئ المدارس والمستشفيات ـ ومنها أول مستشفى معروف للأمراض المعدية ـ وملاجئ للشيوخ والعجزة، والمكفوفين، ويوسع مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس، ويجملها، وينشئ فى دمشق مسجدًا أعظم من هذه المساجد وأفخم، ولا يزال باقيًا فيها حتى اليوم[2].

ولما جاء عمر بن عبد العزيز (99ـ101هـ / 717 ـ 719م) أعاد سيرة الراشدين، واعتبر بإجماع الأمة خامس الراشدين، وأحدث عودة حميدة شعبية ورسمية للإسلام.

وقد حكم هشام الدولة حكمًا عادلاً ساد فيه السلم، وأصلح خلاله الشئون الإدارية، وخفض الضرائب، وترك ـ بعد وفاته ـ بيت المال مليئًا بالأموال[3].

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة 13/ 81، طبع مصر، الطبعة الأولى.

(2) المرجع السابق 13/ 83.

(3) المرجع السابق 13/ 83.



فهؤلاء ـ كما نرى ـ (معاوية، وعبد الملك، والوليد، وعمر، وهشام) خمسة من خلفاء بنى أمية، حكموا نحو ثلاثة أرباع عمر الدولة، وقدموا خدمات كثيرة للحضارة الإسلامية، باعتراف مؤرخ أوروبى كبير يحاول أن يقترب من الإنصاف، وقد كتب ديورانت ما كتبه ضمن رصد شامل للحضارة الإنسانية، وليس فى دراسة مستقلة متخصصة، ومع ذلك جاء فى كلام (ول ديورانت) ـ كما رأينا ـ قدر كبير من الإنصاف ضمن منظومة (قصة الحضارة)، وذلك على العكس من كتابات العلمانيين الذين لم يحسنوا قراءة تاريخ الإسلام، بل أغلب الظن عندى أنهم - أو بعضهم - لم يقرأوه أصلاً!!

وقد اهتم الأمويون بتجديد المساجد الأولى التى أنشئت فى عصر الراشدين؛ مثل جامع البصرة، والكوفة والفسطاط، وجامع المدينة، وجامع صنعاء الكبير، كما اهتموا بتأسيس عدد كبير من المساجد الجامعة؛ مثل جامع دمشق، والجامع الأقصى، وقبة الصخرة، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع عقبة بن نافع فى القيروان، كما جددوا المسجد النبوى فى عهد الوليد بن عبد الملك وزادوا فى جامع عمرو بن العاص عدة مرات[1]، وقد ازدهرت الحياة الفكرية فى العصر الأموى، وشملت مجالات العلوم الدينية واللغوية والاجتماعية والرياضيات والفلك والطبيعيات[2]، وكان من أهم العلوم الدينية: (القراءات والحديث؛ الذى دون فى عصرهم، وعلم الكلام، وعلوم القرآن)[3].

ولما كان العهد الأموى عهد فتوحات وتفاعل مع الحضارة المعاصرة؛ فقد وقف الحكام وعلماء الأمة وقفة حضارية أصيلة فى وجه الأفكار والعلوم والنظم

---

(1) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص: 436، وما بعدها، بتصرف ـ طبع الإسكندرية (1982م).

(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، ص: 421.

(3) المرجع السابق، ص: 423.

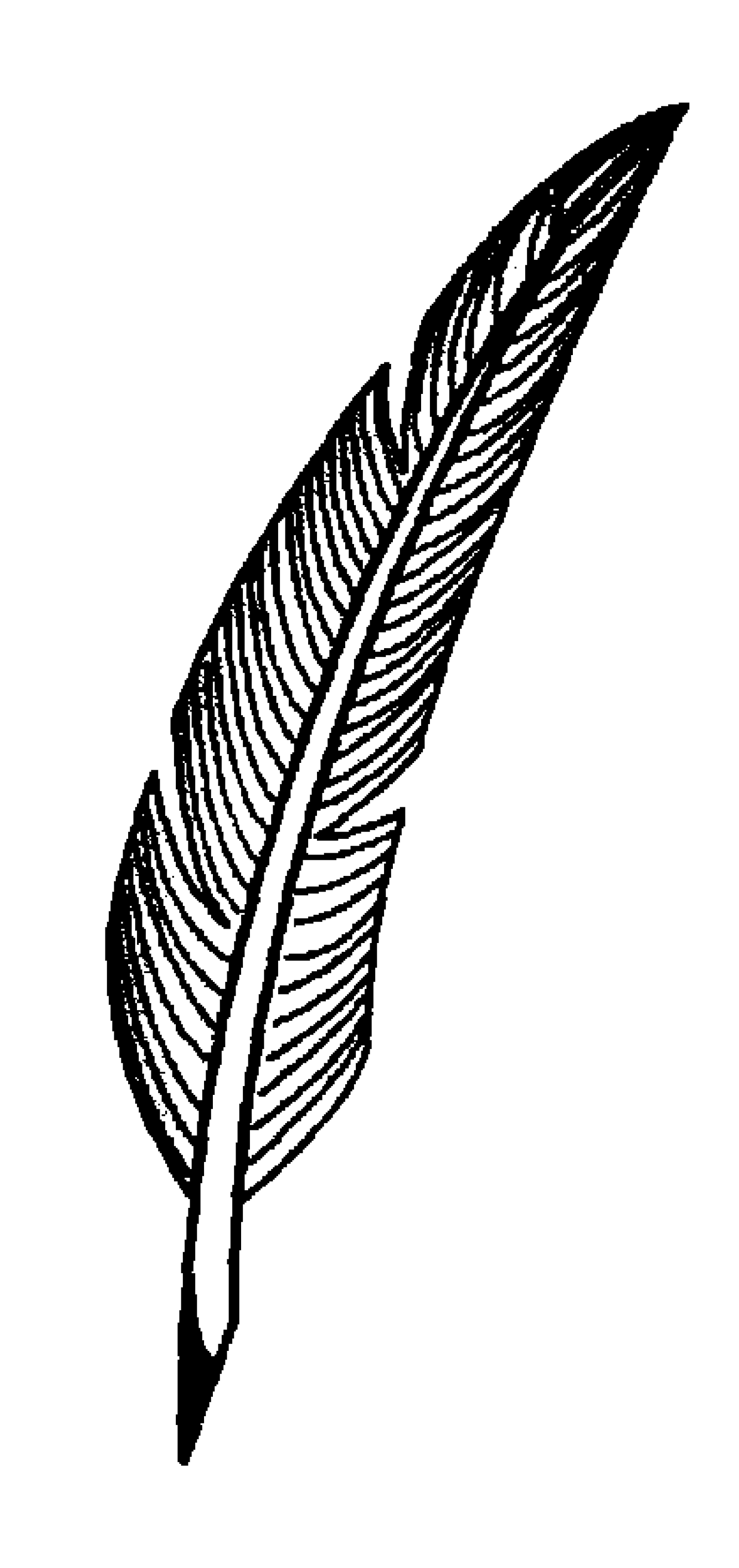
واللغات الوافدة، وقد نجحوا فى وضع الضوابط والمناهج، وأسس هذه العلوم التى تكفل التأصيل الصحيح، والمواجهة الإيجابية والاستجابة المثلى للتحدى الفكرى.

وكما نشأت علوم اللغة لمواجهة اللحن، فقد نشأت المذاهب الفقهية للاجتهاد فى الوقائع الجزئية التى تكاثرت، فظهـر الإمام أبو حنيفة (80 ـ 150هـ)، والإمام مالك ولد سنة (93هـ)، وقيل: سنة (95هـ)، وتوفى سنة (179هـ) ـ رضى الله عنهـما ـ وكذلك نـشأ علم الحديـث بفروعه الـكثيرة والرائـعة ؛ لمواجهـة الوضع والوضاعين.

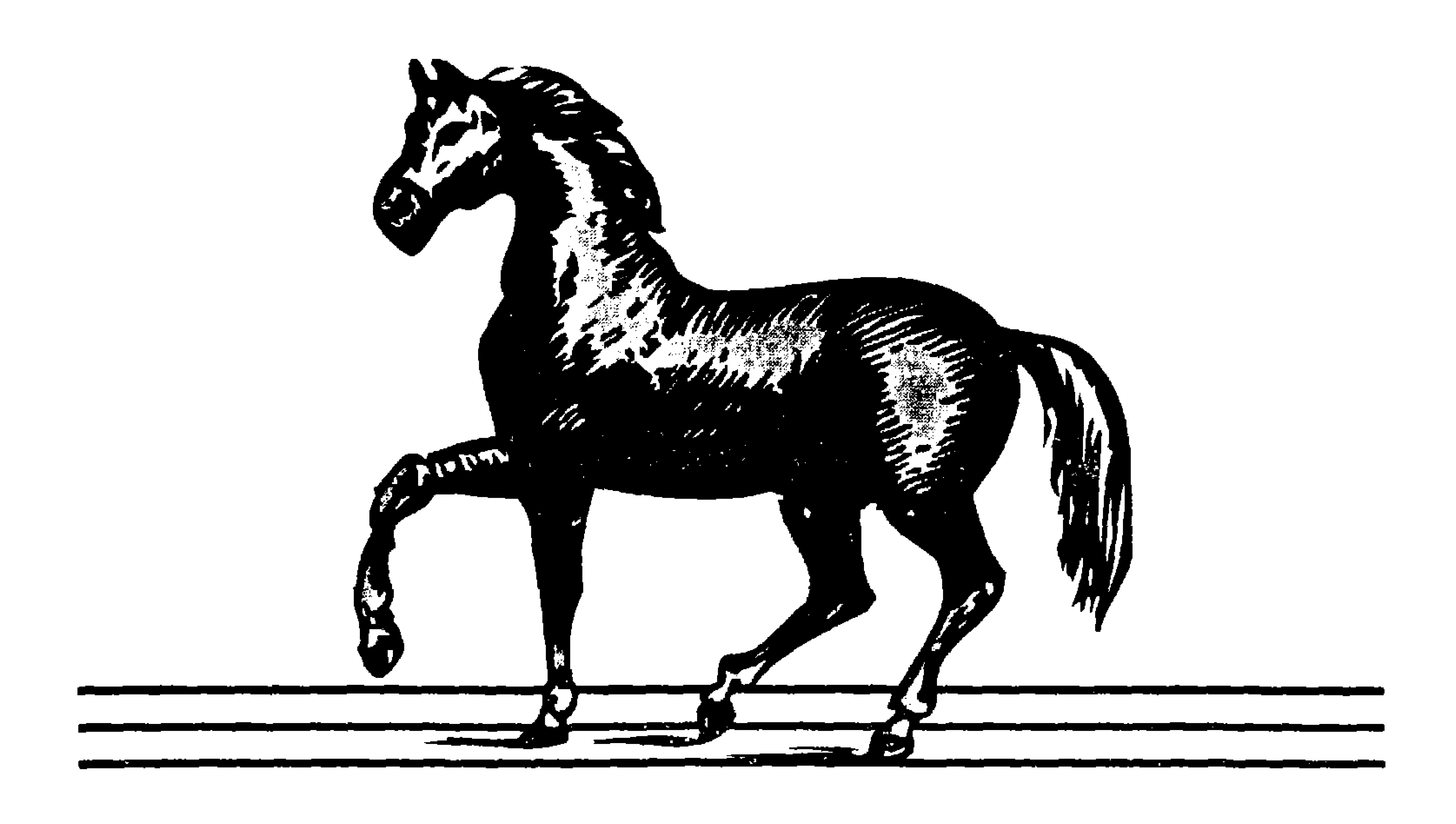
وكان القضاء قائمًا على خير الوجوه الشـرعية وأحكامها، فقد جرى معاوية بجـهده هو ومن حكمـوا بعـده فى ذلك على سنن من تقدمـه[1]؛ أى على سنن الراشدين.

***

(1) أبو الحسن بـن عبد الله النبـاهى الأندلسى: تاريخ قـضاة الأندلس، ص: 24، طبع دار الآفاق، بيروت، الطبعة الخامسة (1403هـ).



أسباب سقوط
بنى أمية



ثمة ومضة اختبار فى حياة كل أمة تمثل منعطفًا خطيراً.. وعلى أساس ما يتخذ فيها من (قرار) يتحدد مصير الدولة...

إن هذا القرار سوف يحدد بالضبط هل بقيت لدى هذه القوة مؤهلات القيادة، وأنها قادرة على الاستئناف والانقلاب على نفسها والقفز من فوق سلبياتها ومشكلاتها لتقوم بدور ملائم للتحديات... أو أنها قد انهزمت من داخلها ولم تعد قادرة على المبادرات الحضارية..؟!!

وبالنسبة للأمويين فى التاريخ فقد حدثت لهم (ومضة الاختبار) هذه مرتين: مرة فى المشرق وقد أخفقوا فيها... وكان ذلك سنة 100هـ!!

ففى سنة 100هـ - أى فى الاختبار الأول - حاول عمر بن عبد العزيز إحداث هذا الانقلاب... وكان سليمان قد نجح حين ولى عمر على خلاف السنة المعهودة فى الولاية، فقدم الفرصة أمام الدولة لمواصلة فى ظل دم جديد... لكن بنى أمية رفضوا هذا الإقلاع، وخافوا أن يخرج عمر ما فى أيديهم من الأموال، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد بعده[1].

وبموت عمر بن عبد العزيز الغامض والذى تثور حوله الشبهات[2] عاد بنو أمية سيرتهم الأولى وأجهز الخليفة بعده على إصلاحاته... وجاهد هشام طيلة عشرين سنة دون أن يكون فى مستوى الإقلاع الحضارى المنشود، ودون مستوى عمر بن عبد العزيز ورؤيته الحضارية الشاملة.

ومرة فى الأندلس، بعد أن نزحوا ببقية قوتهم إلى هناك بعيداً عن العباسيين وأنشأوا ملكًا لهم سنة 138هـ، وقد حدثت ومضة الاختبار لهم هناك بعد أن كانت

(1) عماد الدين خليل: ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ط2 الدار العلمية بيروت ص97.

(2) المرجع السابق.



دولتهم تعيش فوضى عاتية... وقد نجحوا وولوا عبد الرحمن الناصر دون أن تكون الولاية له... فنجح فى قيادة السفينة المترنحة... فكأن بنى أمية استفادوا من درس المشرق.!!

كانت الأرض المفتوحة قد اتسعت أكثر مما يقدرون..

وكان عمر بن عبد العزيز قد حاول - بذكاء غريب سبقه إليه جده عمر بن الخطاب - أن يوقف هذا الامتداد فى الأرض، حتى يواكبه امتداد فى الدعوة، بحيث لا تطغى الأرض على الحضارة، ولا الدولة على الدعوة، ولا تصبح اعتبارات السياسة أهم من مبادئ الدين!!

وكان الأمويون لا يعالجون ثورة إلا ويدخلون فى علاج ثورة أخرى... فحتى العباسيون الأشداء الذين ورثوهم لم يستطيعوا الحفاظ على المغرب والأندلس وأجزاء من المشرق كان حكمهم فيها شكليًا...

وقد ظن الأمويون أن الرجال الأشداء من أمثال المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه والحجاج وآل الملهب قادرون على إحكام قبضتهم... وهو تصور ساذج، إذ إن الفراغ العقدى والنفسى والحضارى لا تكفى فيه هذه العوامل الخارجية الضاغطة... بل لابد من تيار حضارى عقدى يملأ أركان الحياة!!

- إنها معادلة حضارية لم يستطع بنو أمية أن يصلوا إلى الفقه الصحيح بها.. فإن كل فكرة خلاقة تولد - كما يقول هاملتون جب - طاقة توسعية هائلة بما تغرسه فى نفوس أتباعها من حماسة للدعوة (...). وهذه القوة لابد من أن تكون من الناحية المثالية، أداة للفكرة (الأيديولوجية) التى أوجدتها[1]...!!

وفى الفترة الإسلامية الأولى كانت الفكرة الجديدة ذات طاقات توسعية هائلة، وكانت طاقاتها هذه تنساق فى مجارى التوسع (...) ولم يقم فى الوقت

---

(1) هاملتون جب: دراسات فى حضارة الإسلام ص51.

نفسه نظام داخلى يعادل أداة ذلك التوسع من حيث القوة!!... وهذا هو العامل ذو الأثر فى تاريخ الخلافة الأموية، وهو عامل كثيرا ما أساء فهمه الدارسون من بعد، إما ذهابًا مع الهوى وإما افتقاراً إلى المعرفة التاريخية، وإما افتقاراً إلى الإحساس بالنظرة التاريخية.

وأنا أقول: إن الفكرة (الأيديولوجية) لم يتح لها خلال القرن الأول أو نحوه أن تتجسد فى أية نظم اجتماعية سوى نظام الحكومة. فإذا احتكرت الحكومة وحدها السلطة التى تمارسها لم يكن إلى جانبها نظام آخر ينازعها سلطانها، فلم يكن ثمة اختيار بين احتكار الحكومة للسلطة أو تنازلها عن بعضها لنظام آخر... لأن هذا النظام الآخر لم يكن له وجود، والسلطة على أية حال شىء لا يمكن نقله، إنما كان الاختيار الوحيد بين احتكار السلطة - سواء أكان يمارسها الأمويون أو غيرهم - وبين الفوضى[1].

إننا نجد أن تحول الطاقة لا يضعف الحكم مطلقا فى أول أمره؛ وذلك لأن مجموعة الطاقة المتوافرة هائلة، ولأن تحولها يجرى على نحو متدرج بطىء. ثم إننا قد رأينا فيما يتصل بالأمويين أن القوة التوسعية التى بعثتها الفكرة الإسلامية أصلا إلى الوجود تمثلت فى واقع الأمر، فى صورة قوة توسعية قبلية عربية، ولما تلاشى حافز الفكرة الذى كان يحدو للتوسع الخارجى فى مرحلة تالية، كانت الحكومة لا تزال تستطيع الاعتماد على الطابع العدوانى، الذى وسمت به روح القبائل وأشربته نظرتها، وأن تستغله فى التوسع[2].

ومع هذا فلا بد من أن يأتى عاجلا أو آجلا وقت يحصل فيه توازن تقريبى بين قوى التوسع والقوى الخارجية، وعند هذا الحد إما أن يكون حافز التوسع قد استنزف طاقاته وإما أن يكون قد أصبح أضعف من أن يتغلب على القوى المعارضة وعندئذ يصبح نظام الحكم مضطراً إلى أن يقف موقفًا دفاعيًّا[3].

(1) هاملتون جب: المرجع السابق ص 51، 52.

(2) المرجع السابق.

(3) المرجع السابق ص55.

وهكذا. . . أوشك (جب) أن يصل إلى المأزق الحضارى الذى وقعت فيه الدولة الأموية، إلا أن رؤيته المقيدة بالسوابق الثقافية قد حالت دون ذلك. . مع أنه اقترب كثيراً من الحقيقة!!

ومهما يكن من أمر فإن الدولة الأموية لم تستوعب قانون الامتداد الحضارى؛ فبعد الامتداد (بالفتوحات) كان عليها أن تمتد(بالدعوة) وإلا فقدت مؤهلها للبقاء والتقدم!!

* * *

وفى عصرى الانطلاق والازدهار أيام معاوية وعبد الملك والوليد وحتى هشام كان بريق الامتداد يبهر الأبصار ويوجه الطاقات ويقدم تبريرات البقاء. . . فلما أوشك هذان العصران على الانتهاء كان لابد للأمويين من تبريرات جديدة يعيشون عليها وتندفع الجماهير خلفهم تحت رايتها. . .

وبدلا من أن يوجد أمثال عبد الملك أو الوليد من بناة الدول وصانعى الفتوحات العظيمة أو أمثال عمر بن عبد العزيز من رجال المثالية والدعوة والعدل الشامل وتقديم نموذج الدولة الراشدة لبقية الإنسانية. . . بدلا من هذا - قدم الأمويون رجالا من طراز الوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد. . . !!

ونحن نرجح أن الوليد بن يزيد مظلوم، وقد رمى بتهم باطلة[1]، لكن القدر الصحيح الباقى من سيرته لا يؤهله لدور عظيم[2]. . . ونعتقد كذلك أن يزيد بن الوليد، كان وبالا على بنى أمية. . . إنه نموذج للتدين العاجز الذى يضر أكثر مما ينفع. . . ويتهم الأبرياء ابتداء ويميل إلى التجريح فى المستوى العام أكثر مما يميل

(1) انظر: تاريخ ابن خلدون 3/ 106.

(2) انظر الطبرى: التاريخ 8/ 293 حوادث سنة 125 طبع دار الفكر بيروت 1976م.



إلى تبرئة الناس. . . وهو من أصحاب الأهواء الجامحة والقلوب المريضة على الرغم من تظاهره بالنسك والتدين!!

إن هذا الخليفة الذى قفز إلى السلطة على أشلاء ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك يتحمل المسئولية التاريخية بالدرجة الأولى فى إجهاض أى أمل فى إقلاع البيت الأموى نحو دور حضارى جديد!!

- ومن الغريب أن الخليفة العباسى هارون الرشيد قد أدرك هذه الحقيقة التاريخية التى غابت عن كثير من مفسرى التاريخ الأموى. . .

يروى العلامة ابن خلدون في تاريخه أن ابن الغمر بن يزيد دخل على الرشيد فسأله: ممن أنت؟، فقال: من قريش. قال: من أيها؟ فوجم. . . فقال: قل وأنت آمن، ولو أنك مروان. . . فقال: أنا ابن الغمر بن يزيد. . . فقال الرشيد: رحم الله الوليد ولعن يزيد الناقص، فإنه قتل خليفة مجمعًا عليه[1].

ومما قاله الخليفة العباسي المهدى في الوليد: إنما كان الرجل محسودًا فى خلاله ومزاحمًا بكبار عشيرة بيته من بنى عمومته[2].

- ونحن نعتقد أن هذه النعوت إنما قصد المهدى بها يزيد بن الوليد، فهو رجل كان يخفى الحقد ويظهر النسك!!

وهل كان من الدين أن يصر يزيد على نصب رأس ابن عمه الوليد تمثيلا وتشفيًا، وأن يطاف به على رمح فى دمشق؟! وأى دين هذا؟!

إنه الحقد والتآكل الداخلى الذى سقط فيه بنو أمية فى هذا الوقت العصيب!!

---

(1) تاريخ ابن خلدون 3/ 106.

(2) المرجع السابق.



وبقـتل الوليد فـتح باب الفـتنة داخل البيـت الأموى ذاته. . . فـانتقـضت اليمامة، ووقع الخلاف فى خراسان بين نصر بن سيار والكرمانى. . . وأعلن مروان ابن محمد والى أرمينية آنذاك المطالبة بدم الوليد[1]!!

إن مقـتل الوليد الثـانى كان نقطة البدء فى تحـدى فكرة الشرعـية ومسـماراً ضخـمًا فى نعش الخلافـة كمنصب له قدسـيته وهيـبته، وقد تـناولت هذه الفتنة الأسس المكينة التى اعتمـد عليها الحكم الأموى بشكل عام إذ كان القـائمون عليها من أهل الشـام أولاً، ومن الأمـويين ثانيًا، وكـلا العنصـرين أسـاس فى تثبـيت السلطان الأموى[2].

إن هذا التمـزق الداخلى هو أخطر ما أصاب بنى أمـية. . إن العصبـية التى كانت تحفظ تماسك بنى أمية - فى وجه العصبيات الصغيرة والعواطف العامة - قد انشقت، وفـقدت قـوتها الذاتية. . . ومـن عجب أن الحجـاج بن بشر بن فـيروز الديلمى أحد القـدريين أيام الوليد قـد أدرك هذا. . . فقد قـال فيمـا رواه الطبرى عنه: لا يعيش الوليد إلا ثمـانية عشر شهرا حتى يقـتل، ويكون قتله سبب هلاك بيته[3]. . !!

ونحن فى الحقيـقة نكاد نميل إلى أن يزيد بن الوليد يتحـمل الوزر الأكبر فى تأجـيج هذه الفـتنـة، ونميل إلى أنه كـان يظهـر النسك والـتـدين لغـاية يهـدف إليها. . ونحن لا نميل إلى تصديق كل ما قيل فى حق الوليد، فإن معاصريه أنفسهم كانوا يتشككون فيـما يشاع عنه، فقد قيل لخالد بن عبد اللـه: أتقبل شهادة الوليد مع مجونه وفسقه؟ فقال: أمر الـوليد أمر غائب عنى ولا أعلمه يقينًا إنما هى أخبار الناس[4]. . أى أنها مـجرد إشاعـات، ونحن نعتقـد أن الفريق المناصـر ليزيد بن

(1) ابن خلدون 3/ 122.

(2) نبيه عاقل / تاريخ خلافة بنى أمية 347.

(3) الطبرى: 9/ 3.

(4) الطبرى: 9/ 3.

الوليد كـان وراء هذه الشائعـات. . . وقد عرف خـالد بن عبد اللـه بالمؤامرة على الوليد فنصـحه بأن لا يحج فى عـامه فسألـه عن السبب فرفض القـول بما يعرف فحبـسه الوليد[1]. . . وموقف خالد هذا يدل على وجـود (عقلاء) لم يكونوا مع هذا الاتجاه الانقلابى الانشقاقى الذى تزعمه يزيد بن الوليد. . . بل إن العباس أخا يزيد الثائر على الوليد رفض الانقياد إليه وقال له عندما دعاه للتآمر ضد الوليد: - مهـلا يا يزيد فإن فى نقض عهـد الله فساد الدين والدنيـا، فرجع يزيد إلى منزلـه ودب فى الناس فـبايعـوه سرا، ودس الأحنف الكلبى يـزيد بن عنبسـة السكسكى وقومًا مـن ثقاته من وجوه الناس وأشرافـهم فدعوا الناس سراً. . . ثم عـاود أخاه العباس فشاوره وأخبره أن قومًا يأتونه يريدونه على البيعة فزجره العباس وقال: إن عدت لمثل هذا لأشدنك وثاقًا ولأحملنك إلى أمير المؤمنين[2].

وقد وصف العباس أخاه يزيد بقولـه: "والله إنى لأظنه أشأم سخلة فى بنى مـروان، ولولا ما أخـاف من عـجلة الوليد مـع تحامله علينـا لشددت يزيد وثاقـا وحملته إليه"[3].

فهذا العباس أخو يزيد كان أحـد العقلاء الرافضين للأسلوب الانقلابى الذى ابتدعه فى بنى أمية يزيد. . .

ومثل العباس وخالد بن عبد الله كان مـوقف معاوية بن عمرو بن عتبة. . . وقد نصح للوليد، وأخبره بأن هناك بوادر مؤامرة داخلية ضده[4].

ومثلهـما كان العـلاء بن برد بن سنان، فقد نهى يـزيد عن الدخول فى هذا الأمر[5]. وكان مروان بن محمد - آخر خلفاء بنى أمـية فيما بعد ووالى أرمينية -

(1) المكان السابق.

(2) خليفة بن خياط 363 والطبرى 9/ 7.

(3) الطبرى 9/ 7.

(4) انظر المكان السابق.

(5) انظر خليفة بن خياط: تاريخ 369.

قد علم بما يحاك للوليد من يزيد فكتب إلى سعيد بن عبد الملك بن مروان يأمره أن ينهى الناس عن السير فى طريق التآمر المظلم... ويقول لسعيد: "لقد بلغنى أن قومًا من سفهاء أهل بيتك قد استنوا أمورًا إن تمت لهم على ما أجمعوا عليه من نقض بيعتهم؛ استفتحوا بابًا لن يغلقه الله عنهم حتى يسفك دماء كثيرة منهم (...) فتهددهم بإظهار أسرارهم وخوفهم العواقب لعل الله أن يرد إليهم ما قد عزب عنهم من دينهم وعقولهم فإن فيما سعوا فيه تغييرًا لنعم وذهاب الدولة"[1].. ويقول مروان أيضًا: "وقد أمل القوم فى الفتنة أملا لعل أنفسهم تهلك دون ما أملوا، ولكل أهل بيت مشائيم يغير الله النعمة بهم"[2].

فهكذا كان مروان بن محمد أحد العقلاء الذين أبصروا آثار الفتنة وحاولوا الوقوف فى وجهها، كما يظهر لنا الكتاب فراسة مروان وبعد نظره وإدراكه لآثار الفرقة والاختلاف وأن محاولة يزيد ستغرق البلاد بالدماء والقتل[3].

وعندما أوشكت مؤامرة يزيد وأصحابه على نهايتها حاصروا أخاه العباس، وأرغموه على المبايعة وزادوا فنصبوا راية وقالوا: هذه راية العباس، وكأن العباس يوافقهم على مؤامرة أخيه يزيد ومؤامرتهم... فلم يملك العباس إلا أن يقول: إنا لله... خدعة من خدع الشيطان.. هلك بنو مروان[4].

فلخص العباس بكلماته تلك أبعاد الموقف كله، وكشف عن رؤية عاقلة على الرغم من أن الخليفة الجديد أخوه..!!

وموقف آخر يكشف حقيقة خروج يزيد وأبعاد هذه المؤامرة[5]، وما فيها من

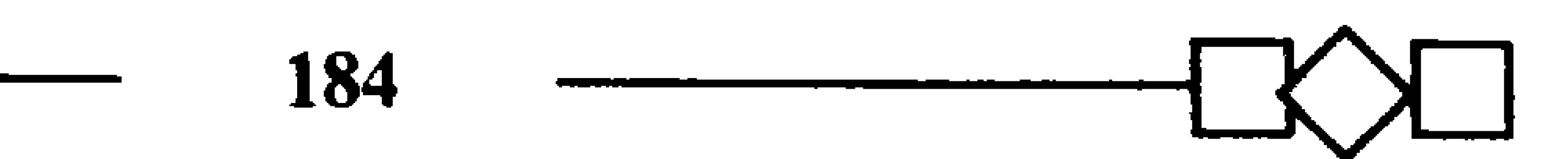
(1) انظر: خليفة بن خياط: تاريخ 369.

(2) المرجع السابق.

(3) القاضى سعدى أبو حبيب: مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، ص119، 120 طبع دار لسان العرب، دمشق.

(4) الطبرى 9/13 وانظر مضمون مؤامرة خداعهم للعباس فى تاريخ خليفة بن خياط 364.

(5) القاضى سعدى: مرجع سابق ص 120.



تجنيات على شخصية الوليد. . ففى أثناء حصار يزيد وأصحابه للوليد. . . طلب الوليد أن يكلم رجلا شريفًا من خصومه فقال له يزيد بن عنبسه السكسكى: كلمنى. . . فقال له الوليد: يا أخا السكسك ألم أزد فى أعطياتكم؟ ألم أرفع المؤن عنكم؟ ألم أعط فقراءكم؟ ألم أخدم زمناكم؟ فقال السكسكى: إنا لا ننقم عليك أنفسنا ولكن ننقم عليك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله. . .

قال الوليد: حسبك يا أخا السكاسك فلعمرى لقد أكثرت وأغرقت وإن فيما أحل الله لسعة عما ذكرت[1]. . . . ورجع إلى الدار فجلس وأخذ مصحفًا وقال: يوم كيوم عثمان ونشر المصحف يقرأ[2]. . . حتى قتل.

وهذه المواجهة بين الوليد وخصومه تؤكد لنا حسن سياسته تجاه الرعية، وقد اعترف محاوره يزيد بن عنبسة السكسكى بها. . . أما دعاواهم الأخرى فهى من باب الإشاعات والتخرصات وأقاويل الخصوم - ربما باعتبار ما كان من هفوات شبابه أيام ضغوط هشام عليه - ونحن نميل إلى صدق الوليد فيما دافع به عن نفسه: (إن فيما أحلَّ الله لسعة). . . أفلم يجد الوليد إلا أمهات أولاد أبيه (زوجاته الجوارى) ينكحهن؟ ألا يستطيع الحصول على جوار لنفسه غيرهن؟ وهل يقتل الناس - فضلا عن الخلفاء والحكام - لمجرد الإشاعات والدعاوى التى لا دليل عليها. . . لقد صدق خالد بن عبد الله القسرى حين رفض تفسيق الوليد وقال لمروجى الشائعات عنه: إنما هى أخبار الناس!!

ولقد كان ابن خلدون أقرب إلى الموضوعية وهو يذكر الاضطراب فى الروايات حول الوليد بن يزيد. . . لكنه لم يستطع الوصول إلى نتيجة صحيحة. . . يقول ابن خلدون عن الوليد:

---

(1) الطبرى: 9/ 13.

(2) المرجع السابق.



ولقد ساءت القالة فيه كثيرا، وكثير من الناس نفوا ذلك عنه، وقالوا: إنها من شناعات الأعداء ألصقوها به (. . .) وقد روى عن الرشيد قوله: رحم الله الوليد ولعن يزيد الناقص فإنه قتل خليفة مجمعًا عليه[1].

وقد ذكر ابن علانة الفقيه - فيما أورده ابن خلدون - أمام المهدى العباسى أن الوليد كان إذا حضرت الصلاة يطرح الثياب التى عليه ثم يتوضأ فيحسن الوضوء. . . ويشتغل بربه. . وقد قال له المهدى بعد ما سمع منه: "بارك الله عليك يا بن علانة وإنما كان الرجل محسوداً فى خلاله ومزاحمًا بكبار عشيرة بيته من بنى عمومته مع لهو كان يصاحبه أوجد لهم به السبيل على نفسه (. . .) فرموه بالفسق والكفر واستباحة نساء أبيه وخوفوا بنى أمية منه. . . وكان أشدهم عليه فى ذلك يزيد بن الوليد لأنه كان يتنسك فكان الناس إلى قوله أميل"[2].

ولم يعش الخليفة القاتل (يزيد) إلا خمسة أشهر بعد ولايته[3]، وبويع - بعده - أخوه إبراهيم بن الوليد بيعة ناقصة، إذ انتقض عليه الناس ولم يتم له الأمر، وكان يسلم عليه تارة بالخلافة وتارة بالإمارة، وأقام على ذلك نحواً من ثلاثة أشهر ثم خلعه مروان بن محمد[4].

وهكذا بدأت مسيرة الدم داخل البيت الأموى، وفقدت الأمة إجلالها لهذا البيت المتآكل المتداعى. . . وكان عهد مروان بن محمد - مع عظم شخصيته - عهد اضطراب داخلى، ولم تعد للبيت الأموى قضية واحدة. . . بل صارت معظم المشكلات تدور داخله!!

---

(1) ابن خلدون: تاريخ 3/ 106.

(2) ابن خلدون: تاريخ 3/ 107.

(3) المرجع السابق

(4) المرجع السابق.

ومن مسيـرة الدم التى تدفقت بين أعضاء البـيت الأموى أن يزيد بن الوليد كان قـد حبس ولدى الوليد الثـانى المقتول، وهما الحـكم وعثمان - فى سـجون دمشق!!

ولما مات يزيـد وولى إبراهيم لم يطلق الولدين. . . !! وقد أثار هذا الـعمل حفـيظة مروان بن مـحمـد، ورفض - لهذا - أن يبـايع إبراهيم، مع أنه كـان قد استكان وكاد يبايع يزيد بن الوليد. . .

وقد التقى الجيشان الأمـويان بسيوفهما سنه 126هـ، أحدهما أرسله الخليفة إبراهيم بقيادة سليمــان بن هشام وفيه مائة وعشرون ألف جندى. . وثانيـهما يقوده مروان وفيه ثمانون ألف جندى[1].

وقد انتصر جيش مروان. . . ولكن دفع ولدا الوليد الثمن إذ قتلهما أصحاب السلطة فى دمشق خوفًا من مطالبة أحدهما بالخلافة، إذ كان أبوهما الوليد قد عهد إليهما بالأمر من بعده!!

وكـان هذا منعطفًا جـديداً لمزيد من الدم، فـقد تحـرك مروان إلى دمـشـق واستولى - بيسر - عليها، فقد كان إبراهيم قد خرج منها هو وسليمان بن هشام، وقد توسد مروان الأمور، وبويع خليفة، ونقل العاصمة إلى حران بالجزيرة. . لكن هذا كان إساءة بالغة لأهل الشام.

وقد ساعد الخلاف بين القـيسية واليمنية ونقمة أمـراء بنى أمية على فريق أو آخر على إشاعـة روح الفوضى والتمرد. . فثـار أهل فلسطين، ثم حمص، وأهل الغوطة، وحوصرت طبرية، وثارت تدمر[2]!!

---

(1) انظر: خليفة بن خياط ص372، والطبرى: حوادث سنة 127هـ.

(2) انظر: خليفة بن خياط 374 ؛ والطبرى فى حوادث سنة 127، وانظر القاضى سعدى أبو حبيب: مروان بن محمد ص 40 ح ونبيه عاقل: مرجع سابق 361.

وقد نكص على عقبيه سليمان بن هشام الذى كان عدواً لدوداً لمروان، وكان مروان قد عفا عنه وأكرمه هو والخليفة المخلوع.. وقد جرت بين جيش مروان وجيش سليمان معركة قرب قنسرين هزم فيها سليمان وتبعتهم خيول مروان تقتلهم وتأسرهم وتنتقم منهم لأنهم نقضوا البيعة[1].

وقد بقى مروان ثلاث سنوات يقارع الخصوم والفتن من كل ناحية!! وكانت هذه هى الفرصة التى استطاع فيها بنو العباس أن ينضجوا دعوتهم!!

وعندما التقى مروان بعبد الله بن على العباسى فى معركة الزاب قرب الموصل سنة 132هـ كان معه أكثر من مائة ألف، وقيل: بل كان فى مائة وخمسين ألفًا.. وكان جيش العباسيين أقل من هذا بكثير.. فقيل: إنه كان عشرين ألفًا[2]... ومع ذلك هزم مروان الشجاع... لأنه فقد الروح، وفقدت القوة التى يدافع عنها قضيتها ووحدتها، وأصبحت عاجزة عن أن تبصر ما تحت الرماد وتستهلكها صراعات داخلية قاتلة!!

الحقيقة أن نتيجة معركة الزاب نتيجة غريبة...

- فمروان أفضل من عبد الله بن على خبرة ودربة.

- وجيشه أكبر وأكثر خبرة.

- وظروفه الخارجية أفضل كذلك؛ لأنه جيش ينتمى لدولة قائمة.

- ومع ذلك فإن كل ذلك يضيع...

- والسبب واضح... فإن القضية لم تعد قضية المعركة.. بل قضية الدولة والعقيدة التى تقف وراء المعركة...

---

(1) خليفة بن خياط 403.

(2) القاضى سعدى: مرجع سابق، 130.

لقد كان بنو أمية قـد انتهوا. . . كانوا ـ فى الحقيقة ـ قـد انتحروا وهم كبار أقوياء. . . !!

وخلال السنوات السبع الأخـيرة أجهزوا على بعضـهم. . . وهزمت جيوش أموية جيوشًا أموية. . . وكل هذا كان من مظاهر الانتحار. . .

* * *

لقد وقع بنو أمية فى خطأ حضارى كبير. . . وأقدموا على عمل خطير، لقد فشلوا فى إيجاد تيار حضارى بعد أن اتسـعت رقعة الأرض التى يقفون فوقها. . . لقـد كان بإمكانهم تحـويل كل المناوئين إلى عـاملين مـعهم. . . فى مـجال نشـر الإسلام والعـربية والقـضاء على الفِرَق والـطوائف والشيع بالحوار والـفكر، ونشر الإسلام الصحـيح وترجمته إلى لغات البـلاد المفتوحة. . وتحقـيق إسلام وتعريب كاملين لهذه الأرض الشاسعة التى فتحـها الله عليهم. . . أى بإيجاز تحقيق التوازن بين الدولة والدعوة والأرض والعقيدة والسياسة والفكر. . .

وكانت هذه رسالة عظمـى. . . لم يتقدم فيه الأمـويون كما تقتضى طبـيعة الظروف والتحديات. . . وكما تقتضى الاستجابة الملائمة للتحدى، وهذا هو الخطأ الحضارى الكبير. . .

وأما العـمل الخطير الذى أقدم الأمويون عليـه. . .فهو أنهم انتحـروا عندما تعـاونوا على قتل الأسـرة الأموية، وتبـادلوا مواقع الموت. . . وفى سـبع سنوات كانوا قد أجهزوا على أنفسهم. . . وقضوا على أسرتهم التى حملوا رايتها.

إنه لا أسباب حـقيقية (أساسـية) تذكر لسقوط بنى أميـة. . . فكل الأسباب التى يجنح إليـها الدارسـون أسبـاب لا تكفى لسـقوط هؤلاء العظمـاء. . . وهى أسـباب تكـاد توجد فى مـعظم الدول والحـضـارات. . . بل بعضـهـا من السنن الاجتمـاعية. . وكثـير من الدول عاشت أضعـاف ما عاشوا، وهى تحـمل جراثيم



الفناء أكثر مما كانوا يحملون. . . ولهــذا ـ وكما ناقشنا فى ثنايا البحث ـ يمكن أن تتداعى كل الأسباب التى تساق فى هذا الطريق. . .

وليس هناك إلا هاتان الحقيقتان. .

حقيقة أنهم انهاروا داخلهم. . .

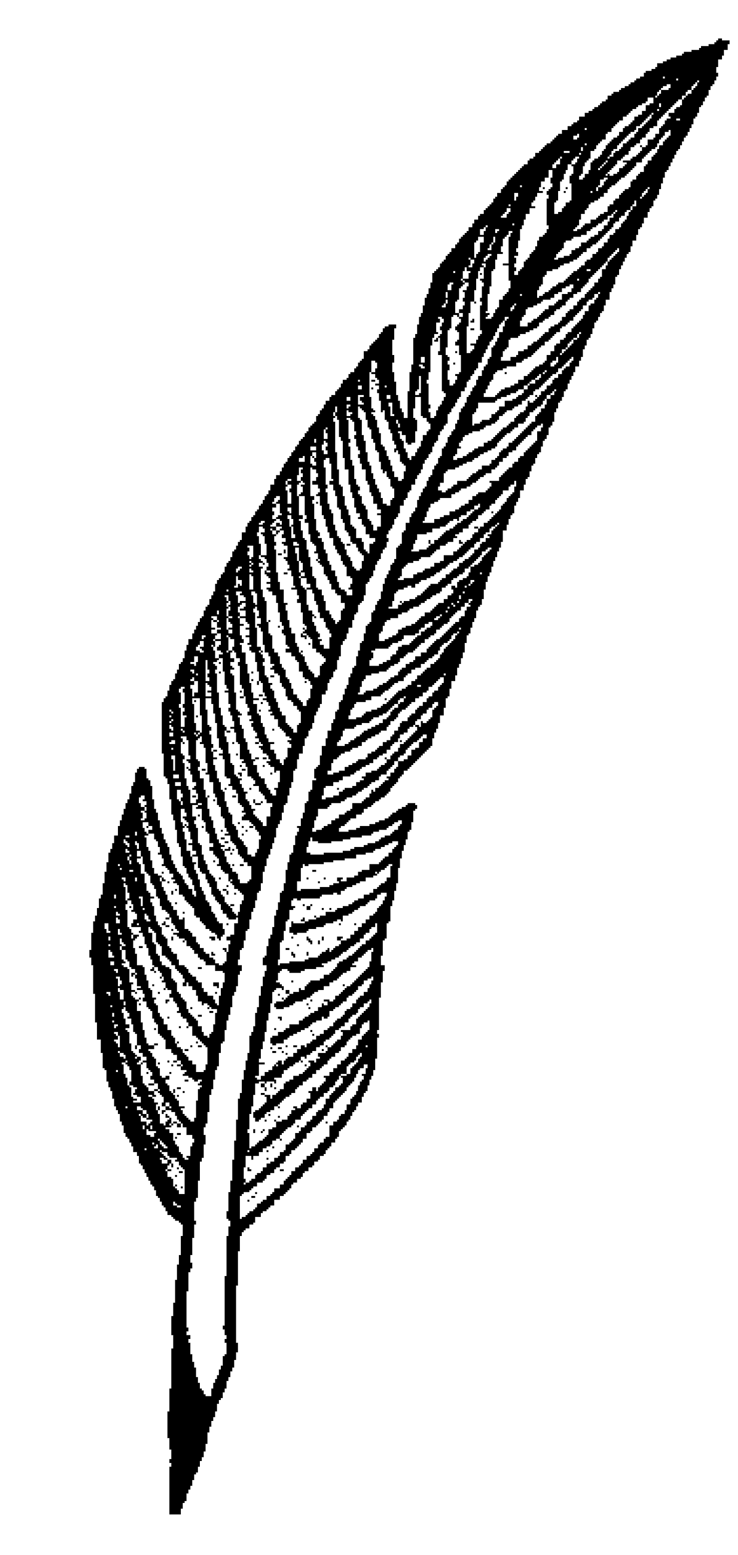
وحقـيقة أنهم لم يـنبعثـوا بتيار حـضارى يتمم تيـار الفتـوحات، ويكمله، ويمتص كل حركات الخروج والفتن. . .

تلك هى سنة التاريخ الحضارى دائمًا. . .

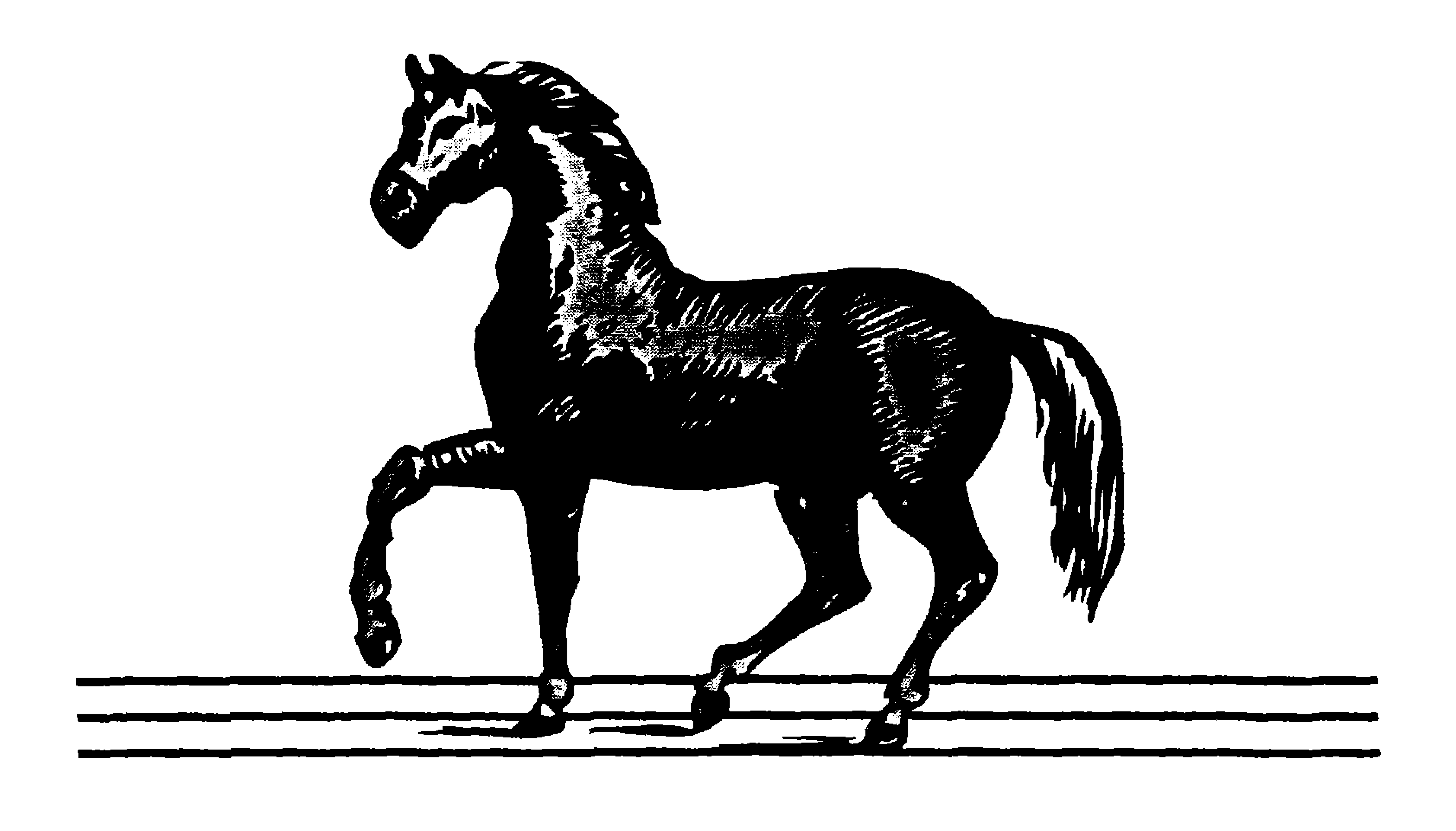
إما أن تتقدم أو تموت. . .

ولا سكون فى تاريخ الإنسانية!!

* * *



سياسة العباسيين
فى قمع الأمويين والتنكيل بهم



قامت سياسة العباسيين تجاه بنى أمية الذين انهارت دولتهم وهى فى إبان قوتها وعنفوانها على أساسين:

أولهما: القضاء على كل نفوذ سياسى لهم بين شيعتهم وأنصارهم؛ حتى لا يفكروا فى استعادة سلطانهم، أو إحياء ملكهم الدارس، ولا يفكر هؤلاء الأنصار فى البحث عن أمير أموى يلتفون حوله، ويحملونه إلى كرسى الحكم.

وثانيهما: الانتقام الشخصى من بنى أمية لما فعلوه ببنى هاشم عامة والعلويين خاصة من قتل وسجن وتشريد.

وكلا الأساسين يقضى ـ كما يقول الدكتور محمد حلمى (رحمه الله) ـ بتعقب الأمويين أينما كانوا لاستئصال شأفتهم، واجتثاث فروعهم إن كان إلى ذلك من سبيل[1].

ومن هنا قاد العباسيون فور قيام دولتهم مطاردة دموية شاملة ضد بنى أمية، يندر أن يقدم إلينا التاريخ الإسلامى مثيلاً لها فى بشاعتها وظلمها.

وفيما يلى نقدم نماذج من هذه المطاردة التى حفلت بأحداثها وتفاصيلها مصادر التاريخ الإسلامى التى كتبت فى ظل الدولة العباسية نفسها:

1 ـ استهل العباسيون مسلسل الانتقام الدامى بقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية؛ حيث تتبعه عبد الله بن على العباسى ـ المملوء حقداً على الأمويين ـ حتى لجأ مروان إلى مصر، فلحقته جيوش العباسيين عند قرية بوصير، فقتل مروان، وأرسلت رأسه إلى عبد الله بن على بالشام، فأرسلها عبد الله بدوره إلى أبى العباس السفاح الذى خرَّ ساجداً لله، ثم رفع رأسه قائلاً: "الحمد لله

---

(1) انظر د/ محمد حلمى محمد أحمد: الخلافة والدولة فى العصر العباسى، ص: 43، القاهرة (1982م).



الذى أظهرنى عليك وأظفرنى بك ولم يبق ثأرى قبلك، وقبل رهطك أعداء الدين"، ثم تمثل قائلاً: لو يشربون دمى لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني[1].

2 ـ ومن ذلك - أيضًا - ما فعله أبو العباس السفاح بسليمان بن هشام بن عبد الملك الذى كان فى مجلسه مطمئنًا إلى الأمان الذى بذله الخليفة له، فإذا بمولى لأبى العباس ينشده:

لا يغرنك ما ترى من رجـــال إن تحت الضلوع داءً دويًا

فضع السـيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويًا

فتحركت أحقاد أبى العباس السفاح ولم يبال بما أعطاه لسليمان من عهود الأمان، وأمر بقتله[2].

3ـ تعقب عبد الله بن على العباسى أبناء البيت الأموى بالشام رجالاً وأطفالاً ونساءً فقتلهم أينما كانوا، ولم يفلت من القتل إلا نفر قليل هربوا إلى الأندلس، وإلا بعض الأطفال الرضع.

وقد أمر عبد الله بن على بقطع يدى أبان بن معاوية بن هشام ورجليه، ثم طيف به فى كور الشام ينادى على رأسه: "هذا أبان بن معاوية فارس بنى أمية"؛ حتى مات، وذبح العباسيون عبدة بنت هشام بن عبد الملك ذبحًا[3].

4ـ وفى البصرة قتل سليمان بن على العباسى جماعة من بنى أمية وأمر بهم فسحلوا، كما قتل يحيى بن محمد العباسى أعدادًا كبيرًا من أهل الموصل[4].

---

(1) انظر: الطبرى: تاريخه 7/ 432، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ 5/ 427.

(2) ابن الأثير: الكامل 5/ 429.

(3) د/ السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسى الأول، ص: 101، 102.

(4) ابن الأثير: الكامل 5/ 444.



5 ـ وبعد أن تفرق بنو أمية فى الآفاق للنجاة بأرواحهم من بطش العباسيين بهم، تظاهر العباسيون بالأسف والندم على ما اقترفوه من آثام فى حق بنى أمية، وبسطوا أمانًا لأمراء بنى أمية حتى يجمعوهم، ثم يضربوا رقابهم جميعًا، فيقضوا عليهم بذلك دفعة واحدة، فخدع الأمويون بأمان العباسيين الكاذب، فتوجه منهم نحو ثمانين رجلاً إلى معسكر صالح بن على العباسى بالقرب من نهر أبى فطرس بفلسطين بعد أن ملوا حياة التشرد، وأضناهم الفرار من مطاردة العباسيين لهم.

فلما اكتمل بنو أمية أمر عبد الله بن على بهم فقتلوا، وكانوا فيمن قتل: محمد بن عبد الملك بن مروان، والغمد بن يزيد بن عبد الملك، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وسعيد بن عبد الملك، وغيرهم، فلما فرغ منهم قال:

بَنِى أميَّةَ قد أفنيْتُ جَمعَكُم فكيفَ لى مِنكم بالأول الماضِى
يُطَيِّبُ النفسَ أنَّ النارَ تجمعُكم عُوِّضْتُم من لَظَاهَا شَرَّ مُعْتَاضِ
مُنِّيتُم لا أقالَ اللهُ عثرَتَكُمْ بَلَيْثِ غَابٍ إلى الأعداءِ نهَّاضِ
إنْ كانَ غيظى لفوتِ مِنكُم فلقَدْ مُنِّيتُ منكم بما رَبِّى به رَاضِ[1]

5 ـ ومن حوادث الانتقام البشع الذى ينكره الإسلام، وتأباه الإنسانية ويرفضه الخلق النبيل؛ ما رُوى عن عبد الله بن على العباسى أن شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم دخل عليه وعنده نحو تسعين رجلاً من بنى أمية على الطعام، فقال شبل:

أصبحَ الملكُ ثابتَ الأساسِ بالبهاليلِ من بنى العَبَّاسِ
طلبوا وترَ هاشم فشَفَوْها بعد مَيْلٍ من الزَّمَانِ ويَاسِ
لا تُقيلنّ عبدَ شمسٍ عِثَارا واقْطَعَنْ كلَّ رَقْلَةٍ وغِواسِ

(1) ابن الأثير: الكامل 5/ 430، 341، ابن الطقطقا: الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص: 152.



ذُلّهـا أظهـرَ التوددَ مـنْهَـا وبِهَـا مِنكُم كـحَـرِّ المواسـى

ولقَـدْ غَـاظَنِـى وغَـاظَ سـوائى قُـرْبُهم من نَـمَارقٍ وكَـرَاسِـى

أنْزِلُـوها بحـيثُ أنزلـهـا الـلهُ بدارِ الـهَـوانِ والإتْـعَـاسِ

واذكـروا مـصـرعَ الحـسينِ وزيداً وقـتـيلاً بجانبِ المهـراسِ

والقـتـيـلَ الذى بحَـرَّان أضـحى ثاويًا بين غُـرْبَةٍ وتَنَـاسِ

فأمر بهم عبـد الله فضربوا بالعمد حتى قـتلوا وبسط عليهم الأنطاع، فأكل الطعام عليها، وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعًا. . . !!![1].

6 ـ لم يكتف عبد الله بن على العباسى بما اقـترفه من آثام فى حق بنى أمية من الأحـياء؛ بل أراد ـ بدافـع الحقـد الأسود والـكراهية المظلمـة ـ أن ينتـقم من أمواتهم، فأمر بنبش قـبور بنى أمية فى دمشق، فنبش قبر معـاوية بن أبى سفيان، فلم يجدوا فـيه إلا خيطًا مثل الهـباء، ونُبش قبـر يزيد بن معاوية بن أبى سفـيان فوجدوا فيه حطامًا كأنه الرماد، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته، وكان لا يوجد فى القبـر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عـبد الملك فإنه وجد صحـيحًا لم يبل منـه إلا أرنبة أنفه، فـضربه عبـد الله بن على بالسيـاط، وصلبه وحرقه وذرَّاه فى الريح[2]!!

7 ـ وكذلك قتل داود بـن على العباسى من ظفر به منهم من بنى أمـية بمكة والمدينة. ورُوى أنه لما أراد قتلهم قال له عبد الله بن الحسن بن الحسن: يا أخى إذا قتلـت هؤلاء فمنْ تباهـى بملكه؟ أما يكفـيك أن يروك غاديًا ورائحًـا فيمـا يذلهم ويسوءهم؟ فلم يقبل منه وقتلهم[3].

(1) ابن الأثير: الكامل 5/ 430، ابن الطقطقا، الفخرى، ص: 151، 152.

(2) ابن الأثير: الكامل 5/ 430.

(3) السابق 5/ 448.



8 ـ وقد واصل العباسيون بعد خليفتهم الأول أبى العباس السفاح سياستهم الانتقامية مع الأمويين حتى فى عهد المأمون نفسه الذى أمر سنة (212هـ) بلعن معاوية على منابر بغداد، وأعد الكتب إلى الحواضر الإسلامية يأمر عماله فيها بذلك، فأعظم الناس ذلك وأكبروه، واضطربت العامة فأشير عليه بترك ذلك، فأعرض عن ذلك[1].

وقد أنكر الفقهاء المعاصرون لقيام الدولة العباسية ما حل بالأمويين على أيدى العباسيين من قتل وتنكيل وتشريد، ولم ترهبهم قسوة العباسيين وشدة بطشهم، فهذا عبد الرحمن الأوزاعى فقيه أهل الشام ومحدثهم وعالمهم الكبير يسأله عبد الله بن على العباسى ذلك السفاح الهمجي: ما تقول فى دماء بنى أمية؟ فأجابه الأوزاعى: لقد كان بينك وبينهم عهود، وكان ينبغى أن تفوا بها، ثم أعلن حكم الشرع فى دماء بنى أمية التى سفكها العباسيون ظلمًا وعدوانًا فقال: دماؤهم عليكم حرام. فغضب عبد الله بن على، وانتفخت أوداجه، واحمرت عيناه قائلاً للأوزاعى: ويحك ولم؟ فقال الأوزاعى: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: ثيب زان، ونفس بنفس، وتارك لدينه». فقال عبد لله: ويحك أو ليس الأمر لنا ديانة؟ فقال الأوزاعى: كيف ذاك؟ فقال عبد الله: أليس كان رسول الله ﷺ أوصى لعلى؟ فقال الأوزاعى: لو أوصى له ما حكم الحكمين، فسكت عبد الله وأفحمه منطق الأوزاعى[2].

* * *

(1) د/ السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسى الأول، ص: 102.

(2) الذهبى: تذكرة الحفاظ 1/ 181، نقلاً عن د/ فهمى عبد الجليل: العصر العباسى الأول، منهج جديد وتقويم موضوعى، ص: 267، 268، مكتبة النصر، ط/ الثانية (1996م).

الخلفاء الأمويون فى المشرق

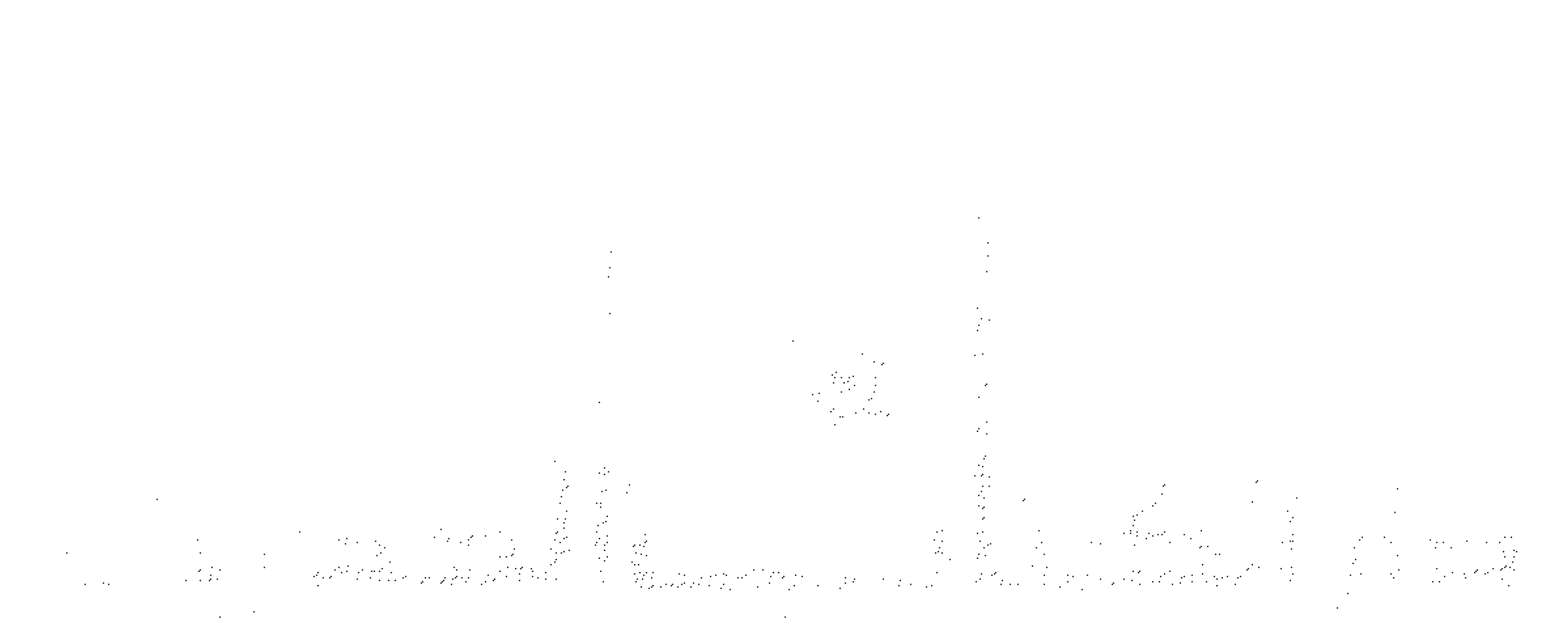
1 -	معاوية بن أبى سفيان	41 - 60هـ
2 -	يزيد بن معاوية	60 - 64 هـ
3 -	معاوية بن يزيد	64 - 64 هـ
4 -	مروان بن الحكم	64 - 65هـ
5 -	عبد الملك بن مروان	65 - 86 هـ
6 -	الوليد بن عبد الملك	86 - 96 هـ
7 -	سليمان بن عبد الملك	96 - 99 هـ
8 -	عمر بن عبد العزيز	99 - 101هـ
9 -	يزيد بن عبد الملك	101 - 105هـ
10 -	هشام بن عبد الملك	105 - 125هـ
11 -	الوليد بن يزيد بن عبد الملك	125 - 126هـ
12 -	يزيد بن الوليد بن عبد الملك	126 - 126 هـ
13 -	إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	126 - 127هـ
14 -	مروان بن محمد بن مروان	127 - 132هـ

محتويات الكتاب



الموضوع	الصفحة







بنو أمية في التاريخ

بين الضربات الخارجية والانهيار الداخلي

[دراسة حول سقوط دولة بني أمية في المشرق]